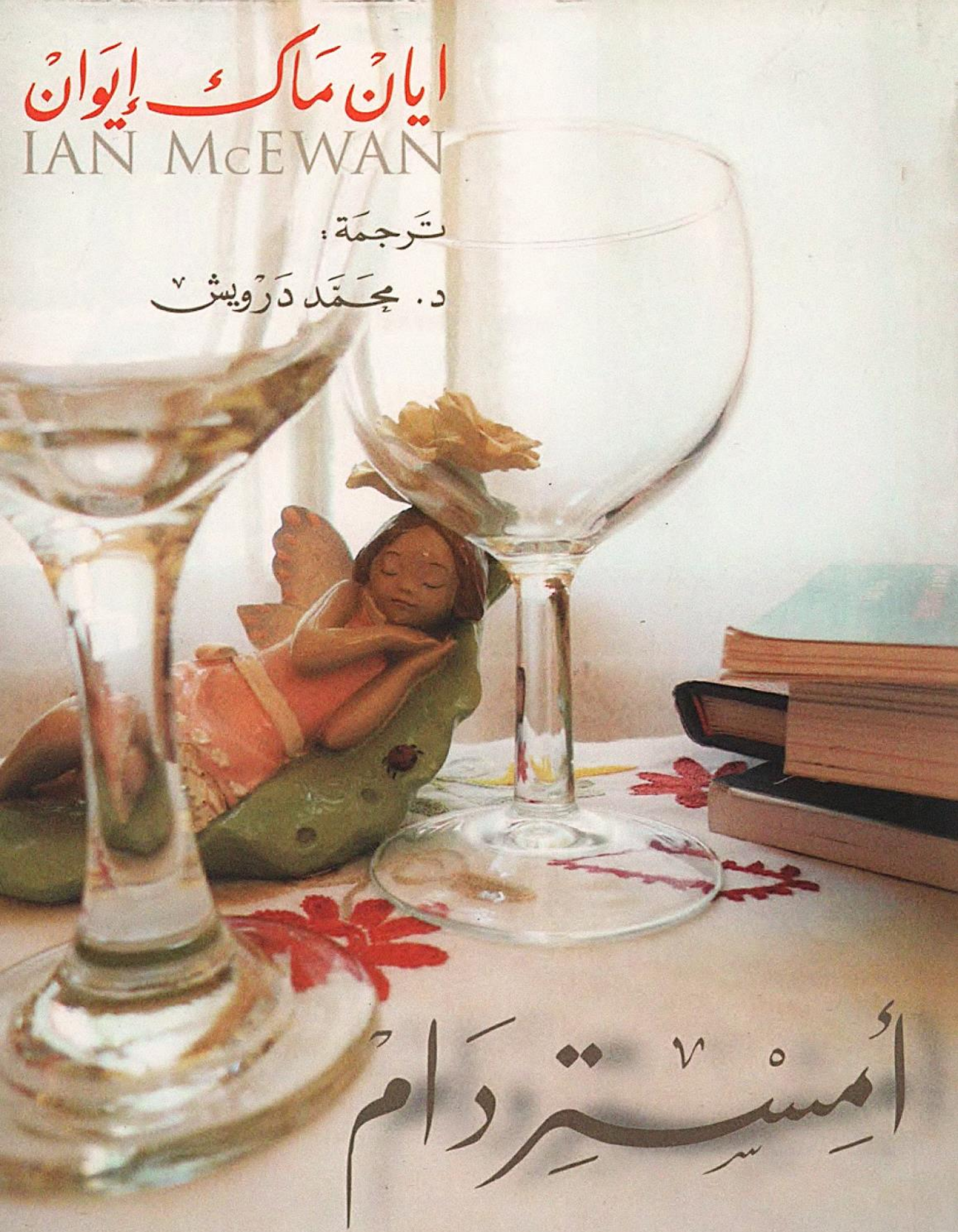
ايان ماك إيوان
IAN McEWAN

ترجمة:
د. محمد درويش



أمستردام

الرواية الحائزة جائزة بوكر لسنة ١٩٩٨

إيان ماك إيوان

أمستردام

ترجمة د. محمّد درويش

الرواية الحائزة جائزة بوكر لسنة ١٩٩٨

دار الآداب ـ بيروت

أمستردام

إيان ماك إيوان/ روائي

ترجمة: د. محمّد درويش

الطبعة الأولى عام 2010

ISBN 978-9953-89-163-7

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123 ـ 11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

Website: www.adabmag.com

إلى جاكو وإليزابيث غروت

الصديقان اللذان التقيا هنا وتعانقا ورحلا ،
كل واحد إلى غلطته .

دبليو . إج . أودن : مفترق طرق

مقدمة المترجم

إيان ماك إيوان. . . صرامة العقلانيّة وسحر الروحانيّة

وُلد إيان ماك إيوان في بلدة أولدرشوت جنوب غربي لندن سنة ١٩٤٨ ، لكنّه أنفق الشطر الأعظم من طفولته في قواعد عسكريّة لا سيّما في ليبيا التي أمضت فيها أسرته أطول مدّة خارج الوطن، بحكم عمل والده ديفيد الذي كان ضابطًا في الجيش البريطاني. ولمّا كان والده كثير الغياب عن المنزل فقد تعلّق الطفل إيان بأمّه روز، ربّة البيت التي يقول عنها إنّه كلّما كان يأتي بكتاب يشتريه من إحدى المكتبات يجد أمّه وقد رمت به فوق رفّ من الرفوف، لأنّها لا تريد أن يشوّه الكتاب منظر المنضدة التي نظّفتها قبل قليل! كان البيت يخلو من الكتب تمامًا، حسب قول إيان، ولم يكن هناك أيّ اهتمام بالكتب!

كانت أمّه روز تزوّجت من زوجها الأوّل إرنست وورت الذي كان يشتغل صبّاغًا يصبغ البيوت، وأنجبت منه ولدًا يُدعى جيم وابنة

تُدعى مارغي، وقد لقي إرنست مصرعه إبّان الحرب العالميّة الثانية سنة ١٩٤٤. وبعد ثلاثة أعوام تزوّجت روز من ديڤيد ماك إيوان الذي لم يكن يهمّه أمر جيم ولا مارغي، فتعهّدت والدة إرنست بتربية جيم، في حين أُرسلت مارغي إلى مدرسة داخليّة خاصّة بأيتام الجنود. وهنا داخَلَ إيان إحساس بأنّه طفل وحيد.

يقول إيان عن أبويه إنّهما تركا المدرسة في سنّ الرابعة عشرة ولم تكن لديهما أيّة اهتمامات أدبيّة. ولكنّه يستدرك قائلاً إنّ موهبته في الكتابة والتأليف لا بدّ أن يكون قد ورثها، رمزيًّا، عن أمّه لأنّها كانت امرأة قلقة دائمًا، وإنّ هذا القلق يحتاج إلى خِيال. وكان القلق يصل بها حدًّا غالبًا ما كانت تعتقد معه أنّها، على سبيل المثال، نسيت أن تطفئ المكواة بعد استعمالها. وقد كتب إيان مقالة عن قلق أمّه بعنوان «لسان الأمّ» يوضح فيها جوانب عديدة من هذا القلق العقلي الذي ظلّ يساورها طوال حياتها، ومنها أنّها كانت تشعر بالخجل من لكنتها، إذْ كانت تنتمي للطبقة العاملة، فتعمد إلى الكلام بصوت بطيء أمام نساء ينتمين إلى طبقة أرفع منها. وكانت ترى اللغة الإنكليزيّة الرصينة وكأنّها، على حدّ قول إيان، توشك أن تنفجر في وجهها انفجار قنبلة! يُذكر أنّ إيان نشر هذه المقالة في تشرين الأوّل سنة ٢٠٠١ في وقت بدأت أمّه تُصاب بالعته.

أمّا والد إيان فقد كان يتمتّع بشخصيّة آسرة وقويّة، ولكنّه كان مزاجيًّا بطبعه، حبّه لولده إيان فاق كلّ شيء. كان يصحبه معه لاصطياد العقارب في الصحراء الليبيّة ويضعانها في زجاجة مربّى،

وكانا يلعبان لعبًا صاخبًا على شواطئ البحر الأبيض المتوسّط. يقول إيان عن تلك الأيّام: كنت أقف على كتفي أبي، لكنّني سرعان ما أنزلق من فوقهما لأنّ ماء البحر كان يزيل دهن شعره من نوع بريل كريم فينساب على كتفيه. كان أبوه متّقد الذكاء، حاز أعلى العلامات في مدرسة البلدة، لكنّ أمّه طلبت منه أن يترك المدرسة ويبدأ بالعمل وكسب الرزق، فانضمّ إلى الجيش وشارك في الحرب العالميّة الثانية، وجُرح في معركة دنكرك الشهيرة. ولمّا عرض عليه قادة الجيش إرساله إلى الكلّيّة للدراسة فيها، رفض بسبب من حذره الشديد، وحبّه لعمل الشيء نفسه كلّ يوم، إذْ كان يذهب كلّ يوم سبت إلى الحانة نفسها ليحتسي كأسًا من الجعة، في حين تذهب زوجته روز لشراء الخضراوات. وإذا ما تأخّرت لأكثر من نصف ساعة، كما اتّفقت عليها مع زوجها، تراه يطيل النظر باستمرار إلى ساعته، وكانت تعلم أنّها إذا ما تأخّرت فإنّه سيكرّر النظر إلى ساعته وأنّ عليها، لهذا السبب، أن تُسرع بالشراء والعودة لأنّها ما كانت تطيق امتعاضه. إلاّ أنّ زواجهما، برأي إيان، كان لا يخلو من اضطرابات مزعجة انتابها العنف أحيانًا، وكان إحساس إيان بالسأم والمنفى والافتقار إلى الأحوال الاعتياديّة إحساسًا طاغيًا عليه، ولم يفهم، كما يقول، السبب الذي دفع أبويه إلى العيش خارج الوطن ما داما يفتقران إلى الحماس للسفر والرحلات. فعلى سبيل المثال عاشت الأسرة في ألمانيا ما بين عامي ١٩٦١ و١٩٨١، وكان الأبوان يشاهدان التلفاز الألماني كلّ ليلة دون أن يفهما كلمة واحدة من اللغة الألمانيّة.

تشير الأحداث بوضوح إلى أنّ قصّة حبّ جمعت بين ديڤيد

وروز عندما كان زوج روز الأوّل إرنست وورت يحارب في جبهات القتال في شمال أفريقيا. وقد حملت روز إثر ذلك ونشر الاثنان إعلانًا في صحيفة ميركوري الصادرة في مدينة ريدنغ في كانون الأوّل سنة ١٩٤٢ يقول: (مطلوب بيت لطفل ذكر عمره شهر واحد، أسرته تتخلّى عنه تمامًا). وبعد مرور أسبوعين وقفت روز وشقيقتها على رصيف محطّة قطار ريدنغ وسلّمت الطفل لأوّل زوجين ردّا على الإعلان بالموافقة. ولم تتمكّن الأمّ من تقديم تفسير لشقيقتها عن ذلك التصرّف بل قالت: كنت مضطرة إلى ذلك العمل. ولعلّ والد إيان كان يريد بدوره أن تتخلّى روز عن الطفل لأنّ الجيش البريطاني كان، على الأرجح، سيطرده من الجيش لارتكابه الزنى مع زوجة جندي آخر.

في شباط سنة ٢٠٠٢، علم إيان أنّ له أخًا أكبر يدعى ديف شارب ويقطن في مقاطعة أوكسفورد شاير، وأخبر ديف أخاه إيان أنّه بنّاء، وأنّه نشأ في كنف أبوين لطيفين. والتقى إيان أخاه ديف في مشرب في أحد الفنادق قرب مدينة أوكسفورد، وسرعان ما أدرك ديف، منذ ذلك اللقاء أنّهما «يختلفان اختلافًا كلّيًا في كلّ شيء» على حدّ تعبيره، لأنّه، أي ديف، كان شخصًا مرحًا، منبسطًا، يحبّ النكات البذيئة، ويهوى كرة القدم، في حين يعترف إيان أنّه ما كانت لتستهويه كلّ هذه الصفات. واعترت الدهشة ديف عندما شاهد شخصًا ما يتقدّم من إيان أثناء إحضاره الشراب من على النضد ويطلب منه توقيعًا. عندئذٍ فقط أدرك ديف أنّ أخاه مؤلّف كتب. لكنّ العلاقة تكدّرت قليلاً بين الأخوين عندما نشر ديف في سنة ٢٠٠٧ قصّة الأبوين اللذين تبنّياه ولم يكن قد أطلع

إيان على ذلك. ومع هذا، فقد كتب إيان مقدّمة لمذكّرات أخيه ديڤ التي نشرها في صيف ٢٠٠٧ بعنوان «التخلّي التامّ» منوّهًا إلى أنّه اضطرّ إلى أن يكتب المقدّمة لأنّ الحكاية، حكاية الأخوين والتبنّي، لم تعد سرًّا، وأنّ الأفضل أن يكتب مقدّمة بنفسه يوضح فيها بعض الملابسات.

يستذكر إيان رحيل الأسرة عن ليبيا، فيقول إنّه أجهش بالبكاء عندما غادرت الطائرة ليبيا متوجّهة إلى إنكلترا، لكنّ تجربة الرحيل ساعدته، كما يؤكّد، على إعادة اكتشاف نفسه من جديد. ففي مدينة صافوك بإنكلترا، التحق إيان بمدرسة وولفرستون هول، وهي مدرسة تجريبيّة خاصّة بالتلاميذ الأذكياء الذين يعانون الحرمان. كان إيان تلميذًا خجولاً، ولكنّه كان أيضًا قارئًا نهمًا فضّل، منذ نعومة أظفاره، قراءة أعمال أغاثا كريستي البوليسيّة وانتقل رويدًا رويدًا إلى مؤلّفات غراهام غرين وآيريس مردوخ. غير أنّ خجل هذا التلميذ المبكر كان يخفي من ورائه عقلاً مدهشًا. ففي سنة ١٩٦٥ نشر إيان قصيدة متشائمة في مجلّة المدرسة، مشيدًا فيها بقرار الحكومة البريطانيّة إلغاء عقوبة الإعدام ويصف سجينًا ينتظر تنفيذ حكم الإعدام فيه: «ألا تعلم أنّ عقوبة الإعدام أُلغيت/ لقد وضعنا رملاً كثيرًا في ساعتك الرمليّة/ وسوف تقضي حياتك في زنزانة منفردة/ لكن لا تبتئس، فنحن نتمنّى لك كلّ الخير».

أحبّ إيان منذ صغره دراسة حساب التفاضل والتكامل الذي شبّهه برفع الأثقال، لكنّه استقرّ في نهاية المطاف على دراسة الأدب وأظهر، منذ البداية، أنّه مؤهّل لهذه الدراسة فتقدّم للحصول على

بعثة دراسيّة في جامعة كيمبردج. يصف إيان ما حدث أثناء المقابلة لاختباره فيقول: جلس ثلاثة أساتذة وبدأوا يسألونني عن ماهيّة المأساة، وكان سؤالهم الأوّل عن مفهوم أرسطو للمأساة. ولمّا أفلحت في الإجابة سألوني عن مسرحيّة يوليوس قيصر ومسرحيّة عطيل وعن ماكبث. لم أكن قد قرأت مسرحيّة ماكبث، لكنّني كنت أعرف خطوطها العامّة فأجبت باختصار وأردفت: لكن من الناحية الثانية نجد أنّ مسرحيّة كوريولانوس... لكنّ أحد الأساتذة أوقفني عن الحديث وطلب منّي أن أرجع للحديث عن مسرحيّة ماكبث، فتلعثمت ممّا دفع الأستاذ الثاني إلى أن يوجّه إليَّ سؤالاً مباشرًا: هلّا قرأت مسرحيّة ماكبث يا سيّد ماك إيوان؟ فقلت: لا. وشعرت بأنّني تحطّمت بهذه الإجابة ورفضت الإجابة عن بقيّة الأسئلة لأنّني شعرت بالمذلّة. وبهذا أخفق إيان في الحصول على البعثة الدراسيّة، وأنفق سنة كاملة في لندن عمل خلالها في جمع القمامة، ولكنّه التحق بعدها بجامعة ساسكس.

بدأ الدراسة سنة ١٩٦٧، ولكنّه أبدى في السنة الأخيرة اهتمامًا كبيرًا بقضيّتين أساسيّتين هما قراءة أعمال فرويد وتأليف الروايات. وبعد تخرّجه في الجامعة التحق بدراسة الماجستير في موضوع الأدب المقارن بجامعة إيست أنغليا التي سمحت له بتقديم قصصه كجزء من متطلّبات الحصول على الشهادة. وأظهر منذ البداية أسلوبًا منظّمًا، دقيقًا في الوصف، خاليًا من الاستعارات المشوّهة، لامعًا بجمله لمعان حافّة الشفرة. وقد عبَّر إيان عن نثره المتدفّق، واصفًا إيّاه بأنّه نتاج قلق طبقي، كلماته تنساب بلا قلم في يده، وحججه تتشكّل في ذهنه فيفقد بداياتها عندما يصل

نهاياتها. ويظلّ يسأل نفسه بعد أن يكمل كتابة جمله: هل تُعبّر هذه الجملة يا تُرى عن المغزى المقصود الذي أردته؟ هل تحتوي على غلطة أو غموض لا أتبيّنه بنفسي؟ هل تجعل منّي هذه الجملة أضحوكة؟

وفي سنّ الرابعة والعشرين وافقت مجلّة أميركان ريڤيو الأدبيّة المعروفة على نشر قصّة إيان ماك إيوان القصيرة «أقنعة». يقول إيان مستذكرًا إيّاها: وصلتني المجلّة بالبريد، وكان غلافها ورديًّا وعليه طُبعت الأسماء: سوزان سونتاغ، وفيليب روث، وإيان ماك إيوان، فكان ذلك حدثًا فريدًا. وسرعان ما ذاعت شهرته، إذْ رحَّب به الروائي في. إس برتشيت، واصفًا إيّاه بأنّه وريث بيكيت وكافكا. كما رحَّبت به مجلّة إنكاوتر الذائعة الصيت يومئذٍ. ورحَّب به وبجرأته القرّاء الشباب، وقال صديق عمره الشاعر والناقد الأدبي جيمز فنتون: «إذا كنت شابًّا وتقرأ كتابًا ومغرمًا بفتاة وتشعر بالحزن فإنّك ربّما تقرأ قصّة من قصص إيان ماك إيوان».

يقول إيان إنّه أراد بقصصه الأولى أن يحدث صدمة، لكنّ التشاؤم الذي طغى على أعماله المبكرة خانه وتخلّى عنه بعد أن تقدّم في السنّ، لكنّ هذا التحوّل لم يكن تحوّلاً تامًّا، لأنّ اهتماماته الأساسيّة لا تزال في علم النفس، وكما هو، شأن أبناء جيله فقد تنوّعت اهتماماته، متنقّلاً من دراسة الانحرافات إلى دراسات الحالات السويّة، وإذا كان فرويد معلّمه الأوّل فإنّ دارون كان معلّمه الثاني.

في سنة ١٩٧٢، اشترى إيان واثنان من أصدقائه حافلة صغيرة

مستعملة، وسافروا بها من ميونخ إلى ممرّ خيبر. وفي أواسط السبعينيّات أُغرم ببيني آلن التي كان قد التقاها في جامعة إيست أنغليا. كانت مطلّقة ولها ابنتان هما بولي وأليس. ويقول الفيلسوف جيمز غرانت، الذي كانت تربطه بالاثنين أواصر صداقة قويّة، إنّ آلن كانت امرأة ناشطة في الحركة النسويّة وطالبة ممتازة تدرس الأدب، تقرأ ما يكتبه بحماس وتتحدّث عنه بجدّ. ويقول الروائي مارتن إيمس، وهو ابن الأديب البريطاني الراحل كنغزلي إيمس، إنّ مواقف آلن الإيديولوجيّة استهوت إيان في أواسط السبعينيّات ومنها أنّ الرواية ستعالج في المستقبل القريب موضوع تحرّر المرأة. كانت آلن تمارس التأليف الروائي دون نجاح يُذكر، وكانت مهتمّة بعلم الفلك والروحانيّات، وانتهى بها المطاف إلى تدريس التأمّل والعلاج وعلم الفلك والإبداع. وقد حاول إيان أن يجد أرضيّة علميّة لمثل هذه الأفكار البديلة. وفي أواخر السبعينيّات قرأ كتبًا عن صوفيّة الشرق وميكانيكا العلم، واعتقد أنّه سيتوصّل إلى نوع من التوفيق بين الفكر الغربي والفكر الشرقي وكتب مقالة تثني على الفيزياء الحديثة قال فيها إنّ العلم ربّما وصل الآن إلى المرحلة التي لم يعد فيها يتعارض مع الأحاسيس الغريزيّة الدفينة ـ التي تبدو متأصّلة في أعماقنا دومًا ـ وإنّ هناك بُعدًا روحيًّا لوجودنا وحياتنا. وثمَّنت المقالة الاهتمام الكبير والجديد بالصوفيّة والفلسفات الشرقيّة والرَّجم بالغيب وأساليب العلاج القديمة التي تكمن خارج نطاق الطبّ التقليدي. ولكنّه يؤكّد في الوقت نفسه أنّ اهتماماته بالعلوم لم تتوقّف، وأنّ دراسته الصوفيّة تمثّل بُعدًا معرفيًّا آخر يضاف إلى بقيّة معارفه.

في العام ١٩٧٩ اشترى إيان منزلاً في حيّ كلابهام جنوبي لندن، وبعد ثلاثة أعوام تزوّج بآلن، وانتقلت ابنتاها للسكن في المنزل الجديد. وفي سنة ١٩٨٤، وبعد ولادة ابنهما وليم، انتقل إيان للعيش في بيت واسع بمدينة أوكسفورد حيث رحّب به هناك حشد من الأدباء والكتّاب والشعراء، لا سيّما جيمز فنتون وكريغ رين. وفي سنة ١٩٨٠ التقى إيان، بوساطة بعض الأصدقاء راي دولان وتوطّدت عرى الصداقة بينهما، وفي أواخر عقد الثمانينيّات كان الاثنان يقومان بنزهات على الأقدام تستغرق أيّامًا، وانكبّا على دراسة النشوء والتطوّر وعلم طبقات الأرض، وقرأ الاثنان أكثر من سيرة صدرت عن حياة دارون وزارا بيته في مقاطعة كِنْتْ، وزار الاثنان، وإنْ كلٌّ على حدة، كنيسة في منطقة مالفيرن هيلز حيث ووريت الثرى ابنة دارون المفضّلة عنده آني وهي في العاشرة من عمرها. يقول إيان: كانت آني غاية في الرقّة، وكانت وفاتها أقسى حدث في حياة دارون، عزّز موتها إيمان زوجته العميق، ولكنّه سلبه من دارون.

يقول إيان في مقابلة أُجريت معه سنة ١٩٩٢:

لقد استهوتني العلوم دومًا، لكنّني لم أقتنع قطّ بالتفسيرات العقلانيّة. من جهة ثانية، أجد أنّ البعد الروحي في أعماقي يفتقر إلى التركيز ممّا يدفعني إلى عدم الرضى، شأنه شأن العالم المادّي الذي لا يرضيني أبدًا.

لكن يبدو أنّ العالم المادّي سيكون أكثر مدعاة للرضا بمرور السنين. فقد بدأ إيان بتبادل الرسائل الإلكترونيّة مع ريتشارد دوكنز

ـ العالم البيولوجي في أوكسفورد المعروف بأفكاره الإلحاديّة، وهو أمر لم يرق زوجة إيان، فبدأت تأليف كتاب عن العصر الجديد بعنوان: «وجه الأعماق: شفاء الروح والجسد» أوضحت فيه أنّ المبالغة في التركيز على منطق العقل ووعيه تهدّد نسيج الحياة. وفي سنة ١٩٩٤ انفصل الزوجان، وبعد مرور سنة واحدة تمّ الطلاق بينهما. وحدث جدال بينهما حول الوصاية على الأطفال، وفي ١٩٩٩ هربت آلن، وكانت تقطن يومئذٍ في مقاطعة برتاني، مع غريغ وكان له من العمر ثلاث عشرة سنة، في حين سافر تيموثي غارتون آش مع إيان إلى فرنسا للبحث عن ابنه. وكان إيان منشغلاً آنذاك بتأليف روايته «طفل في الوقت المحدّد»، وقد أسهبت الصحف البريطانيّة في الإشارة إلى هذه المصادفة. يتذكّر تيموثي جلوسه مع إيان في مطعم الفندق، ويساوره الاعتقاد بأنّ كلّ الجالسين من حول موائد الطعام هم من الصحافيّين ويقول: كلّهم أفاعٍ، اكتشفوا مكان وجود غريغ قبل أن يكتشفه إيان، إلاّ أنّهم لم يُفصحوا عنه لأنّهم كانوا يريدون إجراء مقابلات معه أوّلاً. وعثرت الشرطة الفرنسيّة على غريغ وهو يقود درّاجته الهوائيّة مع أمّه على امتداد شارع سان بريو على بعد خمسة وثلاثين ميلاً من منزل آلن. فما كان من إيان إلاّ أن عاد به إلى أوكسفورد واحتفظ بوصايته على الولد، كما ظلّ وثيق الصلة بابنتي زوجته.

وأصدر القاضي حكمًا منع بموجبه آلن من الكلام علنًا عن علاقتها بإيان وقال إنّ عواطفها تتحكّم بها أكثر ممّا يتحكّم بها عقلها. هذا وقد أشار غالن ستراوسون، وهو فيلسوف يقطن مدينة أوكسفورد، إلى أنّ الطلاق حرّر إيان الذي بات اهتمامه الشديد

بالعلوم يفوق اهتمامنا جميعًا. وأخذ إيان يفصح أكثر من أيّ وقت آخر عن أفكاره وتفكيره العقلاني، وأصبحت مؤلّفاته الروائيّة متجذّرة وراسخة في المنحى الواقعي القديم.

احتفل إيان بعيد ميلاده الستين في ٢٠٠٨ في قاعة كبرى تطلّ على حديقة الحيوانات في لندن، وحضر الحفل أكثر من مائتين وثلاثين ضيفًا من بينهم عدد من الأدباء المرموقين، لا سيّما توم ستوبارد وكازو أشيغورو وجوليان بارنز وإدنا أوبراين. ولما كان إيان غير راغب في أن يجعل حفل يوم مولده يبدو شبيهًا بحفل لمناسبة صدور كتاب جديد له فقد أرسل بطاقات دعوة إلى المدعوّين تحتوي على عبارة واحدة: الرجل العجوز في حديقة الحيوان، وعلى صورة غوريلا وقد رفع أصبعه الوسطى إلى أعلى.

أصدقاؤه في الوسط الأدبي يثنون على موهبته الأدبيّة. كريغ دين يصفه بأنّه أكثر الروائيّين اكتمالاً. لكنّهم يميلون إلى تجزئة كتبه. فعندما طُلب من مارتن أيمس أن يذكر أعظم منجزات إيان قال: الصفحات المائتين الأوّل من رواية «التكفير». أمّا جيمز فنتون فقال: البداية في رواية «حبّ دائم»، في حين أشار ستراسون قائلاً إنّ إيان كاتب قصّة قصيرة أساسًا، وإنّ رواياته ليست سوى قصص قصيرة أسهب في تفاصيلها فتحوّلت إلى روايات. قلت له ذات مرّة انظر إلى هنري جيمز الذي يتجسّد إرثه الأدبي في القصص القصيرة والروايات القصيرة.

قبل بضعة أعوام اختار إيان ثلاثين رواية من مكتبته في بيته الكائن في ميدان فيتزوري وبدأ هو وولده كريغ بتوزيعها على المارّة

في أحد المتنزهات القريبة. وكتب إيان عن الحادث في صحيفة الغارديان فقال إنّ كلّ امرأة شابّة اقترب منها، هو أو ابنه، لإعطائها رواية كانت تأخذها وتعبّر عن شكرها وامتنانها له، على حين وجد الاثنان صعوبة في إقناع الرجال بأخذ أيّة رواية. وكانت النتيجة التي توصّل إليها إيان هي أنّ الرواية سوف تموت عندما تتوقّف النساء عن قراءتها!!

رواياته تستغور الأفكار، لكنّ التفاصيل الدقيقة التي تحفل بها تجعله يقترب من منحى الروائي الأميركي جون أبدايك. كما تمثّل براعته في شدّ قارئه إلى الترقّب الذي يهيمن على هذه الروايات، إلاّ أنّه لا يرغب في مناقشة تقنيّته الروائيّة أمام محدّثيه كأنّه عالم كيميائي يحمي براءة اختراع حديث لا يريد الكشف عنه أمام الآخرين، مؤكّدًا أنّ التوتّر السردي يستند أساسًا إلى عدم البوح بالمعلومات أو التفاصيل، وأنّ أهمّ صفة ينبغي أن تتّصف بها الرواية هي أن تكون ممتعة ومثيرة للاهتمام. وقال إنّ معظم الروايات مثيرة للضجر وإنّ التحدّي الأكبر في كتابة الرواية هو أن لا تكون مضجرة.

تجدر الإشارة إلى أن أفضل ما كتبه إيان ماك إيوان يرتبط ارتباطًا وثيقًا بنزهاته الطويلة. ويتذكّر راي دولان، وهو رفيق إيان في هذه النزهات، أنّه سار وإيّاه على امتداد ساحل إيرلندا الغربي، وإنّه بهذا الهوس يشارك أسلافه من الشعراء الرومانسيّين، ولعلّه سار على قدميه حتى تجاوز الستّين من عمره أكثر ممّا سار أيّ أديب إنكليزي آخر منذ كولردج (١٧٧٢ ـ ١٨٣٤) الذي عدَّه النقد

الأدبي أعظم المنظّرين في ميدان الأدب. فعلى مدى أربعة عقود، طاف منطقة البحيرات الساحرة في إنكلترا والتلال الطباشيريّة الممتدّة بين لندن وأكسفورد. أمّا خارج إنكلترا فقد قهر بيرنس أوبرلاند وجبال أطلس والدولوميت، وغدت نزهاته أكثر غرابة إثر نجاح روايته «التكفير» نجاحًا منقطع النظير على المستوى العالمي بعد أن تجاوزت مبيعاتها أربعة ملايين نسخة. وفي سنة ٢٠٠٧، وبعد أن أكمل إيان جولاته الدعائيّة لروايته القصيرة «على ساحل شيسل» وشريطه السينمائي المأخوذ عن روايته «التكفير»، أمضى هو وزوجته ثلاثة أشهر من التجوال في جبال الهمالايا وجبال الألب الجنوبيّة في نيوزيلندة وسواحل تاسمانيا!!

كتب إيان ماك إيوان مجموعتين من القصص القصيرة هما (حبّ أوّل وطقوس أخيرة) و(بين الصفحات)، وإحدى عشرة رواية منها (الحديقة الإسمنتيّة) و(راحة الغرباء) و(الأبرياء) و(كلاب سود) و(الحالم) و(التكفير) و(السبت) و(على ساحل شيسل) و(أمستردام) التي نال عنها جائزة بوكر للرواية سنة ١٩٩٨.

الدكتور محمد درويش

بغداد، كانون الثاني/ يناير ٢٠١٠

الفصل الأوّل

(١)

وقف عاشقا مولي لين السابقان ينتظران خارج كنيسة المحرقة موليين ظهريهما لبرودة شهر شباط. سبق أن قيل كلّ شيء، ولكنّهما كرّراه مرّة أخرى:

ـ لم تعرف ما أصابها.

ـ وعندما عرفت كان الأوان قد فات.

ـ هجوم سريع.

ـ مسكينة مولي.

ـ هممم!

مسكينة مولي. بدأ كلّ شيء بوخزة صغيرة في ذراعها عندما رفعتها وهي خارج دور تشستر غريل كي توقف سيّارة أجرة. إنّه إحساس لم يتلاش البتّة. وبعد أسابيع بدأت تخطئ وتتلعثم في أسماء الأشياء: البرلمان والكيمياء والمروحة، وهي أسماء كان في وسعها أن تغفرها لنفسها، ولكنّ غفرانها كان أقلّ بخصوص أسماء

أخرى مثل سرير وكريمة ومرآة. فبعد اختفاء نبتة الأقنتوش الموسميّة والبريساولا بدأت تسعى إلى الحصول على مشورة طبّيّة متوقّعة إعادة طمأنتها، ولكنّها أُرسلت عوضًا عن ذلك لإجراء اختبارات، وبمعنًى ما، لم تعد قطّ، وممّا يثير الدهشة أنّ مولي الصغيرة أضحت على وجه السرعة أسيرة زوجها جورج الواجم والغيور في حجرة التمريض. كانت مولي تمارس كتابة النقد عن المطاعم وكانت تتحلّى بفطنة عالية مثلما كانت مصوّرة وبستانيّة جريئة أُغرم بها وزير الخارجيّة، وكانت لا تزال قادرة على أن تدفع عربة يد وهي في السادسة والأربعين من عمرها. وباتت سرعة تحوّلها إلى الجنون والألم قضيّة تُثير القيل والقال: فقدان السيطرة على وظائف الجسد، وانعدام روح الدعابة، وما أعقب ذلك من انكفاء وانهيار تخلّلتهما نوبات عنف غير مؤذية وصرخات مكتومة.

كان منظر جورج خارجًا من الكنيسة هو ما دفع بعاشقي مولي إلى الابتعاد عن الممشى المغطّى بحصباء تخلّلتها الأعشاب، وتجوّلا في مناطق ورود بيضويّة الشكل تحمل علامة كُتبت عليها عبارة «حديقة الذكرى». كانت كلّ نبتة قد قُطعت على نحو وحشي ولم يعد يبرز منها سوى بضع بوصات فوق سطح الأرض المتجمّدة، الأمر الذي كان دفع مولي إلى الشعور بالأسى. كانت الأعشاب مكسوّة بأعقاب السكائر المنثورة هنا وهناك، فالمكان اعتاد أن ينتظروا فيه وصول المعنيّين بأمر الجنازة كي ينظّفوا المبنى. واستأنف الصديقان القديمان وهما يروحان جيئة وذهابًا حديثهما الذي كانا ينشغلان به بأشكال مختلفة عديد المرّات من قبل، وإن كان يمنحهما قدرًا من الراحة أكبر ممّا ينشد «الحاجّ».

كان كلايف لينلي هو الذي عرف مولي أوّلاً عندما كانا طالبين في سنة ١٩٦٨ وسكنا معًا رفقة أسرة غير مستقرّة فوضويّة في وادي ڤيل أوف هيث.

ـ يا لها من حياة فظيعة يحياها المرء. راقب أنفاسه المتبخّرة وهي تحلّق في الهواء الرمادي. قيل إنّ درجة الحرارة في وسط لندن إحدى عشرة درجة مئويّة تحت الصفر. لا بدَّ أنّ ثمّة خللاً خطيرًا في هذا العالم لا يمكن فيه توجيه اللوم للربّ أو لغيابه. ترمّد الإنسان الأوّل، سقوطه، سقوط إنسان، مزمار، تسع نوتات، عشر نوتات. كان كلايف يتمتّع بموهبة الإيقاع المثالي، وكان يسمعه وهو ينثال من الوتر الرابع. ليست ثمّة ضرورة لتدوينها.

وصل كلامه:

ـ أعني الموت على هذا النحو، دون وعي، ميتة الحيوان. أن تتضاءل المرأة وتُهان قبل أن تتمكّن من اتّخاذ الترتيبات، أو حتى قبل أن تقول: وداعًا! لقد زحف الموت إليها ثم...

هزَّ كتفيه، ووصلا إلى نهاية الأعشاب التي كانت قد وطئتها الأقدام، فاستدارا وقفلا راجعين.

قال فيرنون هاليداري:

ـ كان الأحرى بها أن تنتحر على أن تنتهي هذه النهاية.

كان هاليداري قد عاش وإيّاها على مدى عام في باريس في سنة ١٩٧٤ عندما حصل على أوّل وظيفة له في وكالة رويترز، وكانت مولي آنذاك تعمل في مجلّة فوغ.

قال كلايف:

ـ الموت الدماغي وفي قبضة جورج.

جورج الناشر الحزين الثري الذي شُغِف بها والذي، ويا لدهشة الجميع، لم تهجره وإن كانت على الدوام تعامله معاملة مزرية. نظر الرجلان الآن إلى حيث كان جورج يقف خارج الباب يتلقّى التعازي من مجموعة المعزّين. لقد رفعه موتها من الإحساس بالاحتقار العامّ. كما بدا وكأنّه قد ازداد طولاً بمقدار بوصة أو بوصتين، واعتدلت قامته، صار صوته أكثر عمقًا، وضيَّق الإحساس بالكرامة الجديدة من فتحة عينيه المتوسّلتين والجشعتين. لقد رفض أن يرسلها إلى ملجأ وآثر أن يعتني بها بنفسه. الأكثر من هذا، تفحّص زوّارها في الأعوام الأولى عندما كان الناس ما يزالون راغبين في رؤيتها. وجرى تقنين زيارة كلايف وفيرنون تقييدًا شديدًا لأنّهما كانا يُعدَّان شخصين يثيران انفعالاتها وبالتالي يزيدان من حدّة اكتئابها بسبب حالتها هذه. ثمّة شخصيّة رئيسة أخرى لم تكن مرغوبًا فيها وهي شخصيّة وزير الخارجيّة. وبدأ الناس يتناقلون الكلام، ولوحظ وجود إشارات مبهمة في اثنين من الأعمدة الصحفيّة. لكنّ الأمر لم يعد ذا بال بعد ذلك، لأنّها لم تعد على سجيّتها. لم يرغب الناس في الذهاب إليها وزيارتها، وكانوا سعداء لأنّ جورج كان يَحُول دون زيارتهم. أمّا كلايف وفيرنون فقد واصلا الاستمتاع بالاشمئزاز منه.

وفي ما كان الاثنان يستديران للعودة مرّة أخرى رنّ الهاتف في جيب فيرنون، فاستأذن وتنحّى جانبًا تاركًا صديقه يواصل مشيه

بمفرده. لفَّ كلايف معطفه من حوله وأبطأ في سيره. لا بدَّ أنّ عدد الناس الآن زاد عن المائتين وهم ببذلاتهم السود خارج المحرقة. وعمّا قريب سيبدو من غير اللائق عدم التوجّه إلى جورج ومواساته بعض الشيء. لقد نال منها أخيرًا بعد أن شقَّ عليها التعرّف إلى وجهها في المرآة. لم يكن في وسعه عمل شيء بخصوص علاقاتها، لكنّها في نهاية المطاف امرأته على وجه التوكيد. بدأ كلايف يفقد الإحساس بقدميه. ففي حين كان يخطو إلى أمام، كان إيقاع خطواته يعيد إليه شخصيّة الإنسان الساقط ذي النوتات العشر، بالإمساك عن الحركة، نافخ البوق الإنكليزي فيرتفع ببطء أمامه، طباق موسيقي، كمان جهير في صورة مرآة. كان صوتها فيه. النهاية. كلّ ما كان يريده الآن هو الدفء، وصمت الاستديو والبيانو والعزف الذي لم يكتمل، والوصول إلى النهاية. وسمع فيرنون يقول مودّعًا:

ـ حسنًا. أعد كتابة الموقف أوّلاً ثم انشره على الصفحة الرابعة، وسأوافيك بعد ساعتين. وهو كذلك.

لكنّهما عوضًا عن ذلك استدارا مرّة أخرى فوق العشب لأنّهما جاءا أصلاً لدفن مولي.

قام فيرنون بجهد واضح من التركيز على مشاغل مكتبه، وقال في نفسه:

كانت فتاة جميلة. تذكّر منضدة الاسنوكر.

في العام ١٩٧٨ استأجر مجموعة من الأصدقاء بيتًا فسيحًا في اسكتلندا للاحتفال بأعياد الميلاد. وقدّمت مولي مع الرجل الذي

كانت تصادقه في ذلك الوقت، وهو محام يدعى برادي، لوحة آدم وحوّاء فوق منضدة بليارد مهجورة، وكان الرجل يرتدي لباسًا داخليًّا بينما كانت هي ترتدي لباسها الداخلي وصديريّة الثديين، وثمّة مسند لعصا الاسنوكر على شكل أفعى وكرة حمراء تمثّل تفّاحة. على أيّة حال، انتشرت القصّة، وهي القصّة التي نُشرت في صفحة الوفيّات وتذكّرها الناس على ذلك النحو حتى أولئك الذين كانوا حاضرين أثناء المشهد وفحواها أنّ مولي «رقصت عارية عشيّة عيد الميلاد على منضدة الاسنوكر في قلعة اسكتلنديّة».

كرّر كلايف:

ـ فتاة جميلة.

حدجته بنظرة عندما تظاهرت بأنّها تقضم التفّاحة وابتسمت ابتسامة داعرة من خلال عمليّة القضم، واضعة إحدى يديها على ردفها النافر وكأنّها تقوم بمحاكاة موسيقيّة لإحدى بنات الهوى. فكّر أنّ تلك إشارة، الأسلوب الذي تعلّقت به أنظارها وكانت تلك إشارة كافية، إذ عادت إلى ساوث كينزغتون وظلّت فيه طوال فصل الصيف. حدث ذلك في الوقت الذي كان عمودها الصحفي المخصّص للمطاعم يوشك أن ينطلق، عندما ذهبت إلى محطّة التلفاز لشجب دليل ميشلين ووصفه بأنّه «سقط متاع المطبخ». وكان الوقت أيضًا هو وقت انطلاقته الأولى بتنوّعات أوركستراليّة على قاعة الاحتفال. دورة للمرّة الثانية. ربّما لم تتغيّر، أمّا هو فقد تغيّر. فبعد مرور عشرة أعوام عرف ما فيه الكفاية كي يدعها تعلّمه شيئًا ما.

كان من مدرسة الصمت دومًا، فعلّمته الجنس خلسة، وضرورة الهدوء أحيانًا. استلق على هذا النحو، انظر إليَّ، انظر إليَّ حقًّا. نحن قنبلة موقوتة. كان في نحو الثلاثين من العمر. ويعدُّ حسب معايير هذه الأيّام متطوّرًا متأخّرًا. وعندما عَثَرَتْ على مكان خاصّ بها وحزمت حقائبها طلب منها أن تتزوّجه. قبّلته وهمست في أذنه مقتطفًا يقول: تَزَوَّج امرأة كي يحول دون هروبها/ وها هي الآن هناك طوال النهار.

كانت على حقّ لأنّها عندما ذهبت بات في وحدته أكثر سعادة من أيّ وقت مضى، وكتب «أناشيد الخريف الثلاثة» في أقلّ من شهر.

وسأل كلايف فجأة:

ـ هل تعلّمت أيّ شيء منها؟

في أواسط الثمانينيّات أصيب فيرنون بلدغة ثانية عندما كان في إجازة في ضيعة في أومبريا. وبعد ذلك أصبح مراسلاً في روما لصحيفة هو اليوم رئيس تحريرها، وأصبح رجلاً متزوّجًا أيضًا.

قال بعد وقفة قصيرة:

ـ لا يمكنني أن أتذكّر الجنس البتّة. إنّني متأكّد من أنّه كان شيئًا رائعًا. لكنّني أتذكّر حقًّا كيف علّمتني كلّ شيء عن الخنازير وكيفيّة الحصول عليها وطبخها.

خمّن كلايف أنّ هذا الكلام ليس إلاّ تهرّبًا، فقرّر أن يواجه مشاعر الثقة أيًّا كانت، فرفع بصره إلى أعلى صوب مدخل

الكنيسة. لا بدَّ لهما من التوجّه إلى الجهة الأخرى. وفاجأ نفسه وهو يقول على نحو متوحّش:

ـ أتدري؟ كان يتعيّن عليّ أن أتزوّجها، وعندما بدأتْ بالإفلاس كان من شأني أن أقتلها خنقًا بالوسادة أو بأيّ شيء آخر وبذلك أنقذها من شفقة الآخرين.

كان فيرنون يقهقه ضاحكًا عندما أخذ يتّجه بصديقه خارج «حديقة الذكرى».

ـ ما أسهل هذا الكلام! يمكنني أن أراك وأنت تكتب أناشيد ساحة التدريب لأصحاب الموقف السلبي، كما هو الحال، لتلك المطالبة بحقّ المرأة في الاقتراع.

ـ إنّها إيثل سميث. من شأني أن أكون أفضل منها.

كان أصدقاء مولي الذين أعدُّوا هذا التجمّع لحضور الجنازة يفضّلون لو أنّ الاجتماع لم يلتئم عند المحرقة، لكنّ جورج أوضح أنّه لن تكون هناك أيّة صلاة للذكرى، لأنّه لم يكن يريد أن يسمع هؤلاء العشّاق الثلاثة يقارنون علنًا النوتات من مذبح سانت مارتن وسانت جيمز أو يتبادلون النظرات اختلاسًا أثناء إلقائه كلمته. وعندما اقترب كلايف وفيرنون سمعا الدردشة المألوفة التي تصاحب حفلات الكوكتيل. لا أثر لصواني الشمبانيا ولا جدران مطعم تردّد الصدى، بل يمكن أن يكون الحال أشبه بافتتاح معرض فنّي آخر وتدشين وسيلة إعلام أخرى. وهكذا كانت هناك وجوه كثيرة لم يشاهدها كلايف من قبل في رابعة النهار، تبدو وجوهًا فظيعة كأنّها جثث انتصبت لترحّب بالميّتة الجديدة. وبعد أن دبَّ

فيه النشاط والانتعاش بفعل هذا النفور من البشر تسلّل بخفّة وسط الضجيج وتجاهل اسمه عندما نودي عليه، وجذب كوعه لحظة انحشر وواصل طريقه إلى حيث كان يقف جورج متحدّثًا إلى امرأتين وعجوز ذاوٍ يستند إلى عصاه.

سمع كلايف صوتًا يردّد:

ـ الطقس شديد البرودة ولا بدّ لنا من الانصراف.

ولكن لم يكن في وسع أحد في تلك اللحظة أن يتهرّب من القوّة الجاذبة لتلك المناسبة الاجتماعيّة. لقد فقد أثر فيرنون الذي جذبه خارجًا مالك إحدى القنوات التلفازيّة.

أخيرًا تمكّن كلايف من القبض على يد جورج على نحو أظهر فيه كلّ الصدق.

ـ يا لها من طقوس مدهشة.

ـ جميل أنّك حضرت.

أغدق موتها عليه صفة النبل. فالرزانة والهدوء ليسا من سجاياه أبدًا، بل كانت سجاياه تتمثّل بالعوز والصرامة، يريد أن يكون محبوبًا لكنّه لم يستطع أن يتقبّل الصداقة. ذلك عبء الأثرياء.

وأضاف:

ـ معذرة. هاتان هما الشقيقتان فينش: ڤيرا وميني اللتان كانتا تعرفان مولي منذ أن كانت في بوسطن. كلايف لينلي.

تصافحوا عندما قُدِّم أحدهم للآخر.

سألت ڤيرا أو ميني:

ـ أأنت الموسيقار؟

ـ هذا صحيح.

ـ إنّه لشرف عظيم يا سيّد لينلي. لقد درست حفيدتي البالغة من العمر أحد عشر عامًا السونيت القصيرة المبسّطة التي ألّفتها لتؤدّي بها امتحان تخرّجها في العزف على آلة الكمان، وكانت شغوفة بها.

ـ يسرّني جدًّا أن أعرف هذا.

لكنّه شعر بشيء من الإحباط عندما فكّر أنّ الأطفال يعزفون موسيقاه.

قال جورج:

ـ وهذا أيضًا من الولايات المتّحدة. إنّه هارت بولمان.

ـ هارت بولمان. أخيرًا. هل تتذكّر عندما نظمت قصائدك لأوركسترا الجاز؟

كان بولمان شاعر البيت، وهو آخر من تبقّى من جيل كيرواك. كان أشبه بسحليّة صغيرة ذاوية، وكان يعاني من مشكلة رفع عنقه ليبصر كلايف.

ـ إنّني لا أتذكّر شيئًا في هذه الأيّام، لا شيء على الإطلاق.

كان صوته قويًّا يبعث على السرور. صوت مغرّد. أضاف:

ـ لكن إن قلت إنّك نظّمتها، فلا بأس.

قال كلايف:

ـ لكنّك برغم ذلك تتذكّر مولي؟

ـ من؟

حملق بولمان مدّة ثانيتين قبل أن يتشبّث بساعد كلايف بأصابعه البيضاء النحيفة. وقال بصوت يشبه صوت باغز باني:

ـ آه، نعم بلا شكّ. كنت أنا ومولي في سنة ١٩٦٥ في القرية الشرقيّة. إنّني أتذكّر مولي. آه أيّها الفتى!

أخفى كلايف قلقه وهو يجري عمليّة حسَابيّة. لا بدَّ أنّها كانت ستبلغ السادسة عشرة من عمرها في حزيران من تلك السنة. لماذا لم تذكر ذلك الأمر قطّ؟ فكّر تفكيرًا محايدًا.

ـ أعتقد أنّها جاءت لقضاء موسم الصيف.

ـ آه، آه. لقد جاءت لحضور حفلتي الخاصّة بالليلة الثانية عشرة. يا لها من فتاة! ما رأيك يا جورج؟

اغتصاب يعاقب عليه القانون إذًا. ثلاث سنوات قبله. إنّها لم تخبره عن هارت بولمان. ألم تحضر لمشاهدة حفل إعداد القصائد؟ ألم تحضر إلى المطعم بعد ذلك؟ إنّه لا يتذكّر. لا يتذكّر شيئًا.

استدار جورج ليتحدّث إلى الشقيقتين الأميركيّتين في حين وضع كلايف يده على فمه وانحنى إلى أمام وبدأ يهمس في أُذن بولمان بعد أن قرّر أنّه لن يخسر شيئًا بذلك.

ـ إنّك لم تضاجعها البتّة أيّها الحيوان الزاحف الكاذب لأنّها ما كانت لتوافق.

لم يكن في نيّته الانصراف عند هذه النقطة لأنّه أراد أن يسمع ردَّ بولمان، لكن في تلك اللحظة تقدّمت مجموعتان صاخبتان، من اليمين ومن اليسار، الأولى لتقديم احترامها لجورج، والثانية لتكريم الشاعر، فوجد كلايف، وهو يغيّر من موقعه، أنّه بات حرًّا وأخذ يبتعد عن المكان. هارت بولمان والمراهقة مولي. لكنّه شعر بالقرف فبدأ يشقّ طريقه عائدًا دون أن يتنبّه له أحد، ونظر من حوله إلى الأصدقاء والأقرباء المنهمكين في تجاذب أطراف الحديث. شعر أنّه الإنسان الوحيد الذي كان يفتقد مولي. ربّما لو تزوّجها لكان حاله أسوأ من حال جورج ولما كان في وسعه تحمّل هذا التجمّع. ولا حتى عجزها ولا ضعفها. وضع في راحة يده ثلاثين حبّة منوّم أخرجها من زجاجة صغيرة بنِّيّة اللون مصنوعة من مادّة بلاستيكيّة. الهاون ويد الهاون. كأس من الويسكي. ثلاث ملاعق من رواسب طينيّة ذات لون أبيض مائل إلى الصفرة.

نظرت إليه عندما تناولتها وكأنّها كانت تعرف. وضع يده اليسرى تحت حنكها كي يحول دون الانسكاب. وأمسك بها وهي تستسلم للنوم وعلى امتداد الليل.

لم يفتقدها أحد غيره. رمق المعزّين من حوله بنظرة، أغلبهم الآن في مثل سنّه، وفي مثل سنّ مولي، أو ما يقرب من ذلك بسنة أو سنتين. يا لهم من أُناس موسرين يتمتّعون بالنفوذ. ازدهرت

أحوالهم في ظلّ حكومة كانوا يحتقرونها على مدى سبعة عشر عامًا تقريبًا. إنّه حديث عن أبناء جيلي. يا لها من طاقة ويا له من حظّ. لقد نشأوا وترعرعوا في ظلّ الاستقرار الذي أعقب الحرب العالميّة، وشربوا من حليب الدولة وعصيرها ليدوم الاستقرار تحت رعاية الآباء ورفاهيّتهم البريئة حتى بلغوا سنّ الرشد، ليجدوا أمامهم فرص العمل والجامعات الجديدة والكتب ذات الأغلفة الورقيّة البرّاقة وعصر مثل الروك آندرول الكلاسيكي المعطاء. وعندما هوى السلّم من ورائهم، وسحبت الدولة يدها وباتت سليطة اللسان كانوا هم في أمان وفي وضع راسخ، واستقرّوا لإنجاز هذا العمل وذاك ولتكوين ذوقهم وأفكارهم وثرواتهم.

سمع امرأة وهي تهتف بمرح:

ـ لم أعد أشعر بيديّ أو قدميَّ ولهذا سأنصرف.

وعندما التفت شاهد بابًا خلفه يوشك أن يلمس كتفه. كان في منتصف العشرينيّات من عمره، أصلع الرأس، أو حليقه، مرتديًا بذلة رماديّة وبلا معطف.

قال الرجل مبعدًا يده:

ـ يؤسفني أن أقاطع أفكارك يا سيّد لينلي.

خمّن كلايف أنّ الشابّ موسيقار، أو أنّه جاء يبغي توقيعه، لهذا تظاهر بالصبر وقال:

ـ لا بأس.

ـ فكّرت أنّك ربّما تملك بعض الوقت كي تحضر وتتحدّث إلى وزير الخارجيّة. إنّه توّاق إلى لقائك.

زمَّ كلايف شفتيه لأنّه لم يكن يرغب في لقاء جوليان غارموني، لكنّه لم يكن يرغب في الوقت نفسه في التعالي عليه وعدم لقائه به. لا مفرّ. وقال:

ـ أرني الطريق.

فقاده الشابّ وسط مجموعة من أصدقائه الواقفين وعرف بعضهم الوجهة التي كان يتّجه إليها فحاولوا جذبه إليهم والحيلولة دون ذهابه.

ـ هه يا لينلي. ألن تتحدّث إلى عدوّ؟

عدوّ حقًّا. ما الذي جذبها؟ كان رجلاً غريب المظهر: كبير الرأس ذا شعر أسود متموّج، ممتقع اللون إلى حدّ فظيع وله شفتان رقيقتان غير شهوانيّتين. وكان قد أفلح في تبوّؤ مكانة في سوق السياسة بما لديه من أفكار استثنائيّة ذات صلة بالعقاب وبكراهيّة الأجانب. وكان تفسير فيرنون بسيطًا دائمًا: وغد رفيع المقام، لكن كان في وسعها أن تعرف ذلك في كلّ الأحوال. ولا بدّ أنّه كان يملك الموهبة الخفيّة التي أوصلته إلى هذا الموقع وما تزال تدفعه إلى تحدّي رئيس الوزراء في منصبه.

سلَّم المساعد كلايف إلى حشد تجمّع من حول غارموني الذي بدا كأنّه يُلقي كلمة أو يحكي حكاية، ولكنّه توقّف كي يصافح كلايف ويتمتم بقوّة كأنّهما وحيدان:

ـ كنت أرغب في لقائك منذ سنين.

ـ تشرّفت بلقائك.

تحدّث غارموني من أجل مصلحة المجموعة الحاضرة وكان من بينها شابّان وسيمان يبدوان أشبه بأولئك الذين يظهرون على صفحة مفكّرة. كان الوزير يمثّل، في حين كان كلايف يؤدّي دور المخرج.

ـ إنّ زوجتي تحفظ عن ظهر قلب بعض معزوفاتك على البيانو.

فكّر كلايف مرّة أخرى: أهو يا ترى موهوب مدجّن وأليف كما ادّعى أحد نقّاده الشبّان غورسيكي الرجل المفكّر؟

قال:

ـ لا بدّ أنّها طيّبة.

مرّت مدّة من الزمن لم يلتق فيها أحد السياسيّين عن قرب، لكنّه نسي حركة العين، ذلك الرقيب الذي لا يهدأ وهو يبحث عن مستمعين أو منشقّين جدد، أو الاقتراب من شخص ما ذي منصب أرفع أو فرصة أخرى كبيرة ربّما تتوفّر له.

أخذ غارموني يجيل الطرف في ما حوله الآن للاطمئنان على وجود الحاضرين.

ـ كانت لامعة. كلّيّة غولدسمث ثم دار البلديّة. حياة وظيفيّة مرموقة أمامها.

توقّف للتأكّد من مدى تأثير كلامه.

واسترسل:

ـ ثم التقتني واختارت الطبّ.

لم يضحك ضحكة مكتومة سوى المساعد وامرأة، في حين لم يتأثّر الصحافيّون. لعلّهم سمعوا الحكاية من قبل.

عادت عينا وزير الخارجيّة لتستقرّا على كلايف:

ـ ثمّة شيء آخر. لقد أردت أن أهنّئكم على هيئتكم. السيمفونيّة الألفيّة. أتدرون أنّ ذلك القرار قُدِّم إلى مستوى مجلس الوزراء؟

ـ هذا ما سمعت، وأنّك أدليت بصوتك لمصلحتي.

سمح كلايف لنفسه أن يبدو عليه الإرهاق، لكن غارموني أبدى ردّ فعل وكأنّه تلقّى الشكر.

ـ حسنًا، هذا أقلّ ما يمكنني أن أفعله. لقد أراد بعض الزملاء هذا المغنّي الذي كان في ما مضى عضوًا سابقًا في فريق البيتلز. على أيّة حال، كيف تسير الأمور؟ انتهت؟

ـ تقريبًا.

كانت حالاته الانفعاليّة قد استبدّت به على مدى نصف ساعة، لكنّ البرودة لم تخترق أعماقه إلاّ الآن. في الاستديو الدافئ تراه مرتديًا قميصًا بكمّين قصيرين، يضع لمساته على الصفحات الأخيرة من هذه السيمفونيّة التي لا تزال تفصلها عن حفل افتتاحها بضعة

أسابيع. لقد تخلّف عن موعدين واشتاق إلى العودة إلى البيت.

مدَّ يده إلى غارموني:

ـ يسرّني لقاؤك، إنّني مضطر الآن إلى الانصراف.

غير أنّ الوزير لم يجذب يده وظلّ يتكلّم إليه، إذْ لا يزال هناك ما يمكن الحصول عليه من حضور الموسيقار المشهور.

ـ أتدري؟ فكّرت دومًا أنّ حرِّيّة الفنّانين من أمثالك الذين يتابعون أعمالك هي التي تجعل من وظيفتي جديرة بالاهتمام.

واستمرّ الكلام على هذا النحو أكثر فأكثر، في حين ظلّ كلايف يحدّق دون أن تبدو عليه أيّة علامة تشير إلى امتعاضه المتزايد. كان غارموني من أبناء جيله هو الآخر، وحال منصبه الرفيع دون التحدّث على قدم المساواة مع غريب. لعلّ ما قدّمه لها في السرير يتمثّل في متعة لا شخصيّة. إنسان ينتفض أمام مرايا. إلاّ أنّها فضّلت دفء العواطف. ابق ساكنًا وأنت مستلقٍ. انظر إليَّ، انظر إليَّ حقًّا. لعلّ الأمر لا يعدو أن يكون غلطة، مولي وغارموني. وفي كلتا الحالتين اتّضح لكلايف أنّ ذلك لا يُطاق.

توصّل وزير الخارجيّة إلى استنتاجه:

ـ هذا هو الموروث الذي جعل منّا ما نحن عليه الآن.

قال كلايف مخاطبًا عشيق مولي السابق:

ـ كنت أفكّر إن كنت ما تزال تؤيّد عقوبة الإعدام شنقًا.

كان في ميسور غارموني أن يعالج هذا التحوّل المفاجئ، لكنّ عينيه تحجّرتا.

ـ أعتقد أنّ معظم الناس يعرفون رأيي في الموضوع، ومع هذا فإنّني سأكون سعيدًا للقبول برأي البرلمان ومسؤوليّة مجلس الوزراء الجماعيّة.

وهنا اتّخذ موضع المقاتل وبدأ يطلق مفعول السحر.

اقترب الصحافيّان منه أكثر وقرَّبا دفتري ملاحظاتهما.

ـ لقد قلت في كلمة سابقة إنّ نيلسون مانديلا يستحقّ الشنق.

ابتسم غارموني ابتسامة هادئة، وهو العازم على زيارة جنوب أفريقيا في الشهر المقبل.

كانت صحيفة فيرنون قد نقّبت في هذا الموضوع تنقيبًا سفيهًا نوعًا ما:

ـ إنّني لا أظنّك تقدر على ملاحقة الناس بسبب أشياء قالوها عندما كانوا طلّابًا في مرحلة الدراسة الجامعيّة الأوّليّة.

توقّف ليضحك ضحكة خافتة، وأضاف:

ـ قبل ثلاثين سنة تقريبًا. أعتقد أنّك قلت أو فكّرت ببعض الأشياء الفظيعة.

ـ هذا أكيد.

قال كلايف:

ـ وهذا هو رأيي. لو كان ذلك هو أسلوبك فلا داعي للتفكير في الأمر مرّة أخرى الآن.

مال غارموني برأسه قليلاً مؤيّدًا، وقال:

ـ صحيح. لكن ما من نظام من نظم العدالة في العالم الواقعي يخلو يا سيّد لينلي من أخطاء البشر.

ثم فعل وزير الخارجيّة شيئًا دمَّر نظريّة كلايف الخاصّة بأثر المنصب العام والذي اضطرّ، استعاديًّا، إلى الإعجاب به.

مدَّ غارموني يده ومسك بإبهامه وسبّابته بطيّة ياقة معطف كلايف وجذبه نحوه وكلّمه بصوت لم يكن في وسع أحد غيره أن يسمعه.

ـ أخبرتني مولي في آخر مرّة التقيت وإيّاها أنّك عاجز جنسيًّا دائمًا.

ـ كلام فارغ. لم تقل هي ذلك.

ـ المؤكّد أنّك ستنكر هذا الكلام. القضيّة هي أنّنا نستطيع أن نناقش الموضوع بصوت عالٍ أمام السادة الموجودين هناك. أو في وسعك أن تتخلّى عن قضيّتي وتنصرف بسلام، بمعنى تبًّا.

كان الكلام سريعًا وعاجلاً، وما إن فرغ غارموني من الكلام حتى مال إلى الوراء وقد أشرق وجهه وهو يحرّك يد الموسيقار.

ونادى مساعده:

ـ لقد قبل السيّد لينلي دعوة لتناول طعام العشاء.

لعلّ هذه العبارة كانت شفرة متّفقًا عليها لأنّ الشابّ سرعان ما تقدّم إلى أمام ليقود كلايف بعيدًا، في حين ولاّه غارموني ظهره ليقول للصحافيّين:

ـ كلايف لينلي رجل عظيم. الإفصاح عن الاختلافات والبقاء أصدقاء هو جوهر الوجود الحضاري. أليس كذلك؟

* * *

(٢)

بعد ساعة أوصلت سيّارة فيرنون الصغيرة التي لا تتّسع لسائق كلايف إلى ساوث كينزنغتون، فترجّل فيرنون ليقول وداعًا.

ـ يا لها من جنازة فظيعة.

ـ لم يقدّموا حتى مشروبات.

ـ يا لمولي المسكينة.

دخل كلايف البيت ووقف في المدخل كي يستوعب حرارة التدفئة المركزيّة والصمت. ثمّة ملاحظة تركها مدبّر المنزل تشير إلى وجود إبريق قهوة في المحترف. توجّه الآن إلى المحترف وهو لا يزال مرتديًا معطفه وأمسك بقلم وورقة وبدأ يدوّن، وهو متّكئ على البيانو الكبير، بعض الملاحظات. ثم وقف بجانب النافذة يحدّق في الورقة، متخيّلاً آلات الكمان الجهير (الڤيولونسيل). أيّام عديدة ما تزال أمام الهيئة كي تكتب السيمفونيّة للاحتفال بالألفيّة، وهو عمل مضحك وتدخّل بيروقراطي في استقلاله الإبداعي. وهناك

الارتباك الناجم عن الموعد الذي سيتمكّن فيه قائد الفرقة الموسيقيّة الإيطالي جوليوبو من إجراء التمارين على الفرقة الأوركستراليّة السيمفونيّة البريطانيّة، إضافة إلى الانزعاج المتواصل والقليل في آن واحد من جرّاء الحماس البالغ أو التدقيق الصحافي المعادي. وكان إخفاقه في الالتزام بموعدين اثنين يرجع إلى أنّ الألفيّة كانت ما تزال بعيدة ببضع سنوات. كانت هناك أيّام تشبه هذا اليوم عندما لم يفكّر إلاّ بالموسيقى وحدها ولم يستطع البقاء بعيدًا. كانت يده اليسرى المتشنّجة من البرد لا تزال في جيب معطفه عندما جلس من وراء البيانو وبدأ يعزف المقطوعة كما كان قد دوّنها، عزفًا بطيئًا، مبنيًّا على السلّم اللوني وأنيقًا من الناحية الإيقاعيّة. ثمّة دليلان موسيقيّان، ولهذا بدأ يرتجل بيده اليمنى، وبسرعة بطيئة أيضًا، الخطّ الموسيقي المتصاعد وعزفه عدّة مرّات مع بعض التنويعات حتى اقتنع تمامًا. ثم شخبط الجزء الجديد الذي كان في قمّة آلة العزف حتى يبدو مثل طاقة هائلة مقيّدة يكون تحريرها في نهاية المطاف، في هذا القسم الأخير من السيمفونيّة بهجة.

نهض عن البيانو وصبَّ لنفسه فنجان قهوة احتساه في مكانه المعتاد قرب النافذة. الوقت هو الساعة الثالثة والنصف وكان الظلام الذي أرخى سدوله يكفي لإضاءة الأنوار. كانت مولي قد تحوّلت الآن إلى رماد. وقرّر أنّ عليه أن يعمل طوال الليل ولا ينام إلاّ بحلول طعام الغداء. أمّا فيما عدا ذلك فليس لديه ما يفعله. اعمل شيئًا ما وودّع دنياك.

وبعد أن شرب القهوة، عاد فاجتاز الحجرة مرّة أخرى وظلّ

واقفًا، منحنيًا من فوق مفاتيح البيانو وهو لا يزال مرتديًا معطفه وأخذ يعزف بكلتا يديه، تحت نور ما بعد الظهيرة الغارب، تلك النوتات التي سبق له أن دوّنها، عزفًا دقيقًا وصادقًا إلى أبعد الحدود.

أوحت له تلك النوتات بشوق إلى شيء ما لا سبيل إلى وصوله إليه. إلى شخص ما. في مثل هذه الأوقات اعتاد أن يتّصل بها هاتفيًّا عند إحساسه بقلق يطغى عليه فلا يساعده في الجلوس من وراء البيانو مدّة طويلة من ناحية أنّه منشغل الفكر بأفكار جديدة لا يستطيع تركها وشأنها. لو كانت حرّة لجاءت وصنعت قدحًا من الشاي أو مزجت مشروبات عجيبة غريبة وجلست على ذلك الكرسي القديم المتهالك في ركن الحجرة. فيتجاذبان أطراف الحديث أو تبدأ بذكر طلباتها وتصغي مغمضة العينين. كان ذوقها يتّصف بالتقشّف ولا يتلاءم مع من يحبّ الحفلات، مثل باخ وسترافسكي وفي بعض الأحيان موزارت. لكنّها لم تعد فتاة صغيرة يومذاك، بل لم تعد حبيبته. كانا حلوي المعشر، يُصعِّر أحدهما خدّه للآخر، فلا تنتاب أيًّا منهما عاطفة جامحة، وكان يروقهما الحديث عن قضاياهما الخاصّة. كانت أشبه بأخت له تصدر أحكامها على نسائه بكرم يفوق كثيرًا كرمه في أحكامه التي يطلقها على رجالها. أمّا فيما عدا ذلك، فتراهما يتحدّثان عن الموسيقى أو الغذاء. أمّا الآن فقد تحوّلت إلى رماد دقيق في جرّة من المرمر ينبغي على جورج أن يضعها فوق خزانة ثيابه.

أخيرًا دبّ الدفء في أوصاله على الرّغم من أنّ يده ما تزال

في حالة خَدَر. خلع معطفه ووضعه على كرسي مولي، لكنّه قبل أن يعود أدراجه إلى البيانو سار في أنحاء الحجرة وأطفأ جميع الأنوار. أشغل نفسه على مدى أكثر من ساعتين بالجزء المخصّص للعزف على آلة الكمان الجهير، ودوَّن ملاحظات أوركستراليّة أخرى دون أن يتنبّه للظلمة المنتشرة خارج الحجرة ولا للأصوات المكتوّمة المتنافرة المنبعثة في ساعة الزحام في ذلك المساء. كانت المقطوعة هي تلك التي تفصل عن المقطوعة الختاميّة. وكان أكثر ما يخلب لبّه هو الإمكانيّة والإلهام ـ وتخيّلهما وكأنّهما مجموعة من خطوات قديمة مرهقة تتوارى عن الأنظار بكلّ رقّة ـ والرّغبة في الصعود إلى أعلى حتى الوصول إلى سماء بعيدة يتخلّلها صوت يتداعى بعيدًا كأنّه صوت ضباب يتحلّل، حتى الوصول إلى لحن ختامي، إلى وداع، ـ إلى لحن مميّز باهر الجمال يتسامى بصفته الاعتياديّة فيبدو وكأنّه ينعى القرن الماضي بكلّ ما اكتنفه من قسوة غير معقولة، والاحتفال بكلّ ما فيه من ابتكار مدهش. وبعد مرور وقت طويل على انقضاء الدهشة التي تلازمت مع انتهاء الأداء الأوّل، وبعد مرور وقت طويل على الاحتفال بالألفيّة، وإنهاء الألعاب الناريّة والتحليلات والتاريخ المتضخّم، سيظلّ هذا اللحن الذي لا سبيل إلى مقاومته وكأنّه مرثيّة للقرن الميّت.

لم تكن هذه الأوهام لتمرّ في ذهن كلايف وحده، بل هي أوهام راودت لجنة المفوّضيّة التي اختارت موسيقارًا أدرك إدراكًا مميّزًا هذه القطعة في ضوء السلالم القديمة المشيّدة من الحجارة. كما أنّ أنصاره، في السبعينيّات في الأقلّ، أطلقوا عليه لقب «سيّد الرجعيّة»، على حين فضّل نقّاده استخدام مصطلح «المرتدّ إلى

صفات الأسلاف»، لكنّ الجميع اتّفقوا على أنّ في وسع لينلي أن يؤلّف لحنًا أسوة بشوبرت وماكارتني. كان العمل قد أُوكل إليه منذ وقت مضى كي يصبح قادرًا على أن يعزف نفسه بنفسه في الوعي العامّ. على سبيل المثال، نُصح كلايف بأنّ في وسعه استعمال لحن مقطع صاخب وعاجل يُعزف بالآلات النحاسيّة ليكون إشارة موسيقيّة لنشرة الأخبار التلفازيّة المسائيّة الرئيسة. كانت اللجنة التي اتّهمتها المؤسّسة الموسيقيّة بأنّها لجنة متواضعة توّاقة إلى معزوفة سيمفونيّة يمكن من خلالها استخلاص لحن واحد، ترنيمة واحدة، مرثيّة للقرن الراحل الذي اعتورته الكثير من الأمراض، ويمكن إدراجها ضمن الإجراءات الرسميّة مثلما أُدرج نيسون دورما في مباريات كرة القدم. أُدرجت وانفكّت بعد ذلك لتنتهز فرصتها في حياة مستقلّة في أذهان الناس أثناء الألفيّة الثالثة.

كانت القضيّة بسيطة في رأي كلايف لينلي. فقد عدَّ نفسه شبيهًا بوريث فون وليم وعدَّ أيضًا مصطلحات مثل «رجعي» ليست ذات صلة، واستعارة عن طريق الخطأ من المعجم السياسي. يضاف إلى ذلك، عندما أخذ يصبح محطّ الأنظار في عقد السبعينيّات، كانت الموسيقى التعويضيّة والمنطوية على حظّ سيّئ، والإلكترونيّات، وتحلّل النبرة إلى صوت، بل وكلّ المشروع الحداثوي قد تحوّلت إلى منهج يُدَّرس في الكلّيّات. المؤكّد أنّ المؤيّدين، وليس هو وحده، كانوا رجعيّين. وفي عام ١٩٧٥ نشر كتابًا من مئة صفحة كان هجومًا واعتذارًا شأنه شأن كلّ البيانات الجيّدة. لقد سُجن حرس الحداثة القديم الموسيقى في أروقة الجامعات حيث غدت مهنة يُحسد عليها وباتت أيضًا عقيمة ومنعزلة وتقطّعت أواصرها بعامّة الناس. وقدّم

كلايف شرحًا تهكّميًا لحفل موسيقي مدعوم جماهيريًّا في قاعة كنيسة شبه خاوية، وكانت أرجل البيانو تتلقّى ضربات مستمرّة من رقبة كمان مكسورة على مدى أكثر من ساعة كاملة. وأوضحت ملاحظة مرفقة بالبرنامج السبب الذي جعل الأشكال الموسيقيّة الأخرى تفتقر إلى الحياة في هذه المرحلة من مراحل التاريخ الأوروبي. وأصرَّ كلايف على أنّ أيّ شكل من أشكال النجاح، وبصرف النظر على ضآلته ومحدوديّته، وأيّ تقدير من الجمهور، إنّما يبدوان في أذهان المتحمّسين علامة مؤكّدة على التوافق الجمالي والفشل. ولمّا بدأت كتابة تاريخ الموسيقى في القرن العشرين في الغرب، بدت الانتصارات محدّدة بموسيقى البلوز والجاز والروك وموسيقى الفولكلور بكلّ ما تنطوي عليه من موروثات تستمرّ في الظهور. ولقد أوضحت هذه الأشكال على نحو مناسب أنّ اللحن والانسجام والإيقاع لا تتناسب مع الابتكار. وفي موسيقى الفنّ لا يبدو إلاّ النصف الأوّل من القرن على درجة بالغة الأهمّيّة، كما أنّ مؤلّفين بعينهم، مثل كلايف، لم يذكروا شوينبرغ وأمثاله.

هذا فيما يخصّ الهجوم. أمّا الاعتذار فقد استعار وشوّه الوسيلة المستهلكة المأخوذة عن رجال الدين. لقد آن الأوان لاستعادة الموسيقى من القوميسارات، وآن الأوان لتوكيد خاصّيّة الاتّصال التي تتمتّع بها الموسيقى لأنّها زُوّرت في أوروبا على وفق موروث إنساني أقرَّ دائمًا بلغز الطبيعة البشريّة، وآن الأوان للموافقة على أنّ الأداء العامّ كان «تناولاً علانيًّا»، وآن الأوان للاعتراف بأولويّة الإيقاع والنبرة وطبيعة اللحن البدائيّة. إنّ حدوث مثل هذه الأشياء دون تكرار الموسيقى الغابرة يضطرّنا إلى إيجاد تحديد

معاصر للجمال، وهو أمر غير ممكن دون إدراك «حقيقة أساسيّة». عند هذه النقطة استعار كلايف بكلّ جرأة من مقالات منشورة وتُثير التكهّنات كتبها أحد زملاء نعّوم تشومسكي، الذي سبق له أن قرأ مؤلّفاته عندما كان يستمتع في عطلة في منزل الرجل في كيب كود: لقد وُصفت لنا وصفًا وراثيًّا قدرتنا على قراءة الإيقاعات والألحان والأنغام المتوافقة المدهشة. وقد اكتشف الأنثروبولوجيّون أنّ هذه العناصر الثلاثة موجودة في كلّ الثقافات الموسيقيّة. إنّ أُذننا عصيّة على سماع الهارموني أو الإيقاع (فضلاً على أنّ اللاإيقاع كان بلا معنى ومثير للسأم عندما كان يخلو من سياق الإيقاع المحيط به). لقد كان فهم اللحن عمليّة عقليّة معقّدة، لكنّها عمليّة يستطيع الطفل الرضيع أن ينجزها. لقد وُلدنا وسط إرث، كنّا أناسًا موسيقيّين. لهذا لا بدّ أن يستتبع تحديد الجمال في الموسيقى تحديد الطبيعة البشريّة التي أعادتنا إلى الإنسانيّات وإلى العمليّة الاتّصاليّة..

نُشر كتاب كلايف لينلي الموسوم «ذكريات عن الجمال» كي يتوافق زمنيًّا وافتتاح قاعة ويغمور بسمفونيّته المعروفة عن الدراويش، التي تُعدّ عملاً مذهلاً متعدّد الأصوات، يتخلّله شجن حزين له تأثير التنويم المغناطيسي، ولكنّه حظي بالحبّ والنفور بدرجة متساوية، وبهذا ضَمِن شهرته ورواج كتابه.

إذا ما وضعنا موضوع الإبداع جانبًا، فإنّ تأليف السيمفونيّة يُعدّ عملاً منهكًا للجسد: فكلّ ثانية من وقت العزف تتضمّن كتابة النوتات الموسيقيّة واحدة فواحدة، وتتطلّب عزفًا بأكثر من عشرين آلة موسيقيّة، وإعادة العزف، وإدخال تعديلات على كرّاسة

النوتات، والعزف مرّة أخرى وإعادة الكتابة ثم الجلوس بصمت والإصغاء إلى الأُذن الداخليّة وهي توالف وتموسق مختلف أنواع الحذف والشخبطات، وتستمرّ التعديلات إلى أن يغدو المقطع الموسيقي صحيحًا وبعدها يُعزف مرّة أخرى على البيانو. بحلول منتصف الليل كان كلايف قد وسَّع المقطع الآخذ بالاشتداد وأنهى كتابته وبدأ بتلك الثغرة الأوركستراليّة الكبيرة التي ستسبق تحوّل المفتاح الموسيقي. وعند الساعة الرابعة فجرًا كان قد فرغ من كتابة الأجزاء الرئيسة وعرف تمامًا كيف ستعمل نبرات الصوت عملها وكيف سيتّضح كلّ شيء.

نهض من فوق البيانو منهكًا، راضيًا بما أحرز من تقدّم، لكنّه كان وجلاً أيضًا: فقد أوصل هذه الآلة الصوتيّة الهائلة إلى نقطة يمكن عندها للعمل المؤدّي إلى النهاية أن يبدأ، ولا يمكن تحقيق هذا الشيء الآن إلاّ بابتكار له طبيعة الإلهام ـ اللحن الأخير، بأوّل وأبسط أشكاله، وهو يعزف بكلّ جرأة على آلة منفردة أو ربّما على أوّل كمان. لقد وصل إلى الجوهر وشعر بعبء ثقيل. أطفأ الأنوار وسار إلى حجرة نومه. لم تكن لديه أيّة فكرة، ولا حتى جزء من فكرة، أو حدس، ولن يجد أيًّا منها بالجلوس من حول البيانو وعقد حاجبيه. إنّها لا يمكن أن تأتيه إلاّ في الوقت المناسب لها. كان يعرف من خلال تجربته أنّ أفضل ما يستطيع عمله هو الاسترخاء، والعودة إلى الخلف، ولكن ينبغي له أن يظلّ يقظًا، متفتّح الذهن. ينبغي له أن يتجوّل طويلاً في الريف أو أن يقوم بسلسلة من الجولات الطويلة على قدميه. كان في مسيس الحاجة إلى الجبال، وإلى سماوات شاسعة. ربّما يذهب إلى منطقة

البحيرات. لقد استبدّت به أفضل الأفكار على حين غرّة بعد مسافة عشرين ميلاً عندما كان ذهنه منشغلاً بشيء آخر.

وعندما استلقى أخيرًا على ظهره في فراشه وسط ظلمة حالكة، متوتّرًا، يتردّد في أعماقه صدى المجهود الذهني الذي بذله، تراءت له أمام شبكيّة عينيه أعمدة مدبّبة من ألوان أساسيّة سرعان ما اندمجت بأشعّة الشمس. كانت قدماه متجمّدتين، في حين كان صدره وذراعاه على العكس من ذلك. وتحوّلت مشاغله الذهنيّة إلى مخاوف ليلة شديدة: المرض والموت، تجريدات سرعان ما وجدت نفسها تتركّز في الإحساس الذي ما يزال يشعر به في يده اليسرى الباردة والمتصالبة، كأنّه كان قد جلس عليها على مدى نصف ساعة. وبدأ يدلكها بيده اليمنى، ووضعها فوق بطنه طلبًا للدفء. أليس هذا هو الشعور نفسه الذي شعرت به مولي عندما ذهبت منادية سيّارة الأجرة عند فندق دورتشستر؟ ليست له رفيقة ولا زوجة، ولا جورج، ليؤنسوا وحدته ويهتمّوا به، ربّما كانت تلك نعمة. لكن ما الذي يعوّض عن ذلك؟ تقلّب على جنبيه وجذب البطّانيّة من حوله. المستشفى الخاصّ والتلفاز في حجرة الاستراحة النهاريّة ولعبة البنغو وكبار السنّ بسيكاراتهم وبولهم. إنّه لا يقدر على ذلك وسوف يذهب إلى الطبيب صباحًا، ولكن هذا هو ما أقدمت عليه مولي فأرسلوها لإجراء فحوصات. في وسعهم السيطرة على تدهورك لكنّهم لا يستطيعون الحيلولة دونه. ابق بعيدًا إذًا، وراقب تدهور حالتك، وعندما لا يصبح في وسعك الذهاب إلى العمل أو العيش بكرامة انتحر. لكن كيف يمكنه منع نفسه من الوصول إلى تلك المرحلة، المرحلة التي وصلتها مولي بسرعة كبيرة

ويكون عندها هو عاجزًا ومشوّشًا وغبيًّا فلا يقوى على الانتحار.

أفكار سخيفة! اعتدل جالسًا في سريره وتحسّس ضوء المصباح القائم عند السرير، وجذب من تحت مجلّة حبوب النوم التي كان يفضّل عدم تناولها. أخذ حبّة واستند إلى الوسائد وبدأ يلوكها ببطء ويمسّد على يده، وبدأ يفكّر على نحو معقول. كانت يده باردة. هذا كلّ ما هنالك. وكان في حالة إعياء شديد. شغله الشاغل المناسب له في حياته هو العمل، وأن يفرغ من تأليف مقطوعة سيمفونيّة وذلك بإيجاد ذروتها العاطفيّة. لقد بات الشيء الذي عذّبه قبل ساعة واحدة سلواه الآن، وبعد عشر دقائق أطفأ النور وانقلب على جنبه: لا يوجد أمامه سوى العمل الدائم. سوف يتنزّه في منطقة البحيرات. وأخذت الأسماء السحريّة تبعث السكينة في روحه، بلي ريغ وهاي ستايل وبافي آرك وسويرل هاو. وسوف يسير في وادي لانغستراث ويعبر غدير الماء ويتسلّق باتّجاه سكافيل بايك ويعود إلى المنزل عن طريق آلن كراغز. كان على دراية تامّة بهذا الطريق الدائري. وإذا ما سار بخطوات واسعة وصعد إلى السلسلة الجميلة فإنّه سوف يستعيد نفسه، وسوف يرى بوضوح تامّ.

كان قد تناول الشوكران، ولن يرى بعد الآن كوابيس تعذّبه. كانت هذه الفكرة قد بعثت في نفسه الطمأنينة، وقبل أن يصل المفعول الكيمياوي إلى دماغه كان قد جذب ركبتيه نحو صدره وشعر بالحرِّيّة. نوت الصلب وبيل المريض وبايك البارد وكراغ المسكين ومولي المسكينة. . .

* * *

الفصل الثاني

(١)

راودت فيرنون هاليدي الفكرة مجدّدًا أثناء فترة سكون في صباحه بأنّه قد لا يظلّ على قيد الحياة. فقد مكث على مدى ثلاثين ثانية لم يعكّرها أيّ شيء جالسًا من وراء مكتبه يداعب رأسه برفق بأطراف أصابعه ويفكّر بقلق. فمنذ وصوله إلى صحيفة ذا جادج قبل ساعتين كان قد تحدّث إلى أربعين شخصًا على انفراد وبقوّة. ولم يتحدّث حسب، بل إنّه قرّر واختار وعرض رأيًا ينبغي أن يفسّره على أنّه أمر. لم يعمل هذا التمرين في السلطة على شحذ همّته كما كان شأنه سابقًا، بل على العكس من ذلك، وجد فيرنون أنّه تحلّل إلى ما لا نهاية. كان بكلّ بساطة خلاصة لكلّ أولئك الناس الذين استمعوا إليه، وعندما أضحى وحيدًا لم يعد شيئًا مذكورًا. وحين أراد التوصّل إلى فكرة ما وهو مستوحد، لم يجد شيئًا يفكّر فيه. كان كرسيّه شاغرًا، وكان قد تحلّل وذاب في جميع أنحاء المبنى، من المكتب في الطابق السادس حيث يوشك أن يتدخّل للحيلولة دون طرد بديل خدم طويلاً ولا يستطيع المناوبة، وحتى الطابق

التحت أرضي حيث الأماكن المخصّصة لوقوف السيّارات أدّت بقدامى الموظّفين إلى إعلان الحرب، وبرئيس تحرير مساعد إلى أن يوشك على تقديم استقالته. كان كرسي فيرنون شاغرًا لأنّه كان في القدس وفي مجلس العموم وكيب تاون ومانيلا، موزّعًا في جميع أنحاء العالم كأنّه غبار. كان يظهر على شاشة التلفاز وفي الإذاعة وفي حفلات العشاء رفقة بعض الأساقفة، ويُلقي كلمة أمام الصناعة النفطيّة أو في ندوة أُقيمت لاختصاصيّين من الاتّحاد الأوروبي. وفي اللحظات القصيرة التي يكون فيها وحيدًا أثناء النهار، انقطع التيّار الكهربائي، لكنّ الظلمة لم تغمر أحدًا ولم تزعجه على وجه الخصوص. ولم يستطع البوح بأنّ الغياب كان غيابه هو شخصيًّا.

كان هذا الإحساس بالغياب ينمو في أعماقه منذ جنازة مولي، بل كان يهدّ كيانه. وقد استيقظ ليلة أمس وهو إلى جوار زوجته النائمة واضطرّ إلى أن يلمس وجهه كي يتأكّد من أنّه لا يزال كيانًا مادّيًّا.

لو أنّ فيرنون اصطحب بعض زملائه الأقدم منه في العمل إلى المطعم وأخبرهم بحالته لأُصيب بالذعر من جرّاء عدم دهشتهم. كان معروفًا بأنّه رجل بلا حاشية وبلا أخطاء وبلا فضائل، إنّه رجل غير موجود تمامًا. كان فيرنون معروفًا في مهنته بأنّه لا كيان. ومن أعجب الأمور التي تنطوي عليها إغراءات الصحيفة التي يصعب المبالغة بها، والتي يكثر الحديث عنها في حانات حيّ الستي، هو الأسلوب الذي أصبح به رئيس تحرير صحيفة ذا جادج. قبل مضي سنوات، كان ظهير اثنين من رؤساء التحرير، وعرف بدأبه وجهده

في العمل وأظهر موهبة فطريّة في عدم اكتساب الأصدقاء أو الأعداء على حدّ سواء. ولمّا داهم المرض مراسل صحيفة الواشنطن بوست صدر الأمر إلى فيرنون ليحلّ محلّه. وفي الشهر الثالث من عمله أخطأ عضو الكونغرس أثناء حفل عشاء أُقيم للسفير الألماني وظنّ أنّ فيرنون يكتب لصحيفة الواشنطن بوست فزوّده بمعلومات سرّيّة عن حماقات الرئيس وطيشه ـ عمليّة زرع شعر على نفقة دافعي الضرائب. وساد الاعتقاد بأنّ فيرنون هاليداي من صحيفة ذا جادج هو الذي كشف عن فضيحة تاتغيت ـ تلك القصّة التي شغلت السياسة الأميركيّة المحلّيّة على مدى أسبوع تقريبًا.

وفي هذه الأثناء، وفي لندن، كان رؤساء التحرير الموهوبون يشنّون الهجوم بعضهم على بعض، في معارك ضارية ضدّ أعضاء مجلس إدارة يتدخّلون في أمور لا تعنيهم. وتزامنت عودة فيرنون إلى البيت مع إعادة ترتيب الاهتمامات الخاصّة بالملكيّة. كانت خشبة المسرح تحتشد بأوصال وأطراف عمالقة مقطّعة إربًا إربًا. وكان الموظّف الحكومي في المجلس جاك موبي قد أخفق في إيصال الصحيفة إلى مستوى السوق، فلم يعد هناك سوى فيرنون.

جلس من وراء مكتبه وبدأ يمسّد رأسه. وفي وقت لاحق أدرك أنّه بدأ يتعلّم كيف يعيش مع اللاوجود، ولم يستطع أن يرثي لوقت طويل موت شيء ما ـ موته ـ الذي لم يعد في وسعه تذكّره. كان هذا كلّه مثار قلقه، لكنّه كان قلقًا منذ بضعة أيّام. أمّا الآن فثمّة عارض بدني يشتمل على مجمل الجانب الأيمن من رأسه، الجمجمة والدماغ إلى حدّ ما، يشبه إحساسًا لا يعرف بماذا يسمّيه،

أو ربّما توقّف مفاجئ لإحساس متّصل ومألوف لم يسبق له أن تنبّه له ـ ويشبه صوتًا يتنبّه له الفرد حال توقّفه. كان يعلم تمامًا متى بدأ، ليلة أوّل من أمس عندما فرغ من تناول العشاء. وكان موجودًا أيضًا عندما استيقظ في الصباح، متّصلاً يصعب تحديده، ليس باردًا ولا مشدودًا ولا بهيجًا، بل كان بَينَ بَينْ. لعلّ الكلمة المناسبة هي ميت. فنصفه الأيمن قد مات، وكان قد عرف عديد الناس الذين ماتوا فبات في وسعه، وهو على هذه الحالة من الاستياء، أنْ يبدأ بالتفكير في نهايته على أنّها نهاية شائعة ـ دفنٌ أو حرقٌ، حزن، وبعد هذا كلّه هدوء وتمضي الحياة وشأنها. ربّما هو ميّت الآن، أو مات مرّة أخرى، وشعر بهذا الموت بقوّة، ربّما لم يحتج إلاّ إلى صفيحتين معدنيّتين حادّتين بجانب الرأس ومطرقة متوسّطة الحجم. فتح درج مكتبه فوجد مسطرة معدنيّة كان موبي قد تركها، رابع رئيس تحرير يخفق في وقف تدهور مبيعات صحيفة ذا جادج. وحاول فيرنون هاليداي ألاّ يكون هو رئيس التحرير الخامس. كان قد رفع المسطرة بضع بوصات فوق أذنه اليمنى عندما سمع طرقًا على بابه المفتوح، دخلت على إثره سكرتيرته جين فاضطر إلى أن يحوّل الضربة ويجعلها مجرّد حكّة تنمّ عن تفكير.

قالت:

ـ الجدول. عشرون دقيقة.

ثم نزعت صفحة وناولته إيّاها وتركت البقيّة على منضدة المؤتمر وانصرفت.

ألقى نظرة إلى القوائم. في الشؤون الخارجيّة كان ديبين يكتب

عن انتصار غارموني في واشنطن. وفكّر في أنّ هذا وحده يحتاج إلى مقالة تثير الشكوك أو العداء. وإذا كانت نصرًا حقًّا، يمكن نشرها في غير الصفحة الأولى. وفي القوائم الداخليّة وجد مقالة بقلم المحرّر العلمي عن آلة مضادّة للجاذبيّة من جامعة في مقاطعة ويلز. كانت تُثير الاهتمام، فما كان من فيرنون إلاّ أن دفعها وهو يحلم بأداة تشدّه إلى أسفل الحذاء. الحقّ تبيّن أنّ ذلك الشيء يزن أربعة أطنان، واحتاج إلى تسعة ملايين ڤولت ولكنّه لم ينجح. كانوا يحاولون نشره في أسفل الصفحة الأولى. وفي صفحة المحلّيّات أيضًا مقطوعة البيانو الرباعيّة ـ رباعيّة وُلدت لعازف بيانو في الحفلات الموسيقيّة. أمّا معاونه، فقد عمد هو ومحرّرو التحقيقات والمحلّيّات إلى محاربته في هذا الموضوع وأخفوا إفراطهم في التدقيق، ولم يسمع أحد عن الأمّ التي لم تكن جميلة بأيّ حال من الأحوال، ولم ترغب في الحديث إلى الصحافة. كان فيرنون قد تفوّق عليهم. كان معدّل أي بي سي للشهر الأخير أقلّ بسبعة آلاف مرّة عن الشهر الذي سبقه. كان الوقت يمضي بسرعة بالنسبة لصحيفة ذا جادج، وهو ما يزال يفكّر ما إذا كان يتعيّن عليه أن ينشر مقالة عن التوأمين السياميين الملتصقين في منطقة الحوض ـ وكان أحدهما ضعيف القلب ولهذا لا يمكن فصلهما ـ وحصلا على وظيفة في الحكومة المحلّيّة. أراد فيرنون أن يقول في مؤتمر التحرير الصباحي: إذا كنّا نريد إنقاذ هذه الصحيفة فلا بدّ من أن تبذلوا كلّكم قصارى جهدكم. أومأ الجميع برؤوسهم ولكن لم يوافق أيّ واحد منهم. وبقدر ما يخصّ الأمر الأيدي القديمة (أي النحويّون)، فإنّ صحيفة ذا جادج سوف تصمد أو تنهار بفعل

النزاهة الفكريّة. شعروا أنّهم في مأمن من هذه الناحية إذ ما من أحد طُرد من الصحيفة سوى أسلاف فيرنون.

توافد القسم الأوّل من المحرّرين ومساعديهم عندما لوَّحت له جين من الباب كي يجيب على الهاتف. لا بدّ أنّ الأمر على قدر من الأهمّيّة لأنّها كانت تلفظ أحد الأسماء بين شفتيها وهو اسم جورج لين.

أدار فيرنون ظهره للغرفة وتذكّر كيف أنّه تحاشى اللقاء بلين أثناء الجنازة.

ـ جورج، يا لها من مناسبة مؤثّرة جدًّا. كنت أريد أن. .

ـ نعم، نعم. لقد طرأ أمر جديد. أعتقد أنّك ينبغي أن تراها.

ـ ما هي؟

ـ الصور.

ـ لا يا فيرنون. هذا مثير جدًّا. ألا تستطيع الحضور الآن؟

لم يكن مجمل احتقار فيرنون لجورج لين متّصلاً بمولي. كان لين يملك واحدًا ونصفًا في المائة من صحيفة ذا جادج وضخَّ المال لإعادة إطلاقها من جديد بعد سقوط جاك موبي وصعود فينون. فكّر جورج أنّ فيرنون مدين له. كما أنّ جورج لم يعرف شيئًا عن الصحف وهو الأمر الذي جعله يفكّر في أنّ في وسع رئيس تحرير صحيفة قوميّة أن يغادر مكتبه فيها ويسير في لندن كلّها حتى يصل هولاند بارك في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحًا.

قال فيرنون:

ـ إنّني مشغول الآن إلى حدٍّ ما.

ـ إنّني أُسدي لك خدمة كبيرة في هذا المجال، وهي خدمة في وسع صحيفة نيوز أوف ذا وورلد أن ترتكب جريمة قتل من أجلها.

ـ يمكنني أن أحضر بعد الساعة التاسعة من مساء هذا اليوم.

قال جورج مستاءً:

ـ حسنٌ جدًّا. سنلتقي هناك إذًا.

ثم أعاد سمّاعة الهاتف إلى مكانها.

كانت الكراسي المرصوفة من حول منضدة المؤتمر قد احتُلّت كلّها باستثناء كرسي واحد، وعندما جلس فيرنون عليه خفت الحديث ولزم الحاضرون الصمت. لمس جانب رأسه. لم يعد غيابه الداخلي الآن عذابًا أو محنة بعد أن أصبح في رفقة الآخرين مرّة ثانية وعاد إلى عمله. كانت صحيفة الأمس أمامه، فقال وسط الصمت المطبق إلى حدٍّ كبير:

ـ من أعدَّ المقال الرئيس عن البيئة؟

ـ بات ريدباث.

ـ في هذه الصحيفة ليست كلمة hopefully ظرفًا للجملة ولن تكون كذلك خاصّة في مقال رئيس. ثم هناك كلمة none...

توقّف ليرى مدى تأثير كلامه وهو يتظاهر بأنّه يتفحّص المقالة.

ثم واصل:

ـ عادة ما يستعمل الفعل في صيغة المفرد مع كلمة none. هل يمكننا أن نجعل الجميع يفهمون هاتين النقطتين؟

كان فيرنون مدركًا موافقة الجالسين من حول المنضدة، فقد كان كلامه من النمط الذي يروق النحويّين أن يسمعوه. ومن شأنهم أن يروا الصحيفة وقد دُفنت مع نحوها الصحيح.

شدَّد على قضيّة السرعة. لعلّ أحد ابتكاراته القليلة الناجحة ربّما الابتكار الوحيد حتى الآن، هو اضطراره إلى أن يقلّص مدّة المؤتمر اليومي من أربعين دقيقة إلى خمس عشرة دقيقة بفرض بعض القوانين على نحو خجول: لا أكثر من خمس دقائق على تشريح الجثّة ـ ما من نكات بعد الآن، وما من قيل وقال. لم يخبرهم ولهذا لم يستطع أحد آخر أن يخبرهم. تحوَّل إلى صفحات الأخبار الدوليّة وقطّب جبينه وقال: معرض فخّاريّات في أنقرة؟ خبر؟ ثمانمائة كلمة؟ لم أفهم شيئًا يا فرانك.

أوضح نائب مدير تحرير الأخبار الأجنبيّة فران ديبين بشيء من السخرية على ما يبدو:

ـ حسنًا. كما ترى يا فيرنون، إنّ هذا يمثّل ركنًا أساسيًّا في فهمنا لتأثير بواكير الإمبراطوريّة الفارسيّة على. . .

ـ الأعمدة الركنيّة في القدور المكسورة ليست خبرًا يا فرانك.

تدخّل معاون رئيس التحرير غرانت ماكدونالد الذي كان يجلس قرب فيرنون:

ـ الموضوع هو أن جوليا أخفقت في إرسال الخبر من روما. لهذا اضطررنا إلى ملء...

ـ مرّة أخرى؟ لا. ماذا حدث الآن؟

ـ التهاب الكبد الڤيروسي من نوع سي.

ـ وماذا عن وكالة أي بي؟

تكلّم ديبين:

ـ هذا أكثر إثارة للاهتمام.

ـ أنت مخطئ. حتى ملحق التايمز الأدبي لن ينشر الخبر.

ثم انتقلوا إلى جدول الأعمال اليومي، فبدأ المحرّرون يلخّصون القصص المدرجة على قوائمهم. ولمّا حان دور فرانك تحدّث عن قصّته الخاصّة بغارموني كي تتبوّأ الصفحة الأولى.

وسمعه فيرنون يتكلّم بصوت عالٍ، ثم:

ـ إنّه في واشنطن، في حين ينبغي له أن يكون في بروكسل، إنّه يعقد صفقة مع الأميركيّين من وراء ظهر الألمان. مكسب على المدى القريب، وكارثة على المدى البعيد. إنّه وزير داخليّة فظيع، بل هو أكثر فظاعة في وزارة الخارجيّة وسيجلب علينا الدمار إذا ما أصبح رئيسًا للوزراء ـ وهو ما سيحدث على الأرجح.

قال فرانك موافقًا:

ـ نعم.

كانت رقّة نبرته تخفي من ورائها ثورة عاتية بخصوص أنقرة.

ـ لقد ذكرت كلّ هذه الأمور في مقالتك الرئيسة يا فيرنون. المؤكّد أنّ الموضوع هو إن كان الاتّفاق مهمًّا وليس إن كنّا سنوافق عليه.

كان فيرنون يفكّر إن كان في وسعه أن يحمل فرانك على الانصراف. ماذا يفعل؟ يضع قرطًا في أذنه؟

قال فيرنون مجاملاً:

ـ أنت على حقّ تمامًا يا فرانك. إنّنا في أوروبا. الأميركيّون يريدون أن نكون في أوروبا. العلاقة الخاصّة أصبحت تاريخًا. ليس للاتّفاق أيّ مغزى، وستبقى تغطية الموضوع في الصفحات الداخليّة، وفي غضون ذلك سوف نضغط على غارموني.

استمعوا إلى محرّر الأخبار الرياضيّة التي زاد فيرنون حقّ عدد صفحاتها إلى الضعف، على حساب الصفحة الخاصّة بالآداب والكتب. ثم جاء دور ليتيسي أوهارا محرّرة التحقيقات.

ـ أريد أن أعرف إن كان في وسعنا المضي قدمًا في موضوع بيت الأطفال الويلزي.

قال فيرنون:

ـ لقد رأيت قائمة أسماء الضيوف. عدد كبير من الأسماء المهمّة. ولن يكون في وسعنا تحمّل النفقات القانونيّة إذا ما حدث أيّ خطأ.

بدا الارتياح على محيًّا ليتيسي وبدأت تسرد قصّة تحقيق طلبت إنجازه في فضيحة طبّيّة في هولندا.

ـ الواضح أنّ هناك أطبّاء يستغلّون قوانين القتل الرحيم. .

قاطعها فيرنون قائلاً:

ـ أريد نشر قصّة التوأمين السياميين في عدد يوم الجمعة.

ندت تأوّهات. لكن من الذي سيعارض أوّلاً.

قالت ليتيسي:

ـ ليست لدينا حتى صورة واحدة.

ـ إذًا أرسلوا شخصًا ما إلى ميدلزبره عصر هذا اليوم.

ساد صمت ووجوم، ولكن فيرنون استأنف كلامه:

ـ انظروا! إنّهم يعملون في شعبة تابعة لقسم علم الصحّة المحلّي تدعى التخطيط إلى أمام. إنّه حلم.

قال محرّر الأخبار المحلّيّة جيريمي پول:

ـ تكلّمنا في الأسبوع الماضي وكان كلّ شيء على ما يرام. ثم اتّصل يوم أمس. أقصد النصف الآخر. الرأس الآخر. إنّه لا يريد الكلام. لا يريد أيّة صورة.

هتف فيرنون:

ـ آه يا الله! ألا تفهمون؟ هذا كلّه جزء من القصّة. لقد انفصلوا. إنّ أوّل شيء يرغب المرء في معرفته هو كيفيّة فضّ النزاعات.

كانت ليتيسي واجمة. قالت:

ـ الواضح أنّ هناك علامات تدلّ على عضّات على كلا الوجهين.

قال فيرنون متعجّبًا:

ـ ممتاز! لم يفكّر أحد في هذه النقطة حتى الآن. يوم الجمعة رجاءً. الصفحة الثالثة. والآن لننتقل إلى موضوع آخر. ليتيسي. ملحق الشطرنج بصفحاته الثماني. بصراحة، لست مقتنعًا به.

* * *

(٢)

مرّت ثلاث ساعات أخرى قبل أن يجد فيرنون نفسه وحيدًا مرّة أخرى. كان في الحمّام ينظر إلى المرآة وهو يغسل يديه. الصورة أمامه، لكنّه لم يكن مقتنعًا الاقتناع كلّه. لا يزال الإحساس أو اللاإحساس يحتلّ الجانب الأيمن من رأسه مثل قبّعة ضيّقة. وعندما لمس رأسه بأصبعه كان في وسعه أن يثبت الحدود، الخطّ الفاصل عندما تصبح المشاعر في الجانب الأيمن ليست مشابهة لنقيضها، بل ظلّها أو شبحها.

كانت يداه تحت المجفّف عندما دلف فرانك ديبين، وشعر فيرنون أنّ الرجل الأصغر سنًّا لحق به ليكلّمه لأنّ تجربته في الحياة علّمته أنّ الصحافي الذكر لا يبول بسهولة ولا بحضور مديره.

قال فرانك وهو يقف عند المبولة:

ـ انظر يا فيرنون. أعتذر عمّا حدث في هذا الصباح. أنت محقّ تمامًا بشأن غارموني. لقد كنت مشوّشًا.

منح فيرنون لنفسه وقتًا إضافيًا لتجفيف يديه تحت هواء المجفّف الحارّ، بدلاً من أن ينظر إلى ورائه فيضطرّ إلى رؤية مساعد محرّر الشؤون الخارجيّة وهو يمارس عمله. كان ديبين يطلق ما في داخله بغزارة وبصوت مسموع. نعم. لو أراد فيرنون طرد أيّ شخص فسيكون فرانك هو ذلك الشخص الذي كان يهزّ نفسه بقوّة لثانية واحدة طويلة جدًا ويشدّد على اعتذاره.

ـ أعني أنّك على حقّ في عدم منحه مساحة واسعة.

فكّر فيرنون في أنّ كاسيوس جائع. سوف يترأس قسمه وبعدها سيطالب بوظيفتي.

تحوّل ديبين إلى المغسلة، فوضع فيرنون يده برفق على كتفه. لمسة غفران.

ـ لا عليك يا فرانك. إنّني أفضّل أن أستمع إلى آراء متعارضة في الاجتماع. هذا كلّ ما في الموضوع.

هذا من دواعي لطفك يا فيرنون. كلّ ما هنالك لم أرغب في أن تفكّر بأنّني ليّن مع غارموني.

وضعت تلك العبارة نهاية لهذا الحديث، وضحك فيرنون ضحكة صغيرة لطمأنته، وخرج إلى الممرّ. كانت جين تنتظره بجانب الباب، حاملة رزمة من المراسلات كي يوقّعها، وكان جيريمي بول يقف من ورائها، ومدير الإدارة توني مونتانو من ورائه. وانضمّ على الفور إلى هذا الصفّ شخص ما لم يتمكّن فيرنون من رؤيته. وبدأ رئيس التحرير يسير نحو مكتبه وهو يوقّع

الرسائل في طريقه ويستمع إلى جين وهي تذكّره بمواعيده في ذلك الأسبوع. وسار الجميع معه، وكان پول يقول:

ـ هذه الصورة الخاصّة من مدلزبره. إنّني أفضّل أن نتفادى المتاعب التي تورّطنا فيها بخصوص الألعاب الأولمبيّة ذات الصلة بالكرسي المدولب. كنت أظنّ أنّنا سوف نعمد إلى شيء مباشر.

ـ إنّني أريد صورة مثيرة يا جيريمي. إنّني لا أستطيع مقابلتهم في الأسبوع نفسه يا جين. أن يكون هذا صحيحًا. أخبريه أنّ اللقاء سيكون في يوم الخميس. . .

ـ إنّني أفكّر في نمط ڤكتوري. صورة لائقة.

ـ سوف يسافر إلى أنغولا. الفكرة تقتضي منه أن يذهب مباشرة إلى مطار هيثرو حال رؤيته إيّاك.

ـ سيّد هاليداي؟

ـ لا أُريد صورًا مبجّلة حتى في صفحة الوفيّات. اجعلهم يطلعوننا على الطريقة التي أساء فيها كلّ واحد للآخر. حسنًا. سأراه قبل ذهابه. هل الأمر يتعلّق بوقوف السيّارات يا توني.

ـ أعتقد أنّني رأيت نسخة طلب استقالته.

ـ في وسعنا أن نجد مساحة صغيرة على وجه التحديد.

ـ لقد حاولنا كلّ ذلك. لقد عرض مدير الصيانة أن يبيع المساحة المخصّصة له لقاء ثلاثة آلاف دولار.

ـ ألا ترانا نغامر بالمبالغة بالمشاعر العاطفيّة؟

ـ وقّعها في مكانين اثنين واكتب الحروف الأوّليّة من الاسم في المكان الذي أشرت إليه.

ـ إنّها ليست مخاطر يا جيريمي بل وعد، غير أنّ رئيس قسم الصيانة توني لا يملك سيّارة.

ـ سيّد هاليداي؟

ـ المساحة له عن حقّ.

ـ اعرض عليه خمسمائة. هل هذا كثير يا جين؟

ـ لست مستعدّةً لذلك.

ـ رسالة شكر إلى الأساقفة قيد الكتابة الآن.

ـ وإذا كان الاثنان يتحدّثان عن طريق الهاتف؟

ـ معذرة يا سيّد هاليداي؟

ـ الموضوع ضعيف جدًّا. إنّني أريد صورة تروي حدثًا. تذكّر أنّ الزمان هو زمان الأيدي القذرة. انظر! يستحسن إبعاد الصيانة عن مساحته إن كان لا يستخدمها...

ـ سوف يقومون بإضراب كالمرّة السابقة وعندها تتوقّف كلّ المحطّات.

ـ حسنًا. الخيار خيارك يا توني. خمسمائة باون أو المحطّات.

ـ سوف أستفسر من أحد الأشخاص من مكتب الصور ليأتي و. .

ـ لا تزعج نفسك، حسبك أن ترسل الرجل إلى مدلزبره.

ـ سيّد هاليداي؟ أأنت السيّد فيرنون هاليداي؟

ـ من أنت؟

توقّفت الجماعة التي كانت تتجاذب أطراف الحديث، وشقّ طريقه إلى أمام رجل أصلع يرتدي بذلة سوداء مشدودة السترة ونقر على مرفق فيرنون بمظروف وضعه بين يدي فيرنون. ثم باعد الرجل بين قدميه وقرأ بنبرة رتيبة وحماسيّة ورقة رفعها أمامه بكلتا يديه.

ـ من خلال السلطة المفوّضة إليّ من قِبَل المحكمة في دائرة التسجيل الرئيسة فإنّني أبلّغك يا سيّد فيرنون ثيوبالد هاليداي بنظام المحكمة المذكورة على الوجه الآتي: إنّ على فيرنون ثيوبالد هاليداي الساكن في الدار المرقّمة ١٣ في شارع روكسي بلندن، أن دبليو وان، ورئيس تحرير صحيفة ذا جادج أن لا ينشر ولا يتسبّب في نشر أو توزيع أو بثّ مادّة، إلكترونيًا أو بأيّة واسطة أخرى، ولا يصف عن طريق الطباعة أو يتسبّب في طبع مثل هذه الأوصاف للقضيّة المحرّمة التي سيُشار إليها من الآن بالمادّة، ولا يصف طبيعة وشروط هذا النظام، وبما أنّ المشار إليها آنفًا. . .

قلب الرجل النحيف الصفحة، فمال رئيس التحرير وسكرتيرته ومحرّر الشؤون المحلّيّة ومساعد مدير تحرير الشؤون الخارجيّة نحو حاجب المحكمة وانتظروا.

ـ وكل النسخ المستنسخة أو شروح مثل هذه المستنسخات، سواء أكانت منقوشة أم مرسومة أم منتجة بأيّة وسيلة أخرى وتشبه نسخة السيّد جون جوليان غارموني الأولى، كارلتون غاردنز. .

ـ غارموني!

وهنا بدأ الجميع يتكلّمون على الفور وضاعت البلاغة الأخيرة للرجل النحيف ذي البذلة الصغيرة جدًّا. انطلق فيرنون نحو مكتبه. ثمّة ترتيبات للبطّانيّات، لكن لم تكن هناك أيّة ترتيبات بخصوص غارموني، لا شيء على الإطلاق. وصل مكتبه وأغلق الباب وراءه بركلة من قدمه وبدأ يتّصل هاتفيًّا.

ـ هذه صور غارموني يا جورج.

ـ لن أقول شيئًا حتى يصل إلى هنا.

ـ لقد أكمل توًّا مدّة قضائيّة.

ـ قلت لك إنّها مثيرة. أعتقد أنّ حججك التي تصبّ في المصلحة العامّة سوف تصعب مقاومتها.

ما إن فرغ فينون من حديثه الهاتفي حتى رنَّ هاتفه الشخصي. كان كلايف لينلي على الطرف الآخر، ولم يكن فيرنون قد شاهده ثانية منذ الجنازة.

ـ أريد أن أحدّثك في أمر ما.

ـ ليست هذه اللحظة مناسبة لي يا كلايف.

ـ لا، غير صحيح. أريد أن أقابلك. الأمر مهمّ. ما رأيك في أن نلتقي ليلاً بعد الانتهاء من العمل؟

ثمّة عمق في نبرة صديقه القديم جعلت فيرنون يتردّد في ثنيه عن ذلك. على أيّة حال، بذل محاولة على مضض.

ـ كان يومًا عصيبًا إلى حدٍّ ما...

ـ لن يستغرق الأمر طويلاً. إنّه مهمّ، مهمّ حقًّا.

ـ حسنًا، انظر. إنّني سألتقي جورج لين في هذه الليلة. أعتقد أنّني سأتمكّن من زيارتك وأنا في طريقي.

ـ شكرًا جزيلاً يا فيرنون.

أمضى بضع ثوانٍ بعد الاتّصال كي يفكّر في سلوك فيرنون. كان يلحّ كثيرًا وإن على نحو رسمي. الواضح أنّ شيئًا رهيبًا قد حدث، فبدأ يشعر بالحرج بسبب ردّ فعله الذي يفتقر إلى التهذيب. كان كلايف صديقًا وفيًّا عندما انهار زواج فيرنون الثاني فنصحه أن يتولّى رئاسة التحرير في وقت ظنّ فيه الجميع أنّه كان يهدر وقته. قبل أربعة أعوام، عندما أُصيب فيرنون بالتهاب جرثومي نادر في العمود الفقري، كان كلايف يزوره يوميًّا تقريبًا، ويأتي إليه بالكتب والموسيقى وأشرطة الڤيديو والشامبانيا. وفي عام ١٩٨٧، وبعد أن كان فيرنون عاطلاً عن العمل لبضعة أشهر، أقرضه كلايف عشرة آلاف باون. وبعد مرور عامين اكتشف فيرنون مصادفة أنّ كلايف كان قد اقترض النقود من مصرفه. أمّا الآن فإنّ فيرنون يتصرّف كالخنزير في وقت يحتاج فيه إليه صديقه.

عندما حاول الاتّصال مرّة أخرى لم يجب أحد. أراد أن يتّصل مرّة أخرى، لكنّ مدير الإدارة دلف رفقة محامي الصحيفة.

ـ لديك معلومات عن غارموني لم تخبرنا بها.

ـ لا يا توني. الواضح أنّ شيئًا ما يطفو على السطح فأصابه الهلع. لا بدّ أن يدقّق أحد ما إن كانت له قضيّة أخرى.

قال المحامي:

ـ لقد دقّقنا ولا وجود لأيّة قضيّة أخرى.

بدت على توني أمارات الريبة:

ـ وأنت لا تعلم أيّ شيء؟

ـ ولا أيّ شيء. مفاجأة مذهلة.

طُرحت أسئلة أخرى تُثير الشكوك من هذا النمط، في حين واصل فيرنون الإنكار.

وفيما هما يغادران قال توني:

ـ لن تفعل أيّ شيء دوننا الآن. أليس كذلك يا فيرنون؟

قال وغمز بعينه:

ـ أنت تعرفني.

ما إن انصرف الاثنان حتى أمسك هو بسمّاعة الهاتف وبدأ يزوّل رقم هاتف كلايف عندما سمع صوتًا في المكتب الخارجي،

وفُتح باب غرفته بركلة، ودخلت امرأة مسرعة ومن ورائها جين التي رفعت بصرها إلى أعلى. وقفت المرأة أمام مكتبه تبكي وفي يدها رسالة مجعّدة، وكان من الصعب معرفة ما كانت تتفوّه به، لكن فيرنون تمكّن من فهم سطر واحد:

ـ قلت إنّك ستقف إلى جانبي. لقد وعدتني.

لم يستطع معرفة معنى ذلك آنئذٍ، لكنّ اللحظة التي سبقت دخولها غرفته كانت المناسبة الأخيرة التي سيصبح فيها وحده مرّة أخرى، وحتى لحظة مغادرته المبنى في الساعة التاسعة والدقيقة الثلاثين من ذلك المساء.

* * *

٧٨

(٣)

كانت مولي معتادة على القول بأنّ أكثر شيء أحبّته من منزل كلايف هو أنّها عاشت فيه ردحًا طويلاً من الزمان. ففي العام ١٩٧٢، حين كان معظم مجايليه لا يزالون يقطنون في غرف مستأجرة، ومضت سنوات عديدة قبل أن يشتروا أوّل شقّة رطبة تحت أرضيّة، كان كلايف قد ورث عن عمّه الثري الذي لم يكن له أولاد ڤيلّا ضخمة مزخرفة بالجصّ ومحترفًا فنّيًّا من طابقين شُيّد ليكون ذا هدف محدّد في الطابقين الثالث والرابع، وكانت نوافذه ذات الأقواس تواجه جهة الشمال، وتطلّ على مجموعة من سطوح منحدرة. ولكي يجاري زمانه وشبابه ـ كان في سنّ الحادية والعشرين ـ فقد عمد إلى طلاء الجزء الخارجي باللون البنفسجي وملأ الجزء الداخلي بأصدقائه ومعظمهم من الموسيقيّين. ومرّ بالڤيلّا عدد من الشخصيّات المشهورة مثل جون لينون ويوكو أونو اللذين أمضيا أسبوعًا فيها، في حين لبث جيمي هندريكس ليلة واحدة، وكان على الأرجح سببًا في نشوب حريق أتى على حاجز

السلالم. وبمرور ذلك العقد من الزمان خلد المنزل إلى الهدوء والسكينة. لا يزال الأصدقاء يمكثون فيه ولكن لليلة واحدة أو ليلتين، ولم ينم أحد على الأرض. وأُعيدت الزخارف الجصِّيّة لتكون بلون الكريمة، وعاش فيها فيرنون سنة واحدة، ومكثت مولي فيه طوال فصل الصيف، ونُقل البيانو إلى الطابق الأعلى حيث يوجد الاستديو، ورُصّت رفوف الكتب على الجدران. وفُرش السجّاد الشرقي فوق سجّاد مستهلك، كما جيء بمختلف قطع الأثاث الڤكتوري. وفيما خلا بعض الفرش القديمة، فإنّ ما من شيء آخر نُقل من داخل المنزل، ولا بدَّ أنّ هذا هو الشيء الذي كان يروق مولي لأنّ المنزل كان تاريخ حياة إنسان بالغ، وأذواق متغيّرة وعواطف متلاشية وثروة نامية. وكانت أقدم أدوات الطبخ من مخازن وولورث لا تزال موجودة في درج المطبخ بوصفها طاقمًا فضِّيًا موغلاً في القِدَم. وكانت اللوحات الزيتيّة للرسّامين الانطباعيّين الدانمركيّين والإنكليز معلّقة جنبًا إلى جنب مع ملصقات إعلانيّة باهتة تعلن عن انتصارات كلايف المبكرة، أو حفلات مشهورة لموسيقى الروك ـ فريق البيتلز في ملعب شيا وبوب ديلان في جزيرة وايت، وفريق الرولينغ ستونز في التامونت، وكانت قيمة بعض هذه الملصقات تفوق قيمة اللوحات.

وفي مطلع الثمانينيّات بات المنزل ملك موسيقار ثري في مقتبل العمر ـ كان قد ألَّف الموسيقى لشريط ديف سبيلر الناجح كريسماس أون ذا مون ـ وبدت منزلة رفيعة أيضًا ـ كما خمّن كلايف في أفضل لحظاته ـ وقد هوت من السقوف العالية الكئيبة على الأرائك الضخمة المكتنزة وعلى بقيّة الأغراض، التي لم تكن

مستهلكة تمامًا، ولا أثرًا قديمًا تمّ شراؤها من شارع لوتس. وتعمّق أثر هذه الصراحة واشتدّ عندما تولّت مدبّرة منزل نشطة ترتيب البيت، فأزالت الغبار من على الأغراض التي لم تكن مستهلكة تمامًا وقامت بتلميعها حتى بدت أثرًا قديمًا، ورحل آخر الذين سكنوا الدار، فأصبح الصمت فيه عملاً بيد عامل ماهر. وعلى مدى بضع سنين بدا كلايف وهو يندفع في زواجين لم يُرزق فيها بولد دون أن يصيبه مكروه. وكانت النساء الثلاث اللواتي عرفهنّ معرفة وثيقة يعشن في الخارج. وكانت المرأة التي يعيش وإيّاها الآن، وتُدعى سوزي مارسيلان، في نيويورك، وعندما رجعت إلى المنزل لم تُقم فيه طويلاً. لقد عمدت السنين والنجاحات إلى تضييق حياته في أعلى أهدافها؛ ولم يتحوّل إلى رجل متحمّس تمامًا بل إلى إنسان محترس في حياته الخاصّة. في تلك الأيّام لم توجّه الدعوة إلى الكُتّاب والمصوّرين، ومرّ وقت طويل عندما كان كلايف يسرق فيه الساعات الممتدّة بين الأصدقاء أو العشيقات أو الحفلات، أو يكتب افتتاحيّة جريئة مفاجئة أو حتى أغنية كاملة. ولم يعد البيت بيتًا مفتوحًا.

لكنّ فيرنون يستمتع حتى الآن بزياراته لأنّه أنفق الشطر الأعظم من نضوجه في هذا المكان، وليست لديه سوى ذكريات عزيزة عن صديقات وأمسيات صاخبة يتخلّلها تعاطي المخدّرات والعمل طوال الليل في حجرة نوم صغيرة في مؤخّرة البيت. تلك أيّام استُخدمت فيها آلات كاتبة ونسخ مطبوعة بوساطة الكربون. وحتى في هذه الأيّام، وبعد أن ترجّل من سيّارة الأجرة وبدأ يرتقي سلالم الباب الأمامي، مرَّ ثانية، وإن على نحو أثري، بإحساس لم

يسبق له أن راوده في تلك الأيّام، إحساس بالتوقّع، إحساس بأنّ أيّ شيء قد يحدث.

عندما فتح كلايف الباب لم يشاهد فيرنون أيّة علامة من علامات الحزن أو الأزمة. فتعانق الصديقان في الردهة.

ـ لدينا شمبانيا في الثلّاجة.

ثم أحضر زجاجة وقدحين، وارتقى فيرنون السلالم من ورائه. كان للمنزل جوّ المخدع، وخمَّن أنّ كلايف لم يخرج منه على مدى يوم أو يومين. وبانت للعيان من وراء باب نصف مفتوح حجرة نوم في حالة فوضى. في بعض الأحيان كان يطلب من مدبّرة المنزل عدم المجيء عندما يكون منهمكًا في العمل. وقد أكّدت حالة الاستديو هذا الانطباع. كانت أوراق المخطوطات تغطّي الأرضيّة، في حين انتشرت الأطباق الوسخة والأكواب وأقداح النبيذ من حول البيانو ولوحة المفاتيح والحاسبة التي كان يشتغل عليها في بعض الأحيان كلايف لينجز مقطوعاته الأوركستراليّة. كان الجوّ خانقًا ورطبًا كأنّ هناك من تنفّس الهواء الموجود فيه مرّات عديدة.

ـ آسف لهذه الفوضى.

قام الاثنان بإزاحة الكتب والأوراق من على الكراسي ذات الأذرع، وجلسا ليتجاذبا أطراف الحديث ويحتسيا الشمبانيا. أخبر كلايف صديقه فيرنون بشأن لقائه بغارموني في جنازة مولي.

قال فيرنون:

ـ الحقّ أنّ وزير الخارجيّة قال تبًّا. في وسعنا أن نستخدم تلك الكلمة في المذكّرة.

ـ تمامًا. إنّني أحاول الابتعاد عن طريق كلّ فرد.

بما أنّهما كانا يتحدّثان عن غارموني، فقد قدَّم فيرنون شرحًا عن حديثه في ذلك الصباح مع جورج لين. كانت القصّة من النمط الذي يروق كلايف، إلاّ أنّه لم يظهر أيّ حبّ فضول بشأن الصور والأمر القضائي، وبدا وهو شبه مصغٍ إلى ما يُقال. وما إن انتهت الرواية حتى نهض واقفًا على قدميه. ثم ملأ قدحيهما مرّة أخرى. كان الصمت الذي أعلن عن تغيير دفّة الحديث ثقيلاً. فوضع كلايف كأسه واتّجه صوب الطرف البعيد من الاستديو، ليعود بعد ذلك وهو يمسّد برفق راحة كفّه اليسرى.

أخيرًا قال:

ـ كنت أفكّر بشأن مولي، بطريقة موتها، وسرعته، ويأسها وكيف أنّها لم تكن تريد أن تموت تلك الميتة. كان حديثًا يشبه الأحاديث التي تطرّقنا إليها سابقًا.

توقّف، فيما شرب كلايف وانتظر.

ـ حسنًا. القضيّة هي أنّني شعرت مؤخّرًا بشيء من الخوف في داخلي.

ثم رفع صوته ليحبط قلق فينون:

ـ ربّما لا شيء. أنت تدري ذلك الشيء الذي يجعلك تتعرّق ليلاً، ويبدو في ضوء النهار شيئًا غبيًّا. ليس هذا ما أردت الحديث

عنه. إنّه لا شيء تقريبًا على وجه التوكيد، لكن لن يضيع شيء إذا ما سألتك هذا السؤال: لنفترض أنّ المرض داهمني مداهمة خطيرة، مثل مولي، وبدأت صحّتي تتدهور، وأخذت أقترف أخطاء فادحة، مثل أخطاء في إصدار الحكم، وعدم معرفة أسماء الأشياء أو من أنا. هذا النمط من الأشياء. أودّ أن أعرف أنّ هناك شخصًا ما سوف يساعدني في القضاء عليه، أي يساعدني على الموت. لا سيّما إن وصلت إلى نقطة لم يعد معها في وسعي اتّخاذ قرار يخصّني شخصيًّا، أو العمل بموجبه. إذًا، ما أريد قوله هو الآتي: إنّني أطلب منك، بوصفك أقدم أصدقائي، أن تساعدني إذا وصل الأمر إلى الحدّ الذي ترى فيه أنّه هو الشيء الصحيح، تمامًا كنّا سنسعد لو أنّنا كنّا قادرين على...

مشى كلايف بتثاقل، مرتبكًا بسبب فيرنون الذي حدّق فيه وهو رافع كأسه كأنّه قد تجمّد وهو يشرب. تنحنح كلايف بصوت عالٍ.

ـ أعلم أنّ سؤالي غريب. كما أنّه غير قانوني في هذا البلد، ولا أريدك أن تضع نفسك في الجانب الآخر من القانون مفترضًا طبعًا أنّك ستجيب بالإيجاب. لكن ثمّة وسائل وأماكن وإذا ما وصل الأمر إلى هذا الحدّ فإنّني أرغب في أن تقلّني إلى هناك جوًّا. إنّها مسؤوليّة جسيمة، شيء لا أستطيع أن أطلبه إلاّ من صديق حميم مثلك. كلّ ما أستطيع قوله هو أنّني لست في حالة ذعر أو ما شابه ذلك. لقد فكّرت في الموضوع طويلاً.

وعندما وجد فيرنون لا يزال صامتًا في جلسته، محدّقًا، أضاف بشيء من الحرج:

ـ حسنًا، هذا هو الموضوع.

وضع فيرنون كأسه على المنضدة وحكَّ رأسه، ثم نهض واقفًا على قدميه.

ـ أنت لا تريد أن تتحدّث عن هذا الهلع الذي انتابك؟

ـ لا، أبدًا.

ألقى فيرنون نظرة خاطفة إلى ساعته. كان قد تأخّر عن لقاء جورج.

فقال:

ـ حسنًا، انظر. إنّ ما تطلبه منّي شيء كبير، ويحتاج إلى قدر من التفكير.

أومأ كلايف برأسه، واتّجه فيرنون إلى الباب وتقدّم وهو يهبط السلالم. وفي الممرّ تعانق الرجلان مرّة أخرى، وفتح كلايف الباب وخرج فيرنون إلى الظلمة.

ـ إنّني أحتاج إلى أن أفكّر في الموضوع.

ـ وهو كذلك. شكرًا لمجيئك.

اتّفق الرجلان على أنّ طبيعة الطلب وحميميّته وانعكاسه انعكاسًا واعيًا على صداقتهما قد خلفت آنذاك تقاربًا عاطفيًّا لا يبعث على الاطمئنان، ولكنّه عُولج على أفضل ما يكون بافتراقهما دون أن يتفوّها بكلمة أخرى، إذْ سار فيرنون سيرًا حثيثًا على امتداد الشارع بحثًا عن سيّارة أجرة، في حين ارتقى كلايف السلالم ليتّجه إلى البيانو.

* * *

(٤)

فتح لين بنفسه باب منزله في هولاندبارك.

ـ لقد تأخّرت.

لم يعتذر فيرنون ولم يردّ، إذْ كان يظنّ أنّ جورج يحاول أن يؤدّي دور ملك الصحافة الذي يستدعي رئيس تحريره، وسار من وراء مضيفه نحو الجهة الأخرى من الممرّ المضيء المؤدّي إلى غرفة الجلوس. لحسن الحظّ لم يكن هناك ما يذكّر فيرنون بمولي. كانت الغرفة مؤثّثة على النحو الذي وصفته ذات يوم بأنّه طراز قصر بكنغهام: سجّاد سميك أصفر بلون الخردل، وأرائك ضخمة ذات لون زهري فاتح، وكراسيّ ذات مساند ونقوش بارزة بتعاريش وزخارف، ولوحات زيتيّة بنّيّة اللون تمثّل جياد سباق فوق الحشائش، ولوحات مستنسخة للرسّام فراغونارد تمثّل سيّدات ريفيّات يتأرجحن فوق أراجيح، ومؤطّرة بأُطر ذهبيّة فخمة. وكان الفضاء الواسع تُنيره من الأعلى مصابيح برونزيّة مطليّة بطلاء اللّك. ولمّا وصل جورج الحاشية المصنوعة من المرمر المبروش للمدفأة

الغازيّة ذات الأثر الموازي لأثر الفحم استدار.

ـ أترغب في كأس من شراب البورت؟

أدرك فيرنون أنّه لم يأكل شيئًا منذ تناوله شطيرة الجبنة والخسّ وقت الغداء، وإلاَّ ما السبب الذي جعل مظهر جورج الادّعائي يدفعه إلى الإحساس بمثل هذا الانزعاج؟ وما الذي حدا بجورج إلى أن يرتدي مبذلاً حريريًا من فوق ثياب النهار؟ إنّ الرجل يسلك سلوكًا وقحًا بكلّ بساطة.

ـ شكرًا، أريد ذلك.

جلسا، يبعد أحدهما عن الآخر مسافة عشرين قدمًا تقريبًا، ومن بينهما المدفأة المضطرمة بهسيسها. وفكّر فيرنون في أنّه لو كان وحده نصف دقيقة لزحف نحو حاجز المدفأة وضرب الجانب الأيمن من رأسه فوقه، إذْ لم يشعر بأنّه على ما يرام على رغم الرفقة الآن.

قال جورج بوقار:

ـ لقد اطّلعت على أرقام أي بي سي. إنّها ليست جيّدة.

كان ردّ فيرنون الآلي، تعويذته:

ـ إنّ نسبة الانهيار آخذة بالانخفاض.

ـ لكنّ الانهيار ما يزال انهيارًا.

ـ إنّ عودة هذه الأمور إلى سابق عهدها تتطلّب وقتًا من الزمان.

ثم تذوّق فيرنون شرابه وحمى نفسه بالتفكير في أنّ جورج لا

يملك سوى واحد ونصف في المئة من أسهم صحيفة ذا جادج، ولا يفقه شيئًا في الأعمال، وكان من المفيد أيضًا أن يتذكّر أنّ ثروته، «إمبراطوريّة» النشر، كانت متأصّلة في الاستغلال استغلالاً حيويًا لأصحاب الرؤوس الضعيفة: تنبّأت شفرات عدديّة خفيّة في الإنجيل بالمستقبل والإنكا[1] تلقّى الترحيب من الفضاء الخارجي والكأس المقدّسة[2] وسفينة العهد والبعث الثاني والعين الثالثة والخاتم السابع وهتلر حيّ يُرزق وعلى ما يرام في بيرو. ليس من السهل أن يُلقي جورج محاضرة عن أحوال العالم.

كان يقول:

ـ يبدو لي أنّ ما تحتاج إليه الآن هو موضوع واحد مُثير، موضوع هائل، موضوع يتعيّن على معارضيك أن يسرعوا من أجل مواكبته.

لا بدّ من زيادة التوزيع لوقف تدهوره، غير أنّ فيرنون احتفظ بحياديّته لأنّه كان يدري أنّ جورج كان يدور من حول الموضوع ليصل إلى قضيّة الصور.

حاول فيرنون أن يجعله يسرع.

ـ لدينا موضوع جيّد يوم الجمعة عن توائم سياميّة في الحكومة المحلّيّة..

---

(١) الإنكا: سلالة هنديّة ملكت في بيرو منذ القرن الحادي عشر وأنشأت في القرن الثالث عشر إمبراطوريّة قويّة عاصمتها كوسكو. تدلّ آثارهم على حضارة عريقة وتراث فنّي. قضى عليهم الفاتحون الإسبان بقيادة بيزارو ١٥٣٢ ـ ١٥٣٥.

(٢) الكأس المقدّسة: هي الكأس التي شرب المسيح منها في العشاء المقدّس.

ـ أُف! . .

نجح الأمر، إذ سرعان ما نهض جورج واقفًا على قدميه.

ـ ليس هذا بموضوع يا فيرنون، بل هو لغو. سأريك موضوعًا. سأطلعك على السبب الذي يجعل جوليان غارموني يطوف بالهيئات القانونيّة الأربع في لندن مرفوع الإبهام. تعال معي.

سارا نحو الردهة، ومرًّا بالمطبخ والدهليز الضيّق الذي كان ينتهي بباب فتحه جورج بمفتاح يال. كان جزء من الترتيبات المعقّدة لزواجه هو أن تحتفظ مولي لنفسها ولضيوفها ولحاجيّاتها بجناح منفصل من البيت. كانت تريد أن تتفادى رؤية أصدقائها القدامى يتندّرون على أُبّهة جورج. وهرب هو من موجات المدّ التي كان يتسبّب بها اضطراب مولي، فيشمل حجرات البيت المخصّصة للتسلية. كان فيرنون قد زار شقّة مولي عديد المرّات ولكنّه غالبًا ما كان يلجأ إلى استعمال المدخل الخارجي. أمّا الآن فقد شعّ فيرنون بالتوتّر لدى رؤيته جورج وهو يفتح الباب. شعر أنّه لم يكن مستعدًّا لذلك، وكان يفضّل أن يشاهد الصور في الجزء المخصّص لجورج من المنزل.

في العتمة، وفي الثواني التي أمضاها جورج يبحث عن زرّ المصباح، مرَّ فيرنون للمرّة الأولى بتجربة التأثير المناسب الذي أحدثته وفاة مولي ـ الحقيقة الواضحة لغيابها. وكان سبب ذلك هو الروائح المألوفة التي بدأ ينساها ـ عطرها وسجائرها والورود المجفّفة التي احتفظت بها في حجرة النوم وحبّات البنّ ودفء

الملابس المغسولة التي تذكّر بدفء المخبز. لقد تكلّم مطوّلاً عنها، وفكّر فيها أيضًا، ولكن للحظات أثناء أيّام عمله المزدحمة، أو عندما يستسلم للنوم ولم يشعر حتى الآن أنّه يفتقدها حقًّا في أعماق فؤاده، ولم يشعر بالإهانة لأنّه لن يراها أو يسمعها بعد الآن. كانت صديقته ربّما أفضل صديقة عرفها، ولكنّها رحلت. كان في وسعه أن يجعل من نفسه أضحوكة أمام جورج الذي كانت ملامح شكله غير واضحة حتى الآن. إنّه لم يعرف مثل هذا النمط من الوحشة والانقباض المؤلم الكامن وراء وجهه وفوق فمه مباشرة منذ الطفولة، منذ المدرسة الابتدائيّة. إنّه مشتاق إلى مولي، فأخفى شهقة إحساس بالشفقة على الذات وراء سعال عالٍ لرجل بالغ.

كان المكان كما كانت قد تركته تمامًا في اليوم الذي وافقت فيه أخيرًا على الانتقال إلى حجرة نوم في المبنى الرئيس من المنزل، كي تكون حبيسة فيها تحت عناية جورج. وفيما هما يجتازان الحمّام لمح فيرنون تنّورة من تنّوراتها تذكّرها على الفور، وكانت فوق مسند المناشف، كما لمح أيضًا منشفة وصديريّة للثديين على الأرض. لقد أنشأت هي وفيرنون قبل ربع قرن من الزمان بيتًا على مدى سنة كاملة في الشقّة الصغيرة الكائنة في أعلى المبنى في شارع رودي سين. في تلك الأيّام كانت المناشف المبلّلة مرميّةً دومًا على الأرض، وعدد كبير من ثيابها الداخليّة سقط من الأدراج التي لم تغلقها، ومنضدة كيّ الثياب التي لم تعمد إلى طيِّها ووضعها جانبًا، وفي إحدى خزاناتها المملوءة بالثياب كانت الملابس قد تكرمشت وسُحبت إلى جانبي الخزانة مثل مسافرين يستقلّون قطار الأنفاق. وكانت المجلّات ومساحيق التجميل

وبيانات المصرف وقلائد الخرز والزهور، والسراويل التحتيّة، ومنافض السكائر، وبطاقات الدعوة والسدادات القطنيّة والأسطوانات الفوتوغرافيّة، وتذاكر السفر بالطائرات، والأحذية ذات الكعوب العالية ـ ما من فسحة واحدة إلاّ وفيها شيء يعود إلى مولي، حتى إنّ فيرنون كان يتوجّه للكتابة في مقهى عند نهاية الشارع في حين كان يفترض فيه أن يعمل في البيت. وعلى رغم ذلك، كانت تستيقظ صباح كلّ يوم نشطة وتخرج من صَدَفة هذا البؤس البناتي كأنّها صورة فينوس لبوتيشيلي[1] لتقدّم نفسها لمكاتب مجلّة فوغ في باريس، جميلة وأنيقة وليست عارية.

قال جورج:

ـ من هنا.

ثم قاد ضيفه صوب غرفة الجلوس. ثمّة مظروف بنّي اللون كبير الحجم فوق أحد الكراسي. وفي حين مدَّ جورج يده ليمسك به، حظي فيرنون ببعض الوقت ليلقي نظرة خاطفة من حوله. يمكنها أن تدخل في أيّة لحظة. ثمّة كتاب عن الحدائق الإيطاليّة ملقًى على ظهره فوق الأرض، وثلاثة أقداح نبيذ فوق منضدة واطئة، وكان لكلّ قدح قطعة قماش ذات لون أخضر ضارب إلى الرمادي. لعلّه كان قد شرب بدوره من أحد هذه الأقداح. حاول أن يتذكّر آخر زيارة له إلى هذا المكان، لكنّ المناسبات اختلطت أمام ناظريه. كانت قد جرت أحاديث طويلة عن انتقالها إلى المبنى الرئيس من البيت الذي كانت تخشاه، وترفضه لأنّها كانت تعلم أنّه

(١) ساندروز بوتيشيلي (١٤٤٤ ـ ١٥١٠) رسّام إيطالي من مواليد فلورنسا (المترجم).

ليس سوى رحلة بلا دعوة. أمّا البديل عن ذلك فهو مستشفى التمريض. ونصحها فيرنون وكلّ أصدقائها بالبقاء في هولاند بارك، معتقدين أنّ أُلفة المكان ستحسّن من أحوالها. لكنّهم كانوا مخطئين، إذْ ربّما كانت ستحظى بحرّيّة في ظلّ أقسى نظام مؤسّساتي أكثر من تلك التي ستنعم بها تحت عناية جورج.

أشار إلى فيرنون أن يجلس على أحد الكراسي، واستمتع باللحظة التي أخرج فيها الصور من المظروف. كان فيرنون لا يزال يفكّر في مولي. هل ثمّة لحظات صفاء عندما انسلّت إلى الداخل وشعرت أنّ أصدقاءها أهملوا شأنها، ولم يأتوا لزيارتها، دون أن تدري أنّ جورج هو الذي حال دون مجيئهم؟ لو أنّها صبَّت لعناتها على أصدقائها لصبَّتها على فيرنون أيضًا.

وضع جورج الصور على وجهها في حضنه. كانت ثلاث صور قياس عشرة في ثمانية. كان مستمتعًا بصمت فيرنون الذي حسبه نفاد صبر أخرس. وزاد من شدّة العذاب المفترض الكلام بنبرة بطيئة:

ـ ينبغي لي أن أقول شيئًا واحدًا. ليست لديّ أدنى فكرة عن السبب الذي دفعها إلى أخذ هذه معها، لكنّ هناك شيئًا واحدًا أكيد. لا يمكن أن يحدث ذلك إلاّ بموافقة غارموني. كان ينظر مباشرة إلى المدرسة. إنّ حقوق النشر عائدة لها، وبما أنّني القيّم الوحيد على أملاكها فإنّها من حقّي. من نافلة القول أن أتوقّع بأنّ صحيفة ذا جادج سوف تحمي مصادرها.

جذب واحدة وناولها إلى فيرنون. لم يكن لذلك أيّ معنى

للحظة، سوى شدّة لمعان الأسود والأبيض، ثم تحوّلت إلى لقطة مقرّبة إلى حدّ وسط. مدهش. مدَّ فيرنون يده ليتناول صورة أخرى. من الرأس حتى القدم، منتصبة تمامًا. ثم الصورة الثالثة. صورة جانبيّة بمقدار ثلاثة أرباع. عاد إلى الصورة الأولى، وعلى حين غرّة تبخّرت جميع الأفكار الأخرى من ذهنه. ثم أمعن النظر في الصورة الثانية وفي الصورة الثالثة أيضًا. وبعد أن رآها كلّها شعر بموجات من استجابات واضحة. الدهشة أوّلاً، ثم أعقبها جذل داخلي وحشي كبته، فمنحه إحساسًا بالسموّ فوق كرسيِّه. ثم مرّ به إحساس بالمسؤوليّة الثقيلة أم تراها السلطة؟ إنّ حياة الإنسان أو مستقبله المهني في الأقلّ بين يديه. ومن يدري؟ ربّما كان فيرنون في موقع يستطيع منه تغيير مستقبل البلاد نحو الأفضل. وتوزيع صحيفته:

أخيرًا قال:

ـ يا جورج! إنّني أحتاج إلى أن أفكّر في هذا الأمر تفكيرًا متأنّيًا.

* * *

(٥)

بعد مرور نصف ساعة غادر فيرنون منزل جورج وفي يديه المظروف. أوقف سيّارة أجرة وبعد أن طلب من السائق أن يبدأ بتشغيل عدّاد السرعة والوقوف دون حركة إلى جانب الطريق، جلس هو في المقعد الخلفي لبضع دقائق، مرتاحًا من صوت محرّك السيّارة، يُمسّد الجانب الأيمن من رأسه ويفكّر في الشيء الذي يتعيّن عليه فعله. أخيرًا طلب من السائق أن يتوجّه إلى ساوث كينزنغتون.

كان الضوء يغمر الاستديو، لكنّ فيرنون لم يقرع الجرس. وعند أعلى الدرج كتب ملاحظة ظنّ أنّ مدبرة المنزل يرجّح أن تقرأها أوّلاً ولهذا تركها مبهمة. طوى الورقة طيّتين قبل أن يدفعها من تحت الباب وهرع إلى سيّارة الأجرة التي كانت في انتظاره، «نعم، شرط واحد فقط: أن تفعلي الشيء نفسه لي. ف».

* * *

الفصل الثالث

(١)

كما توقّع كلايف، كان اللحن محيِّرًا ما دام أنّه بقي في لندن وفي الاستوديو الخاصّ به. وفي كلّ يوم بذل محاولات ووضع تخطيطات صغيرة، بل ومحاولات جريئة، غير أنّه لم ينتج سوى مقتطفات، ضئيلة أو مستترة على نحو بارع، مأخوذة عن أعماله نفسها. لم يظهر أيّ شيء جديد في حدّ ذاته، بقوّته، كي يوفّر عنصر الدهشة التي ستكون ضمان الأصالة. في كلّ يوم، وبعد تخلّيه عن المحاولة وهب نفسه لمهمّات أسهل وأكثر رتابة، مثل انحناء الألحان الأوركستراليّة، وإعادة كتابة صفحات مخطوطة تسودها الفوضى، والاشتغال على موطن العقدة في الأوتار الثانويّة التي أشَّرت استهلال الحركة البطيئة. ثلاثة مواعيد موزّعة توزيعًا متساويًا على ثمانية أيّام حالت بينه وبين سفره إلى منطقة البحيرات: فقد قال قبل أشهر إنّه سيحضر عشاء لجمع الأموال؛ ووافق على أن يقدّم حديثًا لخمس دقائق لأحد أقربائه العاملين في المذياع، وسمح لنفسه أن يقتنع ويوافق على التحكيم في جائزة للتأليف في

إحدى المدارس المحلّيّة. وأخيرًا اضطرّ إلى أن يتأخّر يومًا آخر لأنّ فيرنون طلب أن يلتقيه.

في غضون ذلك، وعندما لم يكن لدى كلايف ما يفعله، فإنّه كان يدرس خرائطه ويُلمّع جزمته بالشمع السائل ويتأكّد من معدّاته ـ وهو أمر بالغ الأهمّيّة عند التخطيط للسير في الجبال شتاءً. كان من السهل عليه أن يتخلّى عن مواعيده بالادّعاء بانحراف الروح الفنِّيّة الحرّة، لكنّه كان يمقت مثل هذه العجرفة. كانت لديه مجموعة من الأصدقاء الذين استغلّوا الظروف لتحقيق أغراضهم كلّما كان ذلك مناسبًا، ولم يظهروا أمام هذا أو ذاك معتقدين أنّ أيّ انزعاج محلّي ينجم عن ذلك لن يؤدّي إلاّ إلى زيادة الاحترام للطبيعة الآسرة لمهنتهم الرفيعة. لقد تمكّنت هذه النماذج ـ التي كان الروائيّون هم الأسوأ فيها إلى حدّ بعيد ـ من إقناع أصدقائها وأسرها بأنّ ساعات العمل ليست وحدها التي تحمل بطاقة تبرئة ذات هدف رفيع، بل معها كلّ غفوة وكلّ نزهة وكلّ لحظة صمت واكتئاب أو سكر. كانت وجهة نظر كلايف تتمثّل في أنّ هذا ليس إلاّ قناع التواضع. ولم يداخله شكّ في أنّ الحرفة كانت رفيعة المستوى، لكنّ السلوك السيّئ لم يكن جزءًا منها. ربّما كان ينبغي أن يكون هناك استثناء لكلّ قرن أو قرنين. بيتهوفن، نعم. ديلان توماس، لا على وجه التأكيد.

لم يُخبر أحدًا أنّه توقّف عن عمله بل قال إنّه يُمضي إجازة قصيرة يتنزّه فيها على قدميه. الحقّ أنّه لم يفكّر بالتوقّف نهائيًّا. في بعض الأحيان كان العمل شاقًّا وعليك أن تفعل كلّ ما علّمتك التجربة من أمور فعّالة ومؤثّرة. لهذا مكث في لندن وحضر العشاء

وألقى كلمة وحكَّم في الجائزة، وللمرّة الأولى في حياته حدث خلاف كبير بينه وبين فيرنون. ولم يأتِ إلاّ في اليومِ الأوّل من آذار إلى محطّة قطار بوستن ووجد مقصورة فارغة من الدرجة الأولى في قطار متّجه إلى بينريث.

كان يستمتع بالسفر بالقطار لمسافات بعيدة لما توفّره من إيقاع مهدّئ للفكر ـ وهو ما كان يحتاج إليه بعد مواجهته مع فيرنون. لكنّ الجلوس والاستقرار في مقصورة ليس أمرًا سهلاً كما كان ينبغي. فعندما سار على امتداد رصيف المحطّة سيّئ المزاج، كان يُدرك أنّ خطواته غير متساوية، كأنّ إحدى ساقيه أصبحت أطول من الثانية. وما إن عثر على مقعده حتى خلع فردة حذائه ووجد كتلة سوداء مسطّحة من علكة وقد التصقت بأسفل نعل حذائه المتعرّج. تقوّست شفته العليا اشمئزازًا وهو لا يزال يلتقط ويقطع ويكشط بسكّين جيب عندما بدأ القطار بالتوقّف. كانت العلكة تبدو من تحت طبقتها العليا زهريّة باهتة كاللحم، وكانت رائحة النعناع ضعيفة ولكنّها مميّزة. يا له من أمر فظيع ذلك الاتّصال الحميمي بمحتويات فم إنسان غريب وتلك الدناءة التي لا قرار لها التي يتمتّع بها أناس مضغوا العلكة وتركوها تسقط من بين شفاههم حيث يقفون. عاد بعد أن غسل يديه وأنفق بعض الدقائق يفتّش يائسًا عن نظّاراته التي يستعملها عند القراءة حتى عثر عليها فوق المقعد الكائن إلى جواره، وعندئذٍ أدرك أنّه لم يحضر معه قلمًا. ولمّا وجَّه في نهاية المطاف جلّ اهتمامه إلى خارج النافذة استبدّ به كره البشر المعهود ولم يشاهد في الأفق المتلاشي المحتشد بالمباني أيّ شيء سوى بشاعة ونشاط لا معنى له.

كان يسهل على كلايف، وهو جالس في ركنه غربي لندن، وفي جولته اليوميّة التي يكون فيها مشغول البال، أن يفكّر في الحضارة بوصفها خلاصة كلّ الفنون بما فيها التصميم والطبخ والنبيذ الجيّد وما أشبه ذلك. لكن يبدو الآن أنّ هذه هي حقيقة الأمور ـ أميال مربّعة من البيوت الحديثة القليلة هدفها الأساس إسناد هوائيّات التلفاز والأطباق، ومعامل تُنتج بضاعة رديئة لا قيمة لها يُعلن عنها في أجهزة التلفاز، وشاحنات تحتشد بسلع بائسة تقف منتظرة لتوزيعها، وفي كلّ الأنحاء تجد الطرقات وطغيان حركة المرور. بدا كلّ شيء أشبه بصباح اليوم الذي يعقب حفلة عشاء. ما من أحد كان يتمنّى أن تكون الأمور على هذه الحالة، ولكن ما من أحد سُئل عن ذلك أيضًا. ما من أحد خطّط لها، ما من أحد أرادها، لكنّ معظم الناس مضطرون إلى العيش في خضمّها. عندما يشاهد المرء هذه الحالة على امتداد أميال طويلة، فهل تراه يخمّن أنّ تلك الرقّة أو ذلك الخيال كانا موجودين، أو أنّ بيرسل[١] أو بيرتن[٢] أو شكسبير أو ملتون قد عاشوا يومًا ما؟ بين الفينة والفينة، وفيما كان القطار يزيد من سرعته فيبتعدون عن لندن وهم يتأرجحون فيه، كان الريف يتراءى أمام أنظارهم يحمل معه بواكير الجمال أو ذكراه إلى أن يتلاشى بعد ثوانٍ في نهر استقام ليغدو قناة إسمنتيّة، أو بقعة من الأراضي الزراعيّة تبرز فجأة بلا أسيجة عشبيّة وبلا أشجار، على حين تظهر شوارع جديدة لا نهاية لها، بلا خجل كأنّ ما يهمّ هو أن يكون المرء في مكان آخر. وبقدر ما يخصّ الأمر رفاهيّة أيّ مخلوق آخر على وجه

---

(١) هنري بيرسل (١٦٥٨ ـ ١٦٩٥) موسيقار إنكليزي (المترجم).
(٢) إدوارد بنيامين بيرتن (١٩١٣ ـ ١٩٧٦) موسيقار إنكليزي (المترجم).

الأرض، فإنّ مشروع الإنسان لم يكن مجرّد إتقان حسب، بل كان خطأً من بدايته الأولى.

إذا كان هناك من يوجّه له اللوم فهو فيرنون. لقد سافر كلايف على هذا الخطّ غالبًا في الماضي ولم يشعر بالاكتئاب من المشهد. لم يكن في وسعه أن يعزو ذلك إلى علكة ممضوغة أو قلم حبر لم يعرف أين وضعه. كانت المشادّة التي حدثت بينهما في المساء الماضي لا تزال تتردّد في أذنيه، وانتابه القلق خشية أن تطارده الأصداء نحو الجبال فتدمّر هدوءه. ولم تكن القضيّة منحصرة في اصطراع الأصوات التي يحملها معه، بل كانت كآبة متزايدة سببها سلوك صديقه والإحساس المتنامي بأنّه لم يسبق له حقًّا معرفة فيرنون. أشاح بوجهه عن النافذة وفكّر أنّه قبل أسبوع واحد لا غير قدّم إلى صديقه طلبًا هو الأكثر غرابة والأكثر حميميّة. يا لها من غلطة خاصّة لا سيّما أنّ الإحساس بيده اليسرى تلاشى نهائيًّا. مجرّد قلق ساذج سببه جنازة مولي. واحدة من تلك النوبات الوقتيّة بشأن الخوف من الموت. يا للضعف الذي ظهر به في تلك الليلة. ولم يشعر بالراحة عندما طلب فيرنون الشيء نفسه له. كلّ ما فعله هو ملاحظة مكتوبة بخطّ مشوّش دفع بها من تحت الباب. لعلّ ذلك شيء نموذجي بخصوص نوع معيّن... من اللاتوازن الذي شَابَ علاقتهما دومًا، وهو ما كان يدركه كلايف في مكان ما من أعماق قلبه وعمل على إبعاده دومًا وهو يكره نفسه بسبب أفكار لا قيمة لها. حتى الآن. نعم. نوع معيّن من اللاتوازن في علاقتهما هو الذي جعل المواجهة في الليلة الفائتة أقلّ إثارة للدهشة، إن كان يهمّه التفكير فيها.

ثمّة زمان مضى، على سبيل المثال، عندما مكث فيرنون سنته ولم يعرض مرّة واحدة دفع الإيجار. ثم أليس صحيحًا على وجه العموم أنّ كلايف وليس فيرنون هو الذي قدّم على امتداد السنين الموسيقى- بكلّ معنًى من المعاني؟ النبيذ والغذاء والمنزل والموسيقيّين وغيرهم من الأصدقاء المثيرين للاهتمام، والمبادرات التي أتت بفيرنون إلى منازل مستأجرة يسكنها أصدقاء طيّبون في اسكتلندا وفي الجبال الواقعة شمالي اليونان وعلى سواحل لونغ آيلاند. متى حدث واقترح فيرنون ورتّب قدرًا من المتعة البهيجة؟ متى حلَّ كلايف ضيفًا لآخر مرّة في منزل فيرنون؟ ربّما قبل ثلاثة أعوام أو أربعة. لماذا لم يقرّ إقرارًا لائقًا بفعل الصداقة التي كانت تكمن من وراء اقتراض مبلغ كبير كي يرى فيرنون في وقت عصيب؟ وعندما كان يعاني التهابًا في العمود الفقري كان كلايب يزوره كلّ يوم تقريبًا. وعندما زلّت قدم كلايف فوق الرصيف خارج منزله وكسر كاحله، أسرع فيرنون بإرسال سكرتيرته إليه وحقيبة مملوءة بالكتب من المجموعة الخاصّة بصفحة الكتب في صحيفة ذا جادج.

بصراحة أشدّ، ما الذي أخذه هو، كلايف، حقًّا من هذه الصداقة؟ لقد أعطى، لكن هل تلقّى أيّ شيء؟ ما الذي ربطهما؟ كانا يشتركان في مولي، وكانت هناك سنوات متراكمة وعادات من الصداقة، لكن في حقيقة الأمر لم يكن هناك أيّ شيء في الجوهر، لا شيء لكلايف. إنّ توضيحًا كافيًا للاتوازن ربّما كان من شأنه أن يُثير سلبيّة فيرنون وانغماسه في اللذّات. والآن، وبعد الليلة الماضية، كان كلايف ميّالاً إلى رؤية كلّ هذه الأشياء على أنّها ليست سوى عناصر من حقيقة أكبر، افتقار فيرنون إلى المبدأ.

كانت الغابة النفضيّة الممتدّة خارج نافذة المقصورة، والتي لا تتراءى لكلايف، تتلاشى. هندستها الشتائيّة تحوّلت إلى فضِّيّة بفعل الصقيع الذي لم يَذُبْ بعد. وإلى ما وراء ذلك، ثمّة نهر بطيء الجريان ينساب بهدوء وسط حافّات البردي المبنيّة، في حين امتدّت خلف سهل الفيضان المراعي المكسوّة بالجليد، مزركشة بأسوار حجريّة جافّة. وعلى حافّات بلدة ذات ملامح صدئة عادت فسحة من أرض صناعيّة خربة إلى الغابة، وامتدّت شجيرات مزروعة في أحواض بلاستيكيّة إلى الأفق تقريبًا، حيث كانت الجرّافات تعدّل من سطح التربة. غير أنّ كلايف حدّق أمامه صوب المقعد الشاغر قبالته، تائهًا في تلافيف العقاب الذاتي لحساباته الاجتماعيّة المتحمّسة، موجّهًا كلّ جهده وملوّنًا، دون وعي، الماضي من خلال موشور حزنه. ثمّة أفكار أخرى حوّلت من انتباهه بين حين وآخر، كما أمضى بعض الوقت وهو يقرأ، إلاّ أنّ هذا كان موضوع رحلته المبهمة شمالاً، إعادة تحديد مطوّل ومدروس للصداقة.

شعر بعد بضع ساعات في بينريث بارتياح كبير وهو يبتعد عن هذا التأمّل، بينما كان يسير على امتداد رصيف المحطّة مع حقائبه بحثًا عن سيّارة أجرة. كانت المسافة تزيد على العشرين ميلاً إلى ستونويت، وكان سعيدًا وهو يضيّع نفسه في حديث قصير مع السائق. ولمّا كان الوقت منتصف الأسبوع وليس موسم اصطياف، فإنّ كلايف كان الضيف الوحيد في الفندق. وطلب الغرفة التي سبق له أن مكث فيها ثلاث أو أربع مرّات، الغرفة الوحيدة التي تحتوي على منضدة للكتابة. وعلى رغم برودة الجوّ فقد فتح النافذة على مصراعيها كي يستنشق هواء منطقة البحيرات الشتوي المتميّز

وهو يفرغ محتويات حقائبه ـ ماء تحلّلت فيه النباتات وصخرة رطبة وأرض مكسوّة بالطحالب. تناول طعامه بمفرده في الحانة تحت أنظار ثعلب محنّط داخل صندوق زجاجي، رابضٍ على استعداد للهجوم. وبعد نزهة قصيرة على قدميه وسط الظلّمة الحالكة من حول حافّات موقف سيّارات الفندق، قفل راجعًا إلى داخل الفندق وتمنّى ليلة طيّبة لنادلته وعاد إلى غرفته الصغيرة. وبعد أن أنفق ساعة في القراءة، استلقى تحت جنح الظلام وأصغى إلى خرير الماء المتضخّم، مدركًا أنّ موضوعه من شأنه أن يعود، وأنّ من المستحسن أن ينغمس فيه الآن بدلاً من أن يأخذه معه في نزهته في اليوم التالي. لم تكن خيبة الأمل هي التي فرضت نفسها عليه الآن، بل كانت هناك ذكرياته عن حديثه، وشيء ما يفوق ذلك: الكلام الذي قيل والكلام الذي كان يروقه أن يقوله لفيرنون من شأنه أن يفكّر فيه الآن على مدى ساعات. كان ذكرى وكان خيالاً: تخيّل قصّة دراميّة منح فيها لنفسه أفضل الأبيات، الأبيات القويّة ذات الأفكار الحزينة، أصابع الاتّهام فيها شديدة تصعب الإجابة عنها بسبب ضغطها.

* * *

(٢)

هذا هو الذي حدث حقًا: اتّصل فيرنون هاتفيًا وقت الضحى، مستخدمًا كلمات قريبة جدًّا من الكلمات التي تفوّه بها كلايف في الأسبوع الماضي، فبدت كأنّها مقتطفات واعية، تطالب بإعادة دين، مطالبة يشوبها المزاح. تعيّن على فيرنون أن يكلّمه، لأنّ الأمر عاجل جدًّا ولن ينفع الهاتف. لا بدّ له من أن يلتقي به، ولا بدّ أن يتمّ اللقاء في هذا اليوم.

تردّد كلايف، وكان قد عزم على أن يستقلّ قطار العصر إلى بينريث، لكنّه قال: حسنًا، احضر وسأعدّ عشاءً.

أعاد ترتيب خططه الخاصّة بالسفر، وأحضر معه زجاجتين من خمر بُرغنديا من القبو وقام بطهو الطعام. وصل فيرنون متأخّرًا ساعة من الزمان، وكان انطباع كلايف الأوّل هو أنّ صديقه نقص وزنه. كان وجهه طويلاً ونحيفًا، لم يحلق ذقنه، في حين بدا معطفه كبيرًا يفوق حجمه مرّات. ولمّا وضع حقيبة يده على الأرض ليتناول كأسًا من النبيذ، كانت ترتعش.

كرع الشراب من نوع تشامبرتين كلوزدي بيز كما يكرع الجعة وقال:

ـ يا له من أُسبوع! يا له من أُسبوع فظيع.

ثم مدّ يده يمسك بقدحه لإعادة ملئه، فامتثل له كلايف الذي شعر بالارتياح لأنّه لم يبدأ بالريشيبورغ.

ـ كنّا في المحكمة على مدى ثلاث ساعات في هذا الصباح وقد كسبنا القضيّة. قد تظنّ أنّ هذه هي نهاية المطاف، لكنّ جميع الموظّفين ضدّي، معظمهم تقريبًا. لقد هاج المبنى وماج. وإنّها لأعجوبة أنّنا طبعنا الصحيفة في هذه الليلة. ثمّة اجتماع للكنيسة الآن وهم واثقون بأنّهم سيوافقون على مقترح حجب الثقة عنّي. إنّ موقف الإدارة والمجلس صارم، وهو أمر حسن. إنّها معركة حتى الموت.

أشار كلايف إلى كرسي، فما كان من فيرنون إلاّ أن انهار فوقه، ووضع ساعديه فوق منضدة المطبخ وغطّى وجهه بكلتا يديه وبدأ يولول:

ـ هؤلاء السفلة المتزمّتون. إنّني أحاول أن أنقذ صحيفتهم التي يمسحون بها مؤخّراتهم ووظائفهم القذرة. وهم يفضّلون خسارة كلّ شيء على إجراء تعديل واحد. إنّهم لا يعيشون في عالم الواقع. إنّهم يستحقّون أن يتضوّروا جوعًا.

لم تكن لدى كلايف أيّة فكرة عمّا كان يتحدّث فيه فيرنون، لكنّه لم يقل شيئًا. فرغ قدح فيرنون مرّة أخرى، فملأه كلايف

ومضى ليجلب دجاجتين من الفرن. رفع فيرنون حقيبته ووضعها فوق ركبتيه، وقبل أن يفتحها أخذ نفسًا عميقًا مُهدّئًا، وجرعة أُخرى من شراب التشامبرتين. نزع ماسكتي الدجاجتين وتردّد، ثم تكلّم بصوت خفيض:

ـ انظر. أحبّ أن أسمع رأيك في هذا الموضوع، لا لأنّ لك علاقة شخصيّة معه أو لأنّك تعرف شيئًا قليلاً عنه، بل لأنّك لست في مجال العمل. وإنّني بحاجة إلى رأي من هو خارج العمل. أعتقد أنّني سأُصاب بالجنون...

كان يتمتم بالجملة الأخيرة في نفسه عندما بدأ يخوض في الموضوع ويقدّم مظروفًا كبيرًا صُنع من الورق المقوّى، وسحب منه ثلاث صور فوتوغرافيّة بالأسود والأبيض. أطفأ كلايف مصدر الحرارة التي كانت تنبعث من تحت القدور وجلس. كانت الصورة الأولى التي وضعها فيرنون في يده تظهر جوليان غارموني مرتديًا ثوبًا بسيطًا غير مزخرف، يبلغ طوله ثلاثة أرباع طول الثوب الاعتيادي وفي وضع مشية القطّة، متباعد الذراعين قليلاً عن جسده وإحدى قدميه أمام الأخرى وملتوي الركبتين قليلاً. وكان النهدان المزيّفان من تحت الثوب صغيري الحجم، في حين بانت حافّة حمّالة واحدة من حمّالتي صديريّة الثديين. كانت مساحيق التجميل تعلو الوجه ولكن ليس بإفراط، إذْ أفاده امتقاعه الطبيعي في لون بشرته فائدة كبيرة، وأضفى أحمر الشفاه قوسًا من الحسّيّة على الشفتين الرقيقتين القاسيتين. الشعر هو شعر غارموني المعروف، قصيرًا ومتموّجًا ومفروقًا إلى الجانبين، فبدا مظهره فاسقًا ومشذّبًا

في آن وبليدًا إلى حدّ ما. لم يكن هذا بالشيء الذي يمكن أن يمرّ عابرًا بوصفه ثوبًا خياليًّا أو قبّرة تقف أمام عدسة التصوير. كانت السحنة المتوتّرة المنغمسة في الذات تدلّ على رجل أُنيط اللثام عنه وهو في وضع داعر. وكانت النظرة القويّة الموجّهة إلى العدسات جنسيّة عن وعي. أمّا الضوء فكان مريحًا للنظر، متقن الصنع.

قال كلايف محدّثًا في نفسه إلى حدّ بعيد: مولي.

قال فيرنون:

ـ لقد حصلت عليها في صورة واحدة.

كان يراقب بنهم، منتظرًا ردّ فعل، في حين استمرّ كلايف يحدّق في الصورة كي يخفي أفكاره إلى حدّ ما. كان الشعور الذي داخله لأوّل وهلة هو الراحة لمولي. لقد حُلَّ اللغز، هذا هو الشيء الذي جذبها إلى غارموني: حياته السرِّيّة وضعفه وثقته التي كانت تشدّ حتمًا أحدهما إلى الآخر. مولي العجوز الطيّبة. كان من شأنها أن تصبح مبدعة ولعوبًا، تحثّه على المضي قُدُمًا، وتنقله أكثر فأكثر إلى الأحلام التي لم يتمكّن مجلس العموم من تحقيقها، وكان من شأنه أن يعلم أنّ في مستطاعه أن يعتمد عليها. لو أنّها كانت مريضة على نحو آخر لأبدت اهتمامًا في إتلاف هذه الصور. هل خرجت من حجرة نومها يا تُرى؟ إلى مطاعم في مدن أجنبيّة؟ فتاتان في البلدة. كان من شأن مولي أن تعرف. كانت على دراية بالثياب والأماكن وكانت لتعشق المؤامرة والهزل وما فيها من سذاجة جنسيّة. فكّر كلايف مرّة أخرى كيف أنّه أُغرم بها.

قال فيرنون:

ـ حسنًا؟

مدَّ كلايف يده كي يناوله صورة أخرى في محاولة لأن يسبقه. في هذه اللقطة التي تصوّر الرأس والكتفين يبدو ثوب غارموني ثوبًا نسائيًّا حريريًّا. ثمّة خيط بسيط من التخريم يُحيط الأكمام العليا وحافّة الرقبة. ربّما كان مرتديًا ثيابًا داخليّة. وكانت النتيجة أقلّ نجاحًا، كشف على نحو تامّ الجانب الرجولي الخفي وكشف عن العنصر المثير للشفقة، الأحلام المستحيلة لهويّته المقيتة. ولم تتمكّن إضاءة مولي الفنّيّة من أن تحلّل عظام الفكّ في الرأس الضخم ولا انتفاخ تفّاحة آدم. أمّا كيف كان يبدو، وكيف شعر أنّه يبدو فربّما هما أمران مختلفان. لا بدّ أن تكون هذه الصور سخيفة، بل هي سخيفة حقًّا، لكنّ كلايف كان هلوعًا إلى حدٍّ ما. إنّنا لا نعرف إلاّ الشيء القليل عن كلّ واحد. إنّنا نستلقي غالبًا مغمورين مثل طبقات الجليد، لا تعكس فيها نفوسنا الاجتماعيّة المرئيّة سوى البرودة واللون الأبيض. ها هنا تحت الموج مشهد نادر لخلوة إنسان واضطرابه، وكرامته التي ارتكزت على الضرورة القويّة للفانتازيا النقيّة، والفكر النقي والعنصر البشري الذي لا يمكن اختزاله ـ وهو العقل.

للمرّة الأولى فكّر كلايف في ماهيّة إحساسه بالشفقة على غارموني. لقد كانت مولي هي التي جعلت ذلك ممكنًا. وفي الصور: الثالثة كان يرتدي سترة ملاكمة من نوع شانيل، وكانت نظرته الثابتة متّجهة إلى أسفل، على شاشة عقليّة ظهر ما للذات فيها بهيئة امرأة محتشمة ومعقولة، لكن لا يبدو للرائي الأجنبي سوى

انحراف. انظر! إنّك رجل. كان يبدو في حال أفضل عند النظر إلى آلة التصوير، يواجهنا بادّعائه.

بدأ صبر فيرنون ينفد:

ـ والآن؟

ـ غريب.

أعاد كلايف الصور إلى فيرنون. لم يستطع أن يفكّر تفكيرًا واضحًا في حين ظلّت الصور ماثلة أمامه. وقال:

ـ إذًا أنت تكافح من أجل أن لا تنشر الصور في الصحيفة.

كانت العبارة تمثّل مناكدة إلى حدّ ما ومشاكسة إلى حدّ آخر فضلاً على كونها رغبة في تأخير التعبير عن أفكاره.

كان فيرنون يحدّق فيه بدهشة:

ـ أأنت مجنون؟ هذا هو العدوّ. لقد أخبرتك أنّنا رفعنا الأمر القضائي.

ـ حقًّا. آسف. لم أكن موافقًا عليه.

ـ إنّني أفكّر في النشر في الأسبوع المقبل. ما رأيك؟

اتّكأ كلايف على كرسيّه وشبك يديه من وراء رأسه وقال بعناية:

ـ أعتقد، أعتقد أنّ موظّفيك على صواب. إنّها فكرة فظيعة حقًّا.

ـ بمعنى؟

ـ ستدمّره.

ـ حقًّا.

ـ شخصيًّا.

ـ نعم.

ران صمت مفاجئ، فاحتشدت اعتراضات كثيرة في ذهن كلايف، حتى بدا كلّ اعتراض يلغي الآخر.

أبعد كلايف قدحه الفارغ نحو الجهة الأخرى من المنضدة، وفيما كان فيرنون يملأه قال:

ـ إنّني لا أفهم ذلك. إنّه سمّ حقيقي، وهذا ما قلته أنت بنفسك مرارًا.

وافق كلايف وقال:

ـ إنّه خسيس.

ـ تروج شائعات بأنّه سوف يخوض تحدّي القيادة في تشرين الثاني، وسيحلّ الوبال على البلاد إذا أصبح رئيس وزراء.

قال كلايف:

ـ أظنّ ذلك أيضًا.

بسط فيرنون يديه وقال:

ـ والآن؟

ران الصمت مرّة أخرى، وأخذ كلايف يحدّق في شقوق السقف ويحاول أن يستجمع أفكاره. وأخيرًا قال:

ـ قل لي. أتعتقد أنّه خطأ من حيث المبدأ إذا ما ارتدى الرجال ثياب النساء؟

تأوّه فيرنون، وبدأ يتصرّف كأنّه ثمل. لا بدّ أنّه قد شرب بضعة كؤوس قبيل مجيئه. قال:

ـ آه يا كلايف.

استرسل كلايف في حديثه:

ـ كنت ذات يوم من المؤيّدين للثورة الجنسيّة. كما أنّك دافعت عن مثليّي الجنس.

ـ لا أصدّق أنّني أسمع هذا الكلام.

ـ لقد أيّدت المسرحيّات والأشرطة السينمائيّة التي كان الناس يريدون حظرها. ولم تدافع إلاّ في العام الماضي عن المعتلّين عقليًّا الذين جيء بهم إلى المحكمة لأنّهم دقّوا المسامير في خُصاهم.

جفل فيرنون وقال:

ـ بل في قضبانهم.

ـ أليس هذا هو التعبير الجنسي الذي حرصت على الدفاع عنه؟ ما جريمة غارموني التي تحتاج إلى الكشف عنها؟

ـ نفاقه يا كلايف؟ إنّه الجلّاد والضارب بالسوط، ورجل القيم الأسريّة وجلّاد المهاجرين والباحثين عن اللجوء والمسافرين والهامشيّين.

قال كلايف:

ـ غير صحيح.

ـ بل صحيح. لا تتفوّه بكلام فارغ.

ـ إذا لم يكن هناك بأس في ارتداء الرجل ثياب المرأة، فلا بأس أيضًا لمن هو عنصري أن يكون عنصريًا. لكنّ الذي فيه بأس هو أن يكون المرء عنصريًّا.

أطلق فيرنون تنهيدة تنمّ عن شفقة مصطنعة وقال:

ـ استمع إليَّ...

غير أنّ كلايف كان قد عثر على كلمته.

ـ إذا لم يكن هناك بأس في ارتداء المرء ثيابًا نسائيّة، فلا بأس إذًا لربّ الأسرة أن يرتديها أيضًا. سرًّا طبعًا. وإذا لم يكن هناك بأس من...

ـ أصغِ إليَّ يا كلايف. إنّك تقضي النهار كلّه في الاستديو تحلم بالسيمفونيّات، وليست لديك أيّة فكرة عن المخاطر. إذا لم يُوقف غارموني وإذا ما أصبح رئيسًا للوزراء في تشرين الثاني فستكون لديهم فرصة طيّبة للفوز في الانتخابات في العام المقبل. خمسة أعوام أخرى! وسيزداد عدد الناس الذين يعيشون تحت خطّ الفقر، وعدد السجناء والمشرّدين الذين لا مأوى لهم، وستزداد الجريمة والتظاهرات كما حدث في العام الماضي. كان يؤيّد التجنيد الإلزامي. سوف تتأثّر البيئة لأنّه يودّ أن يُرضي أصدقاءه في العمل بدلاً من توقيع اتفاقيّات بشأن الاحتباس الحراري.

وهو يريد أن يُخرجنا من أوروبا. كارثة اقتصاديّة! كلّ هذا شيء جميل جدًّا في رأيك.

وهنا أشار فيرنون صوب المطبخ الهائل وواصل:

ـ لكن بالنسبة لمعظم الناس. . .

فقال كلايف بصوت هادر:

ـ مهلاً، عندما تحتسي خمرتي.

ثم مدَّ يده إلى زجاجة الشراب وملأ كأس فيرنون ومضى يقول:

ـ مائة وخمسة باونات للزجاجة الواحدة.

كرع فيرنون نصف الكأس.

ـ فكرتي الأساسيّة هي أنّك لا تصبح مرتاحًا ويمينيًّا في مرحلة الشيخوخة. أليس كذلك؟

ردَّ كلايف مجيبًا على السخرية المهينة كعادته:

ـ أنت تعلم معنى هذا كلّه حقًّا. إنّك تقوم بعمل جورج. إنّه يحقّرك، يستغلّك يا فيرنون، وإنّني مندهش لأنّك لا تستطيع ملاحظة ذلك. إنّه يكره غارموني بسبب علاقته مع مولي. وإذا كان لديه شيء ضدّي أو ضدّك فسيستخدمه أيضًا.

ثم أضاف كلايف:

ـ ربّما لديه. هل أخذتْ أيّ واحد منكما؟ ببذلة الرجل الضفدع؟ أم بالتنّورة المنتفخة الشديدة القصر؟

نهض فيرنون واقفًا على قدميه ووضع المظروف في حقيبته.

ـ لقد جئت إليك طامعًا في مساندتك، أو في الأقلّ أن تستمع إليّ متعاطفًا وإيّاي. ولم أكن أتوقّع إهانتك.

ثم خرج باتّجاه الردهة فتبعه كلايف، ولكنّه لم يشعر بأنّه يريد أن يعتذر.

فتح فيرنون الباب، والتفت. بدا محطّمًا وقذرًا، وقال بهدوء:

ـ إنّني لا أفهم. لا أعتقد أنّك صريح وإيّاي. ما الذي يجعلك تعترض على هذا؟

لعلّ السؤال كان بلاغيًّا، إذْ خطا كلايف خطوتين باتّجاه صديقه وردَّ:

ـ مولي هي السبب. إنّنا لم يَرُقْنا غارموني، ولكنّه كان يروقها. كان يثق بها وكانت تحترم ثقته. شيء ما خاصّ يجمع بينهما. هذه هي صورها ولا شأن لها بي أو بك أو بقرّائك. كان من شأنها أن تكره ما تفعله. بصراحة، أنت تخونها.

أخيرًا، وبدلاً من أن يدع كلايف فيرنون يرضى بإغلاق الباب من ورائه، استدار ومضى إلى المطبخ كي يتناول عشاءه بمفرده.

* * *

(٣)

كانت ثمّة مصطبة خشبيّة طويلة خارج الفندق بإزاء جدار حجري خشن. وفي الصباح جلس كلايف على هذه المصطبة بعد أن تناول فطوره ليربط شريط جزمته. وعلى رغم أنّه كان يفتقد العنصر الأساسي في الجزء الأخير من لحنه الموسيقي إلاّ أنّه حظي بفائدتين كبيرتين في بحثه. الفائدة الأولى عامّة: فقد شعر بالتفاؤل، إذْ كان قد أنجز الجزء الخاصّ بخلفيّة العمل في الاستوديو الخاصّ به. وإذا كان لم ينم نومًا هانئًا فإنّه كان فرحًا بالعودة إلى منظره المفضّل. أمّا الفائدة الثانية فكانت خاصّة: لقد كان يعرف تمامًا ما يريد. كان يعمل عكس الاتّجاه حقًّا، إذْ كان يشعر أنّ الموضوعة الرئيسة تكمن في جزيئات وفي إشارات ما كان قد أنجز كتابته توًّا. من شأنه أن يُدرك أنّ الشيء الصحيح سرعان ما يمرّ بباله. في المقطوعة النهائيّة، سيبدو اللحن للأذن البريئة وكأنّه كان متوقّعًا أو ناميًا في مكان آخر من القطعة الموسيقيّة. وما إيجاد النوتات إلاّ عمل يدلّ على توليفة ذكيّة. بدا كأنّه كان يعرفها، ولكنّه لم يستطع

سماعها. كان يعرف رقّتها وشجنها، ويعرف بساطتها، وكان نموذجه متمثّلاً على وجه التوكيد بمقطوعة بيتهوڤن (قصيدة إلى الفرح). تأمّل السطر الأوّل ـ بضع درجات صعودًا وبضع درجات نزولاً. قد يصلح لأن يكون لحنًا للأطفال فهو بلا ادّعاء، ولكنّه يحمل في الوقت عينه ثقلاً روحيًّا. وقف كلايف ليتسلّم غداءه المعلّب من النادلة التي أحضرته إليه.

هكذا كانت الطبيعة السامية لمهمّته ولطموحه. بيتهوڤن. جثم فوق حصباء موقف السيّارات ليضع في صرّته شطائر الجبن المبشور.

علَّق صرّته على كتفه، وانطلق على امتداد الطريق باتّجاه الوادي. وفي الليل تحرّكت جهة دافئة نحو الجهة الأخرى من البحيرات وكان الصقيع قد اختفى من على الأشجار والمرج المحاذي للنهر، كانت كمِّيّة الغيم عالية ورماديّة متّسقة، وكان الضوء صافيًا ومسطّحًا والطريق جافًّا. ولم تتحسّن الظروف الجوِّيّة كثيرًا أواخر الشتاء. فكّر أنّ لديه ثماني ساعات من ضوء النهار على رغم علمه المسبق أنّه طالما كان بعيدًا عن الهضاب وقريبًا من الوادي، وقت الغسق، فإنّه سيتمكّن من العودة إلى بيته مهتديًا بنور مصباحه اليدوي. كان لديه وقت كي يتسلّق قمّة سكافيل، إلاّ أنّ في وسعه أن يُرجئ القرار إلى أن يصبح فوق إيسك هاوس.

أثناء الساعة الأولى أو نحوها، وبعد أن انعطف جنوبًا باتّجاه لانغستراث، شعر برغم تفاؤله بقلق من جرّاء وحشة الفضاء المحيط به، وانساق بضعف وراء حلم يقظة، ووراء قصّة معقّدة تدور عن

شخص ما يختفي وراء إحدى الصخور، منتظرًا إيّاه كي يجهز عليه. فكان ينظر من فوق منكبيه بين الفينة والفينة، وهو يدرك حقيقة مشاعره لأنّه غالبًا ما كان يقوم وحده بنزهات على قدميه. وكان يساوره إحساس دائم بالامتعاض من الهزيمة. وما استمراره في المضيّ بعيدًا عن أقرب الناس وعن الملاذ والدفء والمشاهدة إلاّ عمل من أعمال الإرادة. وفجأة واجه الإحساس بالتوازن المعتاد على الأبعاد اليوميّة للحجرات والطرقات فضاء شاسع. فكانت كتلة الصخر الشامخة فوق الوادي تمثّل تقطيبة طويلة منحوتة في الصخر. وكان هسيس جدول الماء وزمجرته لغة التهديد. وأخبرته روحه المنكمشة وكلّ نزعاته الأساسيّة أنّ من الحمق واللاجدوى المضي قُدُمًا، وأنّه بهذا يرتكب غلطة.

استمرّ كلايف في دربه لأنّ الانكماش والوجل كانا يمثّلان الظرف ـ المرض ـ الذي كان ينشد الخلاص منه والدليل على أنّ جهده اليومي ـ المتمثّل بالانكباب على البيانو، على مدى ساعات يوميًا ـ حوّله إلى حالة انكماش. لكنّه سرعان ما سيعود إلى حجمه الطبيعي، غير هيَّاب. لا وجود لأيّ تهديد هنا، بل لا مبالاة مبدئيّة. ثمّة مخاطر لكنّها مخاطر اعتياديّة وبسيطة: جرح نتيجة سقوط، الضياع، تغيّر مفاجئ في الطقس، والليل. كانت السيطرة على هذه المظاهر تُعيده إلى الإحساس بالسيطرة. وسرعان ما سوف يتلاشى المغزى الإنساني من الصخور وتستعيد الطبيعة جمالها وتجذبه إليها. وسوف يُذكّره عمر الجبال الذي يصعب تخيّله والتشابك الدقيق للكائنات الحيّة التي تعيش بينها بأنّه جزء من هذا النظام، وإنّه مهمّ فيه، وإنّه سيتحرّر.

لكنّ هذه العمليّة المفيدة تستغرق اليوم وقتًا أطول من المعتاد. لقد مضت عليه ساعة ونصف الساعة وهو يسير على قدميه ولا يزال ينظر إلى بعض الجلاميد أمامه ليرى ما تخفيه وراءها. ولكنّه يواصل النظر إلى سطح الصخور والعشب الكئيب في نهاية الوادي بوجل غامض، وهو منزعج بجزيئات حديثه مع فيرنون. أمّا الفضاءات المفتوحة التي كان يُراد بها أن تقلّل من همومه فكانت تقلّل كلّ شيء: وبدا مسعاه لا غاية له. خاصّة السيمفونيّات: انفجارات ضعيفة، طنين، محاولات محبطة لتشييد جبل في الصوت. جهد عاطفي. ولماذا؟ المال. الاحترام. الخلود. أسلوب في إنكار العشوائيّة التي تُنْتِجنا، والحيلولة دون الخوف من الموت. توقّف لكي يُحكم ربط شريط حذائه. وبعد مسافة أخرى خلع كنزته وشرب حتى ارتوى من عبوة الماء دون تروٍّ وقت الفطور. ثم رأى نفسه يتثاءب ويفكّر في السرير في غرفته الصغيرة. لكن من غير المحتمل أن يكون قد أُصيب بالإرهاق منذ الآن، كما لا يمكنه الرجوع، خاصّة بعد كلّ الجهود التي بذلها من أجل الوصول إلى هذا المكان.

وصل إلى جسر يمتدّ فوق جدول الماء فتوقّف ليجلس. لا بدّ له من اتّخاذ قرار. ففي وسعه أن يعبر من هنا ويبدأ بالصعود، على وجه السرعة، الجانب الأيسر من الوادي باتّجاه مضيق ستيك، أو في مستطاعه أن يواصل سيره حتى نهاية الوادي ليرتقي بعد ذلك مسافة ثلاثمائة قدم، أو زهاء ذلك، من المنحدر الشديد باتّجاه تونغ هيد. لم يشعر حقًّا أنّه يريد أن يزحف على يديه، ولم يرقه الاحتمال بالاستسلام للضعف أو العمر. أخيرًا قرّر أن يبقى قرب

جدول الماء ـ لعلّ الجهد المبذول في التسلّق سيساعده في إخراجه من سباته.

وصل بعد ساعة نهاية الوادي المواجه للمنحدر الشديد الأوّل، فندم على قراره. بدأت الأمطار تنهمر بغزارة. وبصرف النظر عن الادّعاءات التي قيلت بشأن الملابس الغالية الثمن، الواقية من المطر التي يناضل من تحتها، كان يعرف أنّ الجهد البدني الذي يتسبّب به التسلّق سوف يجعله يشعر بالحرّ. تفادى السير على الصخرة الرطبة المنحدرة إلى أسفل، وشقّ طريقه فوق ضفاف عالية مكسوّة بالأعشاب. وفي غضون دقائق، على وجه التوكيد، بدأ العرق يتصبّب فوق عينيه أسوة بالمطر. انزعج لأنّ خفقان قلبه كان سريعًا جدًّا منذ الآن، وأنّه كان يتوقّف كلّ ثلاث دقائق أو أربع ليلتقط أنفاسه. إنّ مثل هذا التسلّق ينبغي أن يكون ضمن قدراته. شرب الماء من عبوته وغذّ السير مستفيدًا من عزلته لكي يتأوّه ويتألّم بصوت عالٍ عند كلّ خطوة شاقّة.

لو كان في رفقته شخص آخر لربّما سخر من مذلّة التقدّم في السنّ. لكن في تلك الأيّام لم يكن له أصدقاء حميميّون في إنكلترا يشاركونه نفوره. فقد بدا كلّ من كان يعرفه غاية في السعادة إذا ما عاش حياته دون حاجة إلى البرِّيّة ـ إلى مطعم ريفي وهايد بارك في الربيع؛ كلّ ما كانوا بحاجة إليه هو الفضاء المفتوح. المؤكّد أنّهم ليس في وسعهم أن يزعموا أنّهم يعيشون ملء حياتهم. جاهد وهو يشعر بالحرارة ويتصبّب عرقًا، متقطّع الأنفاس في أن يصعد فوق سلسلة الصخور المعشوشبة فيستلقي فوقها ويبرّد وجهه على العشب، في حين تضرب الأمطار ظهره. ولعن أصدقاءه على

اكتئابهم وافتقارهم إلى شهوة الحياة. لقد خذلوه. لا أحد يعرف أين هو، ولم يهتمّ أحد به.

بعد خمس دقائق من الإصغاء للمطر وهو يتساقط على نسيج ثيابه الواقية من المطر، نهض واقفًا على قدميه وغذَّ السير في طريقه إلى أعلى. على أيّة حال، هل كانت منطقة البحيرات بريّة حقًّا؟ ثم فقدت طبيعتها بسبب السائرين فيها فأصبح كلّ ملمح أخير لا أهمِّيّة له ملمحًا له عنوانه ويجري الاحتفال به احتفالاً أنيقًا؟ لم تكن أكثر من غرفة جمناستيك بنِّيّة هائلة، وليس هذا المنحدر سوى مجموعة من الحواجز الجداريّة المعشوشبة؟ كان هذا غريبًا تحت المطر. استبدّت به أفكار أوهنته على نحو أشدّ وهو يرتقي باتّجاه مضيق بين قمّتين، ولكنّه بعد أن أحرز تقدّمًا في صعوده الذي غدا أقلّ انحدارًا، وبعد أن توقّف سقوط المطر وسمح انفلاق طويل في الغيمة بعزاء صغير من ضوء الشمس الخفيف، وهو ما حدث أخيرًا، بدأ يشعر أنّه على ما يرام. ربّما لم يكن سوى أثر مادّة الأندورفين التي يطلقها الجهد العضلي، أو ربّما يرجع السبب إلى أنّه وجد الإيقاع، أو ربّما لأنّ تلك اللحظة من لحظات السير في الجبل كانت ممتعة عندما يصل المرء إلى قمّة بين جبلين ويبدأ بعبور الخطّ الفاصل بين الأرض والسماء لتتراءى له قمم ووديان جديدة ـ غريت إند وايسك بايك وباوفيل. بدت الجبال جميلة الآن.

ولمّا أصبح على مستوى قريب من سطح الأرض عَبَر الحشائش النامية واتّجه صوب طريق يمهّد صعود السائرين من لونغ ديل إلى أعلى، وهو طريق كان يزدحم صيفًا على نحو يبعث على الاكتئاب، إلاّ أنّه لم يشهد في هذا اليوم سوى سائر وحيد يرتدي

ملابس زرقاء وهو يجتاز الهضبة الواسعة، مسرعًا عن عمد نحو إيسك هاوس وكأنّه على موعد. وفيما كان السائر يقترب، اكتشف أنّه ليس إلاّ امرأة دفعت كلايف إلى أن يمثّل دور رجلها، وهي على موعد غرامي كانت تحرص، على ما يبدو، على الوصول إليه: منتظرًا إيّاها عند بحيرة صغيرة وحيدة، مناديًا اسمها وهي تقترب، ليأخذ بعد ذلك من صُرَّته زجاجة الشمبانيا وفلوتين فضّيّين ويسير باتّجاهها.. لم يحظَ كلايف بعشيقة قطّ، ولا حتى بزوجة تحبّ النزهات سيرًا على الأقدام. وعندما جاءت سوزي مارسيلان، التوّاقة دومًا إلى كلّ ما هو جديد، إلى كاتسكيلز وإيّاه مرّة واحدة، تبيّن أنّها منفيّة ضعيفة من مانهاتن تتذمّر يوميًا على نحو هازل بسبب البعوض والبثور وقلّة سيّارات الأجرة.

عندما وصل إلى الطريق كانت المرأة قد سبقته في سيرها مسافة نصف ميل، واتّجهت يمينًا صوب آلن كراغز. توقّف كي يتركها تمضي في طريقها ويصبح الحقل الكبير الممتدّ على الأراضي المرتفعة ملكًا له. كان الشقّ في السماء آخذًا بالاتّساع، فيما عوَّض من ورائه على هضبة روزويت شعاع من ضوء انتشر فوق أجمة السرخس، شهرة اللون البنّي باللونين الصارخين الأحمر والأصفر. وضّبَ حاجيّاته الواقية من المطر وأكل تفّاحة وتأمّل في طريقه. إنّه مستعدّ الآن لتسلّق سكافيل بايك، الحقّ كان قد نفد صبره من أجل الانطلاق. وكان أسرع طريق للوصول إلى أعلى هو ذلك الممتدّ من إيسك هاوس، ولكنّه بعد أن ارتاح الآن فكّر في الاستمرار في طريقه نحو الشمال الغربي ليهبط بعدئذ إلى بحيرة سبرينكلينغ، ثم يهبط أكثر باتّجاه ستاي هيد مرّة أخرى ليرتقي

الطريق الطويل بمحاذاة كوريدور روت. وإذا ما وصل إلى غريت إند، وعاد إلى البيت من خلال الطريق الذي سلكه في صعوده، وهو طريق لاتغستراث، فسوف يصل الفندق بحلول الغسق.

وهكذا انطلق وهو يسير بتؤدة باتّجاه قمّة إيسك هاول العريضة والمثيرة، وهو يشعر أنّه لا يوجد أيّ اختلاف بدني كبير بينه وبين نفسه البالغة سنّ الثلاثين على أيّة حال. ولم يكن العصب هو الذي يريد إعادته إلى الخلق بل الروح. أمّا الآن فأضحت ساقاه قويّتين، الآن بعد أن راق مزاجه.

بعد أن سار بمحاذاة الندوب العريضة للتآكل الذي سبّبه المتنزّهون على أقدامهم، اتّجه الآن في درب دائري صوب السلسلة الممتدّة أمامه، وكما كان يحدث عادة، فقد فكّر في حياته في ضوء رؤية جديدة، منعشًا نفسه بذكريات نجاحات صغيرة تحقّقت مؤخّرًا: إعادة صدور مقطوعة موسيقيّة أوركستراليّة قديمة على شكل قرص، إطراء لعمله في إحدى الصحف الصادرة يوم الأحد، والكلمة الحكيمة والتي لا تخلو من روح الدعابة التي ألقاها عندما سلَّم جائزة التأليف إلى تلميذ مدرسة مشدوه. فكّر كلايف في أعماله ككلّ متكامل، وفي أنّها تبدو متنوّعة وثريّة كلّما استطاع أن يرفع رأسه والنظر إليها نظرة عن بعد وأنّها تمثّل، مجرّدةً، مجمل تاريخ حياته. وهناك المزيد الذي لا يزال أمامه كي ينجزه. لعلّه كان شديد القسوة على فيرنون الذي لم يكن يسعى إلاّ إلى إنقاذ صحيفته وحماية البلد من سياسات غارموني المتشدّدة. سوف يتّصل هاتفيًّا بفيرنون في هذا المساء لأنّ صداقتهما أهمّ من أن تضيع

بسبب خصام وحيد، وأنّهما يستطيعان على وجه التوكيد أن يتّفقا، على الاختلاف والاستمرار في صداقتهما.

أوصلته هذه الأفكار اللطيفة أخيرًا إلى السلسلة التي مكّنته من أن يرى مشهد المنحدر الطويل المؤدّي إلى ستاي هيد، لكنّ الشيء الذي رآه جعله يطلق صرخة تنمّ عن الانزعاج. فعلى امتداد أكثر من ميل تنيره نقاط متألّقة من مصابيح برتقاليّة وزرقاء وخضراء كانت هناك جماعة من المتنزّهين قوامهم تلاميذ مدرسة ربّما يصل عددهم إلى مائة وهم يهبطون صفًّا واحدًا نحو البحيرة. وقد يتطلّب منه ساعة من الوقت في الأقلّ كي يتجاوزهم. وعلى الفور تحوّل المشهد الطبيعي وبات مألوفًا ومختزلاً إلى بقعة جميلة تطأها الأقدام، ولم يمنح نفسه الوقت للتفكير في موضوعات قديمة خاصّة به ـ البلاهة والتلوّث المرئي للسترات القصيرة علامة داي ـ غلو، أو السبب الذي يدفع الناس إلى الخروج في مثل هذه الجماعات الكبيرة العدد ـ فانعطف إلى جهة اليمين نحو آلن كراغز. وفي اللحظة التي توارت فيها المجموعة عن الأنظار عاد إلى مزاجه الرائق، وقرّر أن يوفّر على نفسه ارتقاء سكافيل بايك الذي يستدعي منه طاقة كبيرة ويعود بدلاً من ذلك أدراجه صوب سلسلة التلال ويتّجه إلى هضبة ثورنيثويت ومنها إلى الوادي.

بدا له بعد دقائق معدودة أنّه واقف على قمّة جرف، ملتقطًا أنفاسه ومهنّئًا نفسه للتغيير الذي أحدثه في الخطّة. امتدّ أمامه درب للمشاة وصفه وينرايت في كتابه (الهضاب الجنوبيّة) بأنّه «غاية في الإمتاع». كان الدرب يرتفع وينخفض بمحاذاة بحيرات صغيرة

ويمتدّ من فوق مستنقعات وصخور بارزة وسهول صخريّة منبسطة حتى يصل إلى قمم غلارامارا. هذا هو الأمل الذي طمأنه قبل أسبوع عندما استسلم للنعاس.

كان قد مضى على سيره ربع ساعة وبدأ توًّا يرتقي منحدرًا ينتهي بقطعة صخريّة مائلة عظيمة مزركشة عندما شعر أخيرًا بما كان يأمل حدوثه: لقد ابتهج بوحدته، وبات سعيدًا جسديًّا، لكنّ عقله كان في مكان آخر عندما سمع الموسيقى التي كان يبحث عنها أو في الأقلّ سمع مفتاحًا لشكلها.

جاءت هديّة. حلّق طائر ضخم رمادي اللون عاليًا، مطلقًا تحذيرًا مخيفًا مدوّيًا وهو يقترب. وفيما هو يرتفع أكثر فأكثر ويبتعد صوب أعالي الوادي أطلق صوتًا حادًّا على ثلاث نوتات، فأدرك أنّها ليست سوى سطر مقلوب سبق له أن وضعه للفلوت الصغير. يا لروعته، يا لبساطته. ولمّا قلب التسلسل تفتّقت له فكرة أغنية بسيطة وجميلة في زمن اعتيادي في وسعه أن يسمعها إلى حدّ ما، ولكن ليس تمامًا. تراءت له صورة تمثّل مجموعة من العتبات المنفتحة، المرتفعة والمنحدرة ـ من باب أفقي في علّيّة أو من باب مصنوع من لوح خفيف. كانت نوتة واحدة مؤجّلة وتوحي بالثانية. سمعها، وباتت لديه، لكنّها اختفت. ثمّة ألق لصورة دنت ثم ابتعدت، ولنداء يتلاشى للحنٍ صغير وحزين، كان هذا الانسجام المتزامن عذابًا، وكانت هذه النوتات تعتمد إحداها على الأخرى، مفاصل صغيرة برّاقة تؤرجح اللحن خلال مسارها القوسي المتكامل. في وسعه أن يسمعها مرّة أخرى عندما وصل قمّة البلاطة الصخريّة

الجانبيّة، وتوقّف ليمدّ يده في جيبه بحثًا عن دفتر ملاحظاته وقلمه الرصاص. لم يكن اللحن حزينًا كلّه، إذْ كان ينطوي على بهجة أيضًا، وإرادة متفائلة رغم كلّ شيء. شجاعة.

بدأ يكتب بعجالة المقاطع التي كان قد سمعها مؤمّلاً في إرغام بقيّة المقطع على الولادة عندما تنبّه لصوت آخر، لا هو متخيَّل، ولا هو نداء طير، بل هو همس خفيض. كان منكبًّا الانكباب كلّه حتى إنّه قاوم إغراء رفع بصره إلى أعلى، لكنّه لم يستطع منع نفسه. ولمّا نظر من فوق البلاطة البارزة والمرتفعة ثلاثين قدمًا وجد نفسه ينظر إلى أسفل صوب بحيرة صغيرة لا يزيد حجمها عن بركة ماء كبيرة، وشاهد المرأة ذات الثياب الزرق التي سبق له أن شاهدها مسرعة في سيرها وقد انتصبت فوق العشب الذي يُحيط بالبحيرة من جهتها البعيدة، ووقف قبالتها رجل يتكلّم بنبرة رتيبة متواصلة وخفيضة، ولم تكن ثيابه لتدلّ على أنّه عازم على التنزّه في الريف. كان وجهه طويلاً ونحيفًا، يشبه خطم حيوان ما. وكان يرتدي سترة قديمة من قماش التويد وبنطالاً رماديًّا من قماش الفلانيلة ويعتمر قبّعة مسطّحة من القماش، في حين لفَّ عنقه بقطعة قماش بيضاء قذرة، لعلّه فلّاح من أحد التلول أو صديق احتقر السير على القدمين واحتقر كلّ المعدّات وصعد للقائها. إنّه اللقاء الغرامي الذي تخيّله كلايف.

المفاجأة الواضحة هي أنّ هذين الشخصين الحيويّين وسط الصخور جاءا إلى هنا لمصلحته هو لا غير. كانا أشبه بممثّلين يستهلّان لوحة يُفترض به أنِ يعرف معناها، كأنّهما ليسا جادّين

تمامًا، بل يتظاهران حسب بأنّهما لا يعرفان أنّه يراقبهما. ومهما كان شأنهما، فإنّ فكرة كلايف الأولى كانت واضحة وضوح علامة ضوئيّة تقول: إنّني لست هنا.

انحنى وواصل كتابة نوتاته. لو كان في وسعه تدوين العناصر المعروفة على الورقة الآن فسوف يتمكّن بهدوء من الانتقال من مكانه إلى مكان آخر على امتداد السلسلة والاشتغال على بقيّة النوتات. تجاهل صوت المرأة عندما سمعه. كان يصعب فهم ما كان قد بدا شديد الوضوح قبل دقيقة واحدة. غاص لبرهة وجيزة ثم استعاده ثانية، استعاد تلك النوعيّة الخفيّة التي كانت واضحة أمامه من قبل، والمراوغة في اللحظة التي استرخى فيها انتباهه. كان يشطب النوتات بالسرعة نفسها التي كان يدوّنها فيها، لكنّه عندما سمع صوت المرأة يرتفع إلى مستوى الصياح تجمّدت يده.

كان يعرف أنّها غلطة، وكان يعرف أنّه كان يتعيّن عليه أن يواصل الكتابة، لكنّه تلصّص مُجدّدًا من فوق الصخرة فوجد المرأة قد استدارت وباتت الآن قبالة اتّجاه كلايف. خمَّن أنّها في أواخر الثلاثينيّات من عمرها. كانت سمراء ذات وجه صغير صبياني وشعر أسود مجعّد. إذًا كانت هي والرجل يعرف أحدهما الآخر لأنّهما كان يتجادلان جدال الأزواج على الأرجح. كانت قد حطّت صرَّتها على الأرض ووقفت وقفة تحدٍّ، متباعدة الساقين، تضع يديها فوق ردفيها ورأسها يميل قليلاً إلى الخلف. تقدّم الرجل خطوة واحدة نحوها وأمسك بها من ساعدها، لكنّها أبعدت يده إذْ حرَّكت ذراعها حركة قويّة إلى أسفل. ثم صاحت والتقطت صرَّتها وحاولت

أن تعلّقها على كتفها، لكنّه كان قد أمسك بالصرّة بدوره وبدأ يجذبها نحوه. تشاجرا لبضع ثوانٍ وأخذ كلّ واحد منهما يجذب الصرّة ذات اليمين وذات الشمال حتى أفلح الرجل في الحصول عليها، وبحركة واحدة تنمّ عن ازدراء، بهزّة واحدة من رسغه، ألقى بها في البحيرة حيث نطّت وغمرها الماء إلى النصف قبل أن تغرق ببطء.

خطت المرأة خطوتين سريعتين إلى الماء، لكنّها غيَّرت رأيها. وبعد أن استدارت بذل الرجل محاولة أخرى ليمسك بذراعها. كانا طوال هذا الوقت يتكلّمان ويتجادلان، لكن صوت جدالهما لم يصل إلى كلايف إلاّ على نحو متقطّع. استلقى فوق البلاطة المائلة وقلم الرصاص بين أصابعه ودفتر الملاحظات في يده الأخرى، وتنهّد. أتراه سيتدخّل حقًّا؟ تخيّل نفسه وقد هرع إلى أسفل ووصل إليهما في الوقت الذي تعدّدت فيه الاحتمالات: فالرجل ربّما سيهرب، أمّا المرأة فربّما ستكون ممتنّة وفي وسعهما أن يهبطا نحو الطريق الرئيس قرب سيتولر. لكن حتى هذه النتائج الأقلّ احتمالاً سوف تدمّر إلهامه الهشّ. الأرجح أن يوجّه الرجل عدوانيّته صوب كلايف في حين تنظر إليه المرأة بلا حول ولا قوّة، أو ربّما راضية، لأنّ هذا الأمر محتمل أيضًا. ربّما هما مرتبطان ارتباطًا وثيقًا، وربّما ينقلبان ضدّه إذْ سيعدّان عمله تدخّلاً.

صرخت المرأة مجدّدًا فأغمض كلايف عينيه وهو مستلقٍ على الصخرة. شيء ثمين، جوهرة صغيرة تتدحرج بعيدًا عنه. ثمّة احتمال آخر. فبدلاً من أن يصعد إلى هذا المكان قرّر أن يهبط إلى

ستاي هيد ويجتاز تلاميذ المدرسة، ثم يتّجه إلى طريق كوريدور في أعلى سكافيل بايك. وبعدها سيأخذ كلّ ما يحدث هنا مجراه. قدرهما قدره. الجوهرة، اللحن. لقد ضغط زخمها عليه، وكان كلّ شيء يعتمد عليها. السيمفونيّة، الاحتفال، سمعته وأنشودة القرن البكائيّة «قصيدة إلى الفرح» لم يشكّ في أنّ ما سمعه إلى حدّ ما يمكن أن يتحمّل الثقل. ففي بساطته تكمن كلّ سلطة منجز حياته.

كما لم يداخله الشكّ أيضًا في أنّ تلك لم تكن قطعة موسيقيّة تنتظر من يكتشفها بكلّ بساطة. إنّ ما كان يفعله حتى لحظة الانقطاع هو خلقها، تشكيلها من خلال نداء الطائر، مستفيدًا من الاستسلام اليقظ لعقل مبدع مشغول. الواضح الآن هو ضغط الخيار: وعليه إمّا الهبوط إلى أسفل وحماية المرأة إن كانت تحتاج إلى حماية، أو أن يزحف بعيدًا صوب جهة غلاراmara كي يجد ملاذًا للاستمرار في عمله ـ إن لم يكن قد ضاع أصلاً. فهو لم يعد في مستطاعه البقاء هنا بلا عمل.

فتح عينيه لدى سماعه صوتًا غاضبًا وجذب نفسه إلى أعلى ليلقي نظرة أخرى. كان الرجل قد أمسك برسغ المرأة وبدأ يحاول جذبها من حول البحيرة والاتّجاه نحو مقدّمة الصخرة الكائنة من تحت كلايف مباشرة. كانت تتشبّث بالأرض مستخدمة يدها الثانية ربّما بحثًا عن صخرة تستخدمها سلاحًا، لكن ذلك سهَّل عليه محاولة جذبها على امتداد الطريق. أمّا صرَّتها فقد توارت عن الأنظار، وكان في أثناء ذلك كلّه يتكلّم معها، لكنّ صوته انخفض مجدّدًا ليغدو رتيبًا ومستمرًّا ومفتقرًا إلى الوضوح. وفجأة ندَّ عنها صوت ينمّ عن توسّل يصحبه نشيج، فأدرك كلايف تمامًا ما الذي

يتعيّن عليه أن يفعله. وفهم أنّه حتى في تخفيف سرعته وهو يهبط المنحدر فإنّ تردّده كان زائفًا. لقد قرّر في اللحظة نفسها التي قوطع فيها.

ولمّا وصل الأرض المستوية حثّ خطاه عائدًا على امتداد الطريق الذي جاء منه، ثم هبط نحو الجانب الغربي من سلسلة التلال متّخذًا طريقًا جانبيًّا نصف دائري. وبعد مضيّ عشرين دقيقة وجد صخرة مسطّحة تُستخدم لتكون منضدة فوقف محنيّ الظهر من فوق كتاباته الرديئة الخطّ. لم يعد هناك أيّ شيء الآن تقريبًا. حاول أن يستعيدها، لكنّ تركيزه تشتّت بفعل صوت آخر ـ الصوت الداخلي الملحّ لتبرير الذات: بصرف النظر عمّا يتضمّنه ـ العنف أو التهديد بالعنف أو اعتذاراته المرتبكة أو بلاغ إلى الشرطة في نهاية المطاف ـ لو أنّه اقترب من الشخصين فإنّ لحظة محوريّة من حياته المهنيّة سوف تتحطّم، إذْ ما من شأن اللحن أن يعيش بعد الاضطراب النفسي. وفي ضوء عرض السلسلة والممرّات الكثيرة التي تكتنفها، كان من السهل جدًّا عليه أن يفقد أثرهما. كأنّه لم يكن هناك. ليس هناك. بل في موسيقاه. قدره، قدرهما، طريقان منفصلان. لم يكن ذلك شأنه. أمّا هذا فهو شأنه، وهو ليس سهلاً، ولا يطلب مساعدة من أيّ شخص.

تمكّن أخيرًا من تهدئة نفسه وبدأ طريق العودة. ها هي النوتات الثلاث لنداء الطير، وها هي قد انعكست في الفلوت الصغير، وها هي بداية الخطوات المتداخلة والمتّسعة...

مكث في محلّه زهاء الساعة، منكبًّا فوق كتابه حتى وضع

أخيرًا دفتر الملاحظات في جيبه وسار بخطوات سريعة محاذيًا طوال الوقت الجانب الغربي من السلسلة حتى هبط أخيرًا إلى الهضاب.

استغرق سيره ثلاث ساعات حتى وصل الفندق، وما إن وصله حتى انهمر المطر مُجدّدًا، وكان ذلك سببًا آخر يدعوه إلى إلغاء بقيّة مدّة إقامته وتوضيب حقيبته، والطلب من النادلة كي تستدعي له سيّارة أجرة. لقد حصل على بغيته من منطقة البحيرات. في وسعه أن يعمل مرّة أخرى في القطار وعندما يصل البيت سيأخذ هذه المجموعة السامية من النوتات والتناغم اللطيف الذي كتبه إلى البيانو ويطلق جمالها وحزنها.

المؤكّد أنّ الانفعال الخلّاق هو الذي جعله يذرع مشرب الفندق الضيّق جيئة وذهابًا منتظرًا سيّارة الأجرة، حتى توقّف ونظر إلى الثعلب المحنّط الجاثم في نباتاته الدائمة الخضرة. لقد كان الانفعال هو الذي دفعه إلى الخروج صوب الطريق مرّتين ليرى إن كانت سيّارته قد وصلت. كان متلهّفًا إلى مغادرة الوادي. وعندما أُعلن عن وصول سيّارة الأجرة الخاصّة به، أسرع بالخروج ورمى بحقيبته فوق المقعد الخلفي وطلب من السائق أن يسرع. أراد الابتعاد، وشعر بالحنين إلى أن يستقلّ القطار المنطلق جنوبًا بعيدًا عن البحيرات. أراد أن تظلّ المدينة مجهولة مرّة أخرى، وأراد أن يكون أسير الاستديو الخاصّ به و ـ كان يفكّر في هذا تفكيرًا دقيقًا ـ المؤكّد أنّ الحماس لا الخجل هو الذي جعله يتحسّس هذا الطريق.

الفصل الرابع

(١)

استيقظت روز غارموني في الساعة السادسة والنصف، وقبل أن تفتح عينيها كانت أسماء الأطفال الثلاثة في ذهنها، على حافّة ذهنها: ليونورا وجون وكاندي. انسلّت بهدوء من الفراش وهي تحرص على أن لا توقظ زوجها وأخذت مبذل نومها. كان آخر شيء فعلته في الليل هو أنّها قرأت النوتات مجدّدًا، والتقت والدي كاندي عصرًا. أمّا القضيّتان الأخريان فكانتا عاديّتين: فحص الشُعَب الهوائيّة إثر استنشاق الفول السوداني وإدخال مصرف لإخراج الجراحات الرئويّة. كانت كاندي فتاة صغيرة هادئة من الهند الغربيّة عقصت شعرها إلى الخلف وربطته لها أمّها بشريط خلال الأيّام الرتيبة الموحشة لمرض طويل. كانت عمليّة القلب المفتوح تستغرق ثلاث ساعات في الأقلّ، وربّما خمس ساعات دون أن تكون النتيجة مضمونة. كان الأب يدير محلّ بقالة في حيّ بركستون قد أحضر معه إلى الاجتماع سلّة من فاكهة الأناناس والمانجا والعنب ـ استرضاءً لسلطان السكن الوحشي.

ملأت رائحة هذه الفاكهة المطبخ الآن عندما دخلت السيّدة غارموني حافية القدمين كي تملأ غلاّية الماء. وأثناء غليان الماء اجتازت ممرّ الشقّة الضيّق وذهبت إلى مكتبها وملأت حقيبتها وتوقّفت لتلقي نظرة إلى النوتات مجدّدًا. ردّت على نداء سابق من رئيس الحزب، ثم دوَّنت ملاحظة لابنها البالغ الذي كان مستغرقًا في النوم في غرفة الضيوف لتعود بعد ذلك إلى المطبخ لإعداد الشاي. حملت كوبها إلى شبّاك المطبخ وألقت نظرة من خلال النافذة إلى الشارع دون أن تحرّك الستارة المخرَّمة. عدَّت ثمانية منهم على رصيف شارع لورد نورث وكان عددهم ازداد بمقدار ثلاثة عمّا كانوا عليه في الوقت نفسه من يوم أمس، ولكن لم يكن هناك ما يشير إلى وجود آلات التصوير التلفازيّة ولا رجال الشرطة الذين وعد بهم وزير الداخليّة نفسه. كان ينبغي لها أن تجعل جوليان في فندق كارلتون غاردنز بدلاً من البقاء هنا في شقّتها العتيقة. يفترض بهم، هؤلاء الناس، أن يكونوا متنافسين، ولكنّهم وقفوا ضمن جماعات مفكّكة يتجاذبون أطراف الحديث، كأنّهم رجال خارج حانة في أمسية من أمسيات الصيف. وكان أحدهم جاثيًا فوق الأرض وهو يربط شيئًا ما بعمود من الألمنيوم. ثم وقف وبدأ يراقب النوافذ التي بدا له أنّه شاهدها. أطالت النظر دون أن تبدو عليها أيّة تعابير عندما تقدّمت آلة تصوير نحوها، استوت تقريبًا بمستوى وجهها، تراجعت إلى الخلف بعيدًا عن النافذة وارتقت السلالم إلى الطابق العلوي لارتداء ثيابها.

بعد انقضاء ربع ساعة، اختلست نظرة أخرى ولكن من خلال نافذة غرفة الجلوس هذه المرّة على ارتفاع طابقين آخرين. وداخلها

إحساس يشابه تمامًا الإحساس الذي كانت تحبّ أن تشعر به قبل يوم عصيب في مستشفى الأطفال: هادئة ويقظة وتوّاقة من أجل البدء بعمل ما. ما من ضيوف في الليلة السابقة وما من نبيذ وقت العشاء، وساعة بصحبة النوتات وسبع ساعات متواصلة من النوم. لن تسمح لأيّ شيء أن يُنهي هذه الحالة، لهذا حدّقت إلى أسفل صوب المجموعة ـ التي بات عدد أفرادها الآن تسعة ـ بدهشة مكبوتة. كان الرجل قد أسقط عموده القابل للمدّ وأسنده إلى السور الحديد. وجاء آخر بصينيّة عليها أقداح قهوة من دكّان يقع في شارع هورس فيري رود. ما الذي يمكنهم أن يتمنّوا الحصول عليه ولم يحصلوا عليه من قبل؟

كان الوقت مبكرًا من ذلك الصباح. ما نوع الرضا الذي يمكنهم أن يحصلوا عليه من مثل هذا النمط من العمل؟ ثم ما السبب الذي يجعلهم يبدون بهذه الدرجة من التشابه وهم يجلسون على درجة الباب كأنّهم سُحبوا من بركة جينات إنسانيّة؟ رجال ذوو وجوه ضخمة وألغاد، يتحلّون بالجرأة ويرتدون سترات جلديّة ويتكلّمون بلكنة متشابهة هي مزيج غريب من عاميّة لندن (الكونكي) المزيّفة ولكنة الطبقة الراقية المصطنعة، ينطقون بها بصوت متماثل يشي بالمحاجّة والعدوانيّة. من هنا يا سيّدة غارموني! روز!

بعد أن ارتدت كامل ثيابها واستعدّت للخروج، حملت شايه وصحف الصباح واتّجهت صوب الغرفة المعتمة. تردّدت عند قدم السرير. كانت أيّامه تافهة مؤخّرًا ولم ترغب في أن توقظه ليمضي يومًا آخر. كان قد جيء به بالسيّارة ليلة أمس من ويلتشاير، ثم

علمت أنّه بقي يحتسي الويسكي حتى ساعة متأخّرة من الليل وهو يشاهد شريط برغمان الفلوت السحري. وبعد ذلك أخرج جميع رسائل مولي لين، الرسائل التي أطلقت العنان على نحو غبي كلّ حنينه الغريب. الحمد لله. لقد انقضت كلّ تلك الفترة. الحمد لله، لقد وافت المنيّة تلك المرأة.

كانت الرسائل لا تزال مبسوطة فوق السجّادة وعليه أن يخفيها قبل وصول عاملة التنظيف. كان أعلى رأسه وحده باديًا من فوق الوسادة. هو في الثانية والخمسين ولكن شعره لا يزال أسود اللون. نقشه برفق. في بعض الأحيان، يمكن أن توقظ ممرّضة طفلها بهذا الأسلوب، وغالبًا ما كانت روز تتأثّر بتلك الثواني التي يكتنفها الاضطراب في عيني صبي صغير وهو يدرك أنّه ليس في بيته وأنّ اللمسة ليست لمسة أمّه.

همست:

ـ يا عزيزتي.

سأل بصوت مكتوم بفعل الشتاء:

ـ هل هم هناك في الخارج.

ـ تسعة لا غير.

ـ تبًّا!

ـ لا بدّ لي من الهروب وسأتّصل بك. خذ هذا.

أزاح غطاء السرير عن وجهه واعتدل في جلسته وقال:

ـ نعم. الطفلة الصغيرة. كاندي ليحالفك التوفيق.

قبّل أحدهما الآخر قبلة خفيفة على الشفتين في الوقت الذي وضعت الكوب في يديه، ثم ألقت بيديها على وجنتيه وذكّرته بالرسائل المطروحة على الأرض، وانصرفت بهدوء وهبطت السلالم للاتّصال بسكرتيرها في المستشفى. وفي الردهة ارتدت معطفًا صوفيًا سميكًا وألقت نظرة فاحصة على شكلها في المرآة وكادت أن ترفع حقيبتها ومفاتيحها ووشاحها لولا أن غيَّرت من رأيها وارتقت السلالم مرّة أخرى. وجدته كما خمّنت، مستلقيًا على ظهره وقد بسط ذراعيه إلى الجانبين، مستسلمًا للنعاس، والشاي آخذ بالبرودة قرب كومة من المذكّرات الرسميّة. لم يكن لديه وقت في الأسبوع الماضي عندما حدثت الأزمة لنشر الصور في عدد يوم غد الجمعة، بل لم تكن هناك لحظة واحدة تمكّنت أو أرادت فيها مناقشة قضاياها وإيّاه، وعلى رغم أنّها كانت تعلم أنّ تذكّر الأسماء مهارة رجل مخضرم إلاّ أنّها تأثّرت كثيرًا عندما بذل محاولته. نقرت على يده وهمست:

ـ يا جوليان.

قال دون أن يفتح عينيه:

ـ آه يا الله. الاجتماع الأوّل في الساعة الثامنة والنصف، ينبغي لي أن أسير وسط الأفاعي.

تكلّمت بالصوت الذي اعتادت أن تهدّئ به من روع الآباء القلقين، وهو صوت هادئ وبطيء وبهيج وغير رزين:

ـ سيكون كلّ شيء على ما يرام، على ما يرام تمامًا.

ابتسم لها دون أن يقتنع بكلامها، فما كان منها إلاّ أن انحنت من فوقه وهمست في أذنه:

ـ ثق بي.

وفي الطابق السفلي تفحّصت هيئتها مرّة أخرى أمام المرآة وزرّت معطفها بإحكام، ورتّبت وضع الوشاح بحيث أخفى نصف وجهها، وحملت حقيبتها وخرجت من الشقّة، لكنّها توقّفت في الردهة ويدها تمسك بمقبض الباب الأمامي وهي توشك أن تفتحه وتندفع إلى سيّارتها.

ـ آه يا روزي! من هنا. يبدو عليك الحزن الآن. من فضلك يا سيّدة غارموني.

* * *

(٢)

في الوقت نفسه، وعلى بعد ثلاثة أميال إلى جهة الغرب، كان فيرنون هاليداي يستيقظ ثم يعود إلى أحلام الهروب أو ذكريات هروب أنعشها شكلها الحلمي، ذكريات حلم بالهروب على امتداد دهاليز مفروشة بسجّاد أحمر يعلوه الغبار، باتّجاه غرفة اجتماع مجلس الإدارة، وكان متأخّرًا، متأخّرًا مجدّدًا، متأخّرًا إلى الحدّ الذي يبعث على الاحتقان الواضح، هاربًا من الاجتماع السابق إلى الاجتماع الراهن، ولا تزال أمامه سبعة اجتماعات أخرى قبل حلول طعام الغداء، ماشيًا إلى الخارج وراكضًا إلى الداخل، على امتداد الأسبوع كلّه، مُفسّرًا المناقشات أمام النحويّين الغاضبين ثم أمام مجلس إدارة صحيفة ذا جادج المتشكّك، وملاكه القائم على الإنتاج، ومحاميه وأمام نفسه ثم أمام أصحاب جورج لين ومجلس الصحافة وجمهور التلفاز المباشر، وعدد لا يُحصى من محطّات الإذاعة التي لا يمكن تذكّرها. أعلن فيرنون عن اهتمامه العامّ بنشر الصور تمامًا مثلما أعلن لكلايف، وإن على نحو دمث، مفصّلاً

وبسرعة أكبر وبتوضيح وإلحاح وأمثلة أكثر عددًا، ومع خرائط ملوّنة وصور بيانيّة وحوادث سابقة. لكنّه غالبًا ما كان يعدو، يشقّ طريقه متلوّيًا وعلى نحو خطر باتّجاه سيّارات الأجرة ليعبر شوارع مزدحمة ثم يترجّل من سيّارات الأجرة ليعبر صوب ردهات رخاميّة، ويدلف إلى المصاعد، ليخرج منها بعد ذلك ويسير على امتداد دهاليز مائلة يرتقيها فتبطئ من سرعته فيتأخّر. استيقظ بعد هنيهة ولاحظ أنّ زوجته ماندي قد غادرت الفراش، فأغمض عينيه وعاد مرّة أخرى ليرفع حقيبته عاليًا وهو يخوض في الماء، أو الدم، أو الدموع الجارية من فوق سجّادة حمراء اللون تأخذه إلى مُدَرَّج فيرتقي منصّة ليدافع عن قضيّته، في حين أحاط به من كلّ جانب صمت مطبق تسامق مثل الشجر الأحمر. وفي لُجَّة العتمة بانت عشرات العيون التي تجول ببصرها بعيدًا، وثمّة شخص ما يبتعد عنه نحو الجهة الأخرى من نشارة خشب الميدان بدا كأنّه مولي، لكنّ الشخص لم يردّ عليه عندما ناداه.

أخيرًا استيقظ تمامًا وسط أصوات الصباح الهادئة وأناشيد الطيور وصوت المذياع البعيد في المطبخ وصوت إغلاق باب خزانة ثياب غلقًا هادئًا. دفع عنه الدثارات واضطجع عاريًا على ظهره وهو يشعر بهواء التدفئة المركزيّة الدافئ يجفّف رطوبة صدره. كانت أحلامه مزيجًا متناثرًا من أسبوعه، وتعليقًا عادلاً على إيقاعه ومتطلّباته العاطفيّة مع حذف خطّة اللعب والأساس المنطقي الذي أبقاه سليم العقل والتعصّب الموالي الذي لا ينمّ عن أيّ تأثير للّاوعي. غدًا الجمعة يوم النشر مع إرجاء صورة واحدة ليوم الاثنين لإبقاء الموضوع حيًّا وهو الموضوع الذي كان يضطرم بالحياة وله

سيقان ترفس بل ويركض أسرع من فيرنون. ظلّت صحيفة ذا جادج على مدى أيّام، ومنذ رُفع الأمر القضائي، تتابع نشر قصّة غارموني فتلطّف وتهذّب من حبّ استطلاع عامّة الناس حتى أصبحت صور لم يرها أحد من قبل أيقونة في الثقافة السياسيّة بدءًا بالبرلمان وانتهاء بالحانة، ومادّة للنقاش العامّ، وموضوعًا لم يستطع أيّ لاعب أساس أن يكون بلا رأي فيه. وغطّت الصحيفة معارك المحكمة والدعم البارد لزملاء الحكومة الأخويّة، واهتياج رئيس الوزراء، و«القلق العميق» لشخصيّات المعارضة الرئيسة وتأمّلات العظام والأخيار. وفتحت الجريدة صفحاتها لمقالات تشجب النشر ورعت مناظرة بشأن الحاجة إلى قانون يحمي الخصوصيّة.

وعلى رغم الأصوات المعارضة فقد برز إجماع كبير على أنّ ذا جادج كانت جريدة مرموقة ومناضلة، وأنّ الحكومة بقيت على سدّة الحكم أطول ممّا ينبغي، وأنّها فاسدة ماليًّا وأخلاقيًّا وجنسيًّا، وأنّ جوليان غارموني نموذج حقيقي لها وأنّه إنسان خسيس، وأنّ هناك ضرورة عاجلة لتقديم رأسه على طبق. وفي غضون أسبوع واحد قفزت المبيعات بمقدار مائة ألف نسخة، ووجد رئيس التحرير أنّ قدامى محرّريه يحثّونه على الصمت بدلاً من الاحتجاج، وكانوا كلّهم يريدون سرًّا أن يمضي قُدمًا طالما أنّ احتجاجهم المبدئي كان قد دُوِّن. كان فيرنون يكسب الجدال لأنّ الجميع، بمن فيهم الصحافيّون الوضيعون، يرون الآن أنّ في وسعهم أن يحقّقوا شيئين، هما إنقاذ صحيفتهم وإبقاء ضمائرهم صافية.

تمطّى وارتجف وتثاءب. لا تزال هناك خمس وسبعون دقيقة

قبل بدء الاجتماع الأوّل، وعمّا قريب سوف ينهض ويحلق ذقنه ويستحمّ، لكن ليس الآن إذْ إنّه لا يزال يتشبّث باللحظة الهادئة الوحيدة لذلك اليوم. وكانت في ذهنه مثل سحب الصيف البعيدة أفكار جنسيّة غامضة، بسبب عريه فوق الملاءة ودغدغة كاحله باللحاف ومرأى أعضائه التناسليّة التي لم يخفها وهو في هذه السنّ إخفاءً تامًا كبر حجم معدته. غير أنّ ماندي توشك أن تمضي إلى عملها، وإنّ أحدث أصدقائه دانا، الذي يشتغل في مجلس العموم، كان مسافرًا خارج البلاد حتى يوم الثلاثاء. انقلب على جنبه وفكّر في ممارسة العادة السريّة إذْ قد تنفعه في صفاء ذهنه استعدادًا لما ينتظره من عمل. بذل محاولة صغيرة ولكنّه تخلّى عن الفكرة. بدا في هذه الأيّام مفتقرًا إلى الحماس والوضوح أو فراغ الذهن، وبدت العمليّة وقد عفّى عليها الزمن وغير محتملة مثل محاولة إشعال نار بفرك عودين أحدهما بالآخر.

زد على ذلك، كانت هناك في حياة فيرنون مؤخّرًا أشياء كثيرة تستدعي التفكير، أشياء كثيرة من العالم الواقعي التي تخلق الإثارة، والتي لا تكاد إلاّ الفنتازيا وحدها أن تنافسها. ما قاله وما سيقوله وكيف انهارت، والخطوة التالية وعواقب النجاح... في زخم الأسبوع المتراكم، كشفت كلّ ساعة عمليًا لفيرنون مظاهر جديدة من قواه وقدراته، وبدأت مواهبه في الإقناع وخططه تؤتي ثمارها، وراوده إحساس بالفخر والعذوبة، وربّما بقدر من الفظاظة أيضًا، ولكن بالطيبة في نهاية المقام، وبالمقدرة على الوقوف بمفرده ضدّ التيّار ينظر من فوق رؤوس معاصريه مدركًا أنّه يوشك أن يرسم قدر بلاده وأنّه يستطيع تحمّل المسؤوليّة، بل أكثر من التحمّل. كان

بحاجة إلى هذا الثقل، مواهبه كانت بحاجة إلى هذا الثقل التي لا يمكن لأحد سواه أن ينوء به. من غيره كان في وسعه أن يتحرّك تحرّكًا حاسمًا عندما ذهب جورج بعد أن أخفى هويّته من وراء وكيل إلى السوق الشعبي حاملاً الصور؟ لقد تقدّمت ثماني صحف أخرى بعطاءات فاضطرّ فيرنون إلى مضاعفة الثمن الأصلي أربعة أضعاف كي يكسب الصفقة. بدا غريبًا له الآن أنّ خدرًا اجتاحه منذ وقت غير طويل في رأسه، وإحساسًا بالغياب عن الوجود، ممّا أشعل فيه مخاوف الجنون والموت. لقد أثارت جنازة مولي أعصابه. وها هو الهدف يثيره الآن، وهو منهمك فيه حتى أطراف أنامله. الموضوع حيّ، وهو حيّ أيضًا.

لكنّ قضيّة واحدة عديمة الشأن حرمته من السعادة الكاملة: كلايف. طالما خاطبه في ذهنه على هذا النحو في أغلب الأحيان، فأثار من حدّة المناقشات وأضاف كلّ الأشياء التي كان ينبغي له أن يقولها في تلك الليلة، والتي كان في وسعه أن يقنع نفسه إلى حدّ كبير بأنّه كان يكسب صديقه القديم إلى جانبه، تمامًا مثلما كان ينتصر على الديناصورات في مجلس الإدارة. لكنّهما لم يتحدّثا منذ شجارهما، وكان فيرنون أكثر قلقًا مع اقتراب يوم النشر. أكان كلايف منغمسًا في التفكير، غاضبًا، أم كان رهن محترفه مُنهمكًا في العمل وناسيًا القضايا العامّة؟ وفكّر فيرنون مرّات ومرّات إبّان الأسبوع بانتهاز دقيقة واحدة والاتّصال به هاتفيًا. لكنّه قلق إذْ إنّ من شأن هجوم جديد يشنّه عليه كلايف أن يزعجه في الاجتماعات المقبلة. وهنا حدّق فيرنون بالهاتف على منضدة السرير الجانبيّة، ومن وراء مجموعة من الوسائد، ووثب وثبة واحدة. لا ينبغي

للرويَّة أن تجعله جبانًا مجدّدًا. لا بدّ له من إنقاذ هذه الصداقة، وأنّ أفضل وقت للقيام بذلك هو عندما يكون هادئًا. سمع نغمة الرنين عندما لاحظ أنّ الوقت هو الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة عشرة، وهو وقت مبكر أكثر ممّا ينبغي. المؤكّد أنّ شيئًا ما في الأصوات المنبعثة عند التقاط كلايف سمّاعة الهاتف أشار إلى ما يشبه الشلل النصفي الذي يسبّبه نوم قلق.

ـ كلايف؟ إنّني فيرنون.

ـ ماذا؟

ـ فيرنون. لقد أيقظتك. آسف...

ـ لا، لا، لا أبدًا. إنّني واقف هنا حسب، وأفكّر... تناهت إلى السمع أصوات الملاءات من خلال سمّاعة الهاتف عندما أعاد كلايف ترتيب وضعه في السرير. لماذا نكذب غالبًا بشأن النوم عند الاتّصال الهاتفي؟ هل ترانا ندافع عن ضعفنا. وعندما تكلّم مجدّدًا لم يكن صوته أجشّ.

ـ كنت أودّ الاتّصال بك هاتفيًا ولكن لديّ تمارين في الأسبوع المقبل في أمستردام. إنّني أفهمك في العمل تمامًا.

قال فيرنون:

ـ وأنا كذلك. لم تكن لديّ دقيقة واحدة من الفراغ في هذا الأسبوع. اسمع! أريد أن أتحدّث إليك بشأن تلك الصور.

ران صمت قصير.

ـ آه، نعم. تلك. أعتقد أنّك ماضٍ في خططك.

ـ لقد جمعت أفكارًا كثيرة وتوصّلت إلى إجماع مفاده أنّنا ينبغي أن ننشرها يوم غد.

تنحنح كلايف قليلاً، وبدا منشرحًا حقًّا بذلك.

ـ حسنًا. لقد قلت كلمتي، وما علينا إلاّ أن نتّفق على الاختلاف.

قال فيرنون:

ـ لم أرغب في أن تكون موضع خلاف بيننا.

ـ لا، مؤكّدًا.

ثم انتقل الحديث إلى موضوعات أخرى، وقدّم فيرنون شرحًا عامًّا عن مجريات أسبوعه، في حين أخبره كلايف أنّه كان يعمل طوال الليالي وأنّه أحرز تقدّمًا عظيمًا في موضوع السيمفونيّة، وأنّ النزهة في منطقة البحيرات كانت فكرة عظيمة.

قال فيرنون:

ـ آه، نعم. كيف سارت الأمور؟

ـ لقد سرت حتى ذلك المكان الذي يسمّى آلن كراغز حيث حقّقت تقدّمًا حقيقيًا. لقد كان ذلك اللحن إلهامًا حقيقيًا...

في هذه اللحظة أدرك فيرنون رنّة الانتظار. رنّتان، ثلاث رنّات ثم توقّف الرنين. شخص من مكتبه. ربّما فرانك ديبين. لقد بدأ اليوم، آخر وأهمّ يوم. جلس عاريًا على حافّة السرير وجذب ساعته ليدقّق الوقت على الساعة المنبّهة. لم يكن كلايف غاضبًا منه، وذلك أمر حسن. أمّا الآن فينبغي له الذهاب.

ـ . . . لم يستطيعوا رؤيتي في المكان الذي كنت فيه وبدا ذلك عملاً سيِّئًا، ولكن كان لا بدّ لي من اتّخاذ قرار . . .

كان فيرنون يغمغم بعد كلّ نصف دقيقة أو زهاء ذلك. كان قد جذب سمّاعة الهاتف حتى آخر السلك المثبّت فيها ووقف على قدم واحدة، وحاول أن يمسك بلباس داخلي نظيف من بين كومة الثياب.

ـ وكان في مستطاعه أن يوسعها ضربًا على حدّ علمي. لكن مرّة أخرى.

ـ نعم . . .

حشر الهاتف بين كتفه وأحد جانبي رأسه عندما حاول أن يمسك بقميص ويخرجه من غلافه دون أن يحدث أيّة جلبة. هل كان الناس يشعرون بالضجر أم تراهم كانوا ساديّين عندما يعمدون إلى إحكام كلّ زرّ من أزرار القميص؟

ـ . . . على بعد نصف ميل وجدت تلك الصخرة التي استخدمت لتقوم مقام المنضدة . . .

كان فيرنون قد ارتدى بنطاله إلى النصف عندما رنّ جرس الانتظار مجدّدًا.

قال:

ـ مؤكّدًا. منضدة صخريّة. في وسع كلّ إنسان أن يستخدمها كما يعتقدون. لكنّني تأخّرت يا كلايف عن العمل. لا بدّ لي من أن أهرع. ما رأيك بتناول مشروب يوم غد؟

ـ آه. آه، حسنًا. تعال بعد الانتهاء من العمل.

(٣)

حرَّر فيرنون نفسه من المقعد الخلفي من السيّارة الصغيرة التي سمحت له صحيفته باستعمالها، ووقف على الرصيف خارج مبنى جادج هاوس ليعدل من بذلته المتجعّدة. وفيما هو يُسرع إلى الجهة الأخرى من الشارع صوب المدخل المرمري الأسود والأحمر شاهد ديبين في انتظاره بجانب المصعد. كان فرانك قد تبوّأ منصب مساعد محرّر الشؤون الخارجيّة في عيد مولده الثامن والعشرين. وبعد مرور أربعة أعوام وثلاثة رؤساء تحرير ظلّ في موقعه وراجت شائعات بأنّه قلق. كانوا يطلقون عليه الاسم كاسيوس بسبب قوامه النحيل ونظرته التوّاقة، غير أنّ هذا الأمر يفتقر إلى الإنصاف: كانت عيناه سوداوين ووجهه طويلاً وشاحبًا ولحيته خشنة تضفي عليه مظهر شرطي محقّق في زنزانة، ولكن سلوكه كان مجاملاً وإن شابه قدرٌ من التحفّظ والتفكير الجذّاب والساخر. وكان فيرنون يشمئزّ منه وهو شارد الذهن لكنّه سلك طريقًا غير مباشر إليه في الأيّام الأولى من الاضطراب الذي رافق قضيّة غارموني. وفي

المساء الذي أعقب تصويت عمّال المطبعة على سحب الثقة من رئيس التحرير، وهو المساء الذي تلا اتّفاق فيرنون وكلايف طارد الشابّ فيرنون المحدودب الظهر على امتداد الشارع عند الغروب واقترب منه في نهاية المطاف، ولمس كتفه واقترح عليه أن يتناولا مشروبًا. كانت لهجة ديبن تنمّ عن قدر من الإقناع.

دلف الرجلان إلى حانة في شارع فرعي لم يسبق لفيرنون ارتيادها أو معرفتها، وكانت مكانًا مترفًا وصاخبًا معبّقًا بدخان قاتم، وجلسا في مقصورة تقع في الجهة الخلفيّة ووراء جهاز ضخم لبثّ الأغاني. واعترف فرانك لرئيسه، وهو يحتسي شراب الجنّ الممزوج بالمياه الغازيّة، بغضبه الهادئ جرّاء ما آلت إليه الأمور. فقد تمّ استغلال التصويت الذي جرى في الليلة الماضية من قِبَل المشتبه بهم في المطبعة الذين تمتدّ شكاواهم وعداواتهم إلى سنوات. ولكن فرانك ظلّ بمنأى عن التماسّ مع الاجتماع بشأن ضغوط العمل، وقال إنّ هناك آخرين راودهم الشعور نفسه، وأرادوا من صحيفة ذا جادج أن تزيد من جاذبيّتها وأن تضفي قدرًا من الحيويّة وأن تُقدم على عمل جريء مثل ترتيب قضيّة غارموني، غير أنّ يد النحويّين الميتة كانت تمتدّ فوق كلّ رعاية وترقية. كما يفضّل الحرس القديم رؤية الصحيفة وهي تموت على أن يروها تنتقل إلى جمهرة القرّاء الذين تقلّ أعمارهم عن الثلاثين عامًا. لقد كافحوا ضدّ الطباعة الأكبر حجمًا والقسم الخاصّ بأسلوب الحياة، وزاوية القيل والقال والأبراج والملحق الخاصّ بالصحّة ولعبة البنغو، والإعلانات الشخصيّة عن المفقودين من الأقرباء، فضلاً عن التغطية النشطة للأسرة المالكة والموسيقى الشعبيّة. والآن ها

هم يتوجّهون نحو رئيس التحرير الوحيد الذي في مستطاعه إنقاذ صحيفة ذا جادج. وكان فيرنون يحظى بدعم من الموظّفين الشباب، لكنّ هؤلاء الموظّفين لم يكونوا يتمتّعون بأيّ صوت، إذْ ما من أحد يرغب في أن يقف هو أوّلاً على قدميه فيلقى مصرعه.

عندما شعر فيرنون بخفّته فجأة وهو واقف على قدميه ذهب إلى المشرب لاحتساء كأس أخرى. الواضح أنّ الوقت قد حان ليصغي إلى موظّفيه الأقدمين وإحضارهم. ولمّا رجع فرانك إلى المنضدة أشعل سيكارة واستدار بكرسيّه بأدب واحترام كي ينفث دخانها خارج المقصورة. قبل تناول الشراب واستمرّ. المؤكّد أنّه لم يشاهد الصور، لكنّه أدرك أنّ نشرها لا تشوبه شائبة. فأراد أن يقدّم دعمه إلى فيرنون، بل أكثر من ذلك، أراد أن يكون ذا فائدة، وهو السبب الذي يجعل من غير الحكمة أن يُبدي تحالفه علانيّة مع رئيس التحرير. اعتذر وذهب إلى الركن الذي يقدّم فيه الطعام ليطلب نقانق وماشا، في حين تخيّل فيرنون غرفة معيشة ونوم مشتركة، أو شقّة استديو خالية بلا فتاة تنتظر عودة مساعد محرّر الشؤون الخارجيّة كي يعود إلى البيت.

عندما جلس فرانك مجدّدًا قال بعجالة:

- في وسعي أن أبقيك في حالة اتّصال، وفي وسعي أن أدعك تعرف ماذا يقولون، وفي وسعي أن أكتشف أين هو مصدر دعمك الحقيقي، ولكن لا بدّ لي من أن أبدو غير مشارك وأن أكون حياديًّا. ألديك مانع؟

لم يلزم فيرنون نفسه بالجواب، إذْ كان قد مضى عليه زمن وهو

في موقعه هذا أطول ممّا يجعله يجنّد جاسوسًا من المكتب، دون أن يعرف أكثر من ذلك. لهذا السبب حوَّل مجرى الحديث إلى سياسة غارموني وأمضى الاثنان نصف ساعة منسجمين يستغوران احتقارًا متبادلاً. ولكن بعد ثلاثة أيّام، وعندما بدأ فيرنون يعدو في الدهاليز. أصيب بالهلع من جرّاء شدّة المعارضة وبدا مضطربًا ـ وإنْ على نحو بسيط ـ ورجع مع ديبين إلى الحانة ذاتها وإلى المقصورة نفسها وأطلعه على الصور. كان الأثر مشجّعًا، إذْ حملق فرانك في كلّ صورة مطوّلاً دون أيّ تعليق، واكتفى بهزّ رأسه لا غير. ثم أعادها إلى المظروف وقال بهدوء:

ـ غير معقول. يا لنفاق الرجل.

جلسوا وران عليهم صمت مليء بالتفكير برهة وجيزة ثم أضاف:

ـ لا بدّ أن تنشرها. عليك أن لا تتركهم يمنعونك عن ذلك. وسوف تتحطّم فرصه كرئيس للوزراء، وسوف تقضي عليه قضاءً مبرمًا. إنّني أرغب حقًّا في مساعدتك يا فيرنون.

لم يكن الدعم في أوساط الموظّفين الأصغر سنًّا واضحًا كما كان قد زعم فرانك، لكن بمرور الأيّام هدأت الأمور في الصحيفة، أمّا قيمة معرفة أيّ المجادلات كانت تحقّق أغراضها فلم تكن ذات قيمة. ومن خلال لقاءاته من وراء جهاز بثّ الموسيقى علم متى ولماذا ستبدأ المعارضة بالانقسام، ومتى يؤكّد على أفكاره داخليًّا. وأثناء تخطيط الحشد وتنفيذه عرف فيرنون تمام المعرفة من هُم النحويّون الذين سيعزلهم والذين سيواصلون العمل. كان قادرًا على

نشر الأفكار وحشدها بعيدًا عن فرانك الذي جاء ببعض المقترحات الجيّدة من عنده. الأهمّ من هذا أنّ فيرنون أصبح لديه من يتحدّث إليه، شخص شاركه إحساسه بهذه المهمّة التاريخيّة وبهذا الحماس وفهم فهمًا غريزيًا الطبيعة البالغة الخطورة للقضيّة، وعرض عليه المساندة والتشجيع، في وقت كان الجميع يوجّهون انتقاداتهم إليه.

بوجود مدير الإدارة في المجلس، وبكتابة الحشود والآثار، وبازدياد المبيعات وبظهور الحماس المكتوم الذي لا يمكن غفرانه وسط الموظّفين، لم تعد الاجتماعات ضروريّة بعد الآن مع فرانك. غير أنّ فيرنون كان يتطلّع إلى مكافأة إخلاصه، وفكّر في منحه منصب محرّر التحقيقات الذي تشغله ليتيس التي جعلها تحقيقها عن موضوع التوائم السياميّين تحت التدريب. أمّا الملحق الخاصّ بالشطرنج فكان ضربة قاضية لها.

والآن، وفي صباح يوم الخميس، وهو آخر يوم قبل النشر، صعد فيرنون وملازمه معًا إلى الطابق الرابع باستخدام مصعد قديم بدا وكأنّه قد جلب النحس. أُعيد فيرنون إلى أيّام التمثيل الجامعيّة الأوّليّة، والتدريبات النهائيّة والكفّين اللزجتين والمعدة المزدردة والإسهال. وفي الوقت الذي ينتهي فيه الاجتماع الصباحي سيكون كلّ المحرّرين والصحافيّين القدامى وعدد آخر لا بأس به أيضًا قد شاهدوا الصور. وأرسلت الطبعة الأولى من الصحيفة إلى المطبعة في الخامسة والدقيقة الخامسة عشرة، ولكن لن تكون صورة غارموني وخصلة شعره ونظرته الفيّاضة بالعاطفة مظهرًا غير واضح ومحتدمًا على الأسطوانات الفولاذيّة في معمل كرويدون الجديد إلاّ

في الساعة التاسعة والنصف عند صدور الطبعة الأخيرة. وكانت الفكرة من وراء ذلك تتمثّل في تفويت الفرصة على أيّ منافس لإصدار ما يُفسد الأمر في طبعاتهم الأخيرة. وستكون شاحنات التوزيع على الطريق في الحادية عشرة، وعندئذٍ سيكون الأوان قد فات لاستعادة الحدث.

قال فيرنون:

ـ هل شاهدت المطبعة؟

ـ نعمة حقيقيّة.

اضطرّت اليوم كلّ الصحف الصغيرة والكبيرة إلى نشر تحقيقات ذات صلة. وفي إمكانك رؤية الامتعاض والحسد في كلّ عنوان وفي كلّ زاوية جديدة نُقّبت تنقيبًا عاجلاً. وجاءت صحيفة الأندبندنت بموضوع مستهلك عن القوانين المتعلّقة بالخصوصيّة في عشرة أقطار مختلفة، في حين نشرت صحيفة التلغراف تنظيرًا نفسانيًّا مطنبًا عن تقلّد الصليب. أمّا صحيفة الغارديان فقد خصّصت صفحتين لمقالة شامتة وذكيّة عن ارتدائه ثياب الجنس الآخر في الحياة العامّة. لكن لم تتمكّن أيٌّ من هذه الصحف من الإشارة إلى صحيفة ذا جادج. أمّا صحيفتا الميرور والصنّ فقد ركّزتا على غارموني في مزرعته في مقاطعة ويلتشاير، ونشرتا صورًا متشابهة بعدسة بعيدة لوزير الخارجيّة وولده وهما يتواريان عن الأنظار في ظلمة مخزن للحبوب. وكانت الأبواب مشرعة، وأظهر الأسلوب الذي سقط به الضوء على منكبي غارموني دون ذراعيه وكأنّه رجل يوشك أن يبتلعه المجهول.

ضغط فرانك على زرّ ليوقف آليّة الرفع فأوقف المصعد بهزّة قويّة احتوت قلب فيرنون، وأصدر الصندوق المزخرف بالنحاس وخشب الماهوغاني صريرًا وهو يهتزّ فوق الممرّ الرئيس للمصعد.. كانوا قد عقدوا اجتماعين مماثلين سريعين من قبل. وشعر رئيس التحرير أنّه مضطرّ إلى مداراة هلعه وإظهار عدم اكتراثه.

قال فرانك:

ـ سيلقي ماكدونالد كلمة قصيرة في الاجتماع، ولن يقول إنّهم كانوا مخطئين، ولكنّه لن يسامحك أيضًا. لكن هل تدري؟ التهاني تنهال من كلّ حدب وصوب، وبما أنّنا ماضون قُدُمًا علينا أن نتعاون.

قال فيرنون:

ـ حسنًا.

كان الاستماع إلى مساعد رئيس التحرير وهو يعتذر، دون أن يلوح ما يشير إلى أنّه لا يستمع إليه، عملاً ينطوي على التهذيب.

ـ القضيّة هي أنّ الآخرين قد يتدخّلون تعبيرًا عن، قد يستحسن البعض الآخر ذلك الشيء. وإذا لم يكن لديك أيّ اعتراض فإنّني مضطر إلى البقاء وراء الستارة وعدم إظهار نفسي في هذه المرحلة.

راود فيرنون اضطراب داخلي بسيط مدّة وجيزة، أشبه بشدّ عضلة ارتداديّة مهملة. فقد تأثّر بحبّ الاستطلاع قدر تأثّره بالشكّ، لكنّ الأوان كان قد فات على عمل أيّ شيء الآن. لهذا قال:

ـ مؤكّدًا. إنّني بحاجة إليك في الموضع الصحيح، فقد تكون الأيّام القليلة المقبلة حاسمة.

أصاب فرانك الهدف، ولكن لم يحدث أيّ شيء للحظة، هبط بعدها المصعد بضع بوصات إلى أسفل قبل أن يبدأ الصعود إلى أعلى.

وكما هو مألوف، كانت جين في الجهة الأخرى من البوّابة تحمل رزمة من الرسائل والفاكسات والملاحظات الإيجازيّة.

ـ إنّهم في انتظارك في الغرفة السادسة.

كان الاجتماع الأوّل مع مدير الإعلان وفريقه، إذْ شعر أنّ هذه هي اللحظة المناسبة لزيادة المعدّلات. أراد فيرنون أن يتخلّف. وفيما هم يسرعون على امتداد الدهليز ـ المغطّى بالسجّاد الأحمر كما في أحلامه ـ لاحظ فرانك وهو يبتعد، في الوقت نفسه الذي انضمّ فيه إليهما شخصان آخران، شخصان من قسم التصميم. ثمّة ضغط لإلغاء الصورة من على الصفحة الأولى وإفساح المجال لمقالة مطوّلة، لكنّ فيرنون كان قد قرّر قبل الآن قراره بشأن النسخة التي يريدها. خطا ماني سكيلتون من جانب مكتبه الصغير ووضع بين يدي فيرنون بضع صفحات من النصّ عند مروره به. كانت هذه الصفحات تمثّل الموضوع الذي طلبوه إذا ما تفوّق غارموني على نفسه. وانضمّ محرّر الرسائل إلى الحشد مؤمّلاً بكلمة قبل بدء الاجتماع الأوّل. كان يتوقّع طوفانًا، وكان يحارب من أجل الحصول على صفحة كاملة. عاد فيرنون الآن إلى وضعه الطبيعي وهو يخطو باتّجاه الغرفة السادسة مجدّدًا، عظيمًا وكريمًا وقاسيًا

وطيّبًا. وفي حين كان الآخرون يشعرون بالعبء الملقى على عاتقهم، فإنّه شعر بخفّة مساعدة، أو، على وجه، بنورٍ، وألقٍ من الكفاءة والحيويّة لأنّ يديه الواثقتين توشكان أن تزيلا ورمًا سرطانيًّا من أعضاء الجسد السياسي ـ وهي الصورة التي عزم على أن يستخدمها في المقال الافتتاحي الذي سيعقب استقالة غارموني. وسيظهر النفاق وستبقى البلاد جزءًا من أوروبا وستظلّ عقوبة الموت والتجنيد الإلزامي حلمًا من أحلام المهووسين، وستظلّ الرعاية الاجتماعيّة قائمة بشكل أو بآخر، وستحظى البيئة العالميّة بفرصة طيّبة في حين يوشك صوت فيرنون أن يعلو بأغنية.

لكنّه لم يغنِّ، بل أصبح لديه في الساعتين التاليتين كلّ حيويّة الأوبرا الخفيفة، وباتت كلّ الألحان ملكه، كما أثنت عليه كلّ جوقة من الأصوات المتمازجة، وردّدت صدى أفكاره ترديدًا متناغمًا. وبلغت الساعة الحادية عشرة، واحتشد في مكتب فيرنون عدد من الحاضرين أكبر ممّا هو مألوف لحضور الاجتماع الصباحي. كان هناك رؤساء تحرير ومساعدوهم ونوّابهم وصحافيّون يشغلون جميع الكراسي وقد استندوا إلى كلّ بوصة خالية من الجدار وتربّعوا على امتداد حافّات النوافذ وعلى أجهزة التدفئة المركزيّة. أمّا الذين لم يتمكّنوا من حشر أنفسهم في الغرفة فقد تجمّعوا من حول المدخل المفتوح. وتوقّف الكلام عندما جلس رئيس التحرير على كرسيِّه. وكان كلامه ينمّ عن استهتار حقيقي لأنّه بدأ دون مقدّمة، كدأبه، وتمسّك بالشكليّات ـ تشريح لبضع دقائق تلته قراءة القوائم. ممّا هو مؤكّد عدم وجود أيّة عطاءات للصفحة الأولى. وكان تنازل فيرنون الوحيد متمثّلاً عكس

النظام المألوف لتصبح الأخبار المحلّيّة والسياسيّة هي الأخيرة. وكان لدى محرّر الشؤون الرياضيّة موضوع تمهيدي عن دورة الألعاب الأولمبيّة في أتلانتا، والاستفسار عن وضع كرة المنضدة الثنائيّة الإنكليزيّة. أمّا المحرّر الأدبي، الذي لم يحضر مبكرًا أيّ اجتماع صباحي، فقد قدّم عرضًا لرواية تعالج موضوع الغذاء، فبدا موغلاً في التبجّح ممّا دفع فيرنون إلى إنهاء حديثه.

أمّا بخصوص الفنون فثمّة أزمة تخصّ التمويل المالي، في حين باتت ليتيسي أوهارا من قسم التحقيقات مستعدّة أخيرًا لنشر موضوعها عن فضيحة الدواء الهولنديّة، وقدّمت، احتفاءً بهذه المناسبة، تحقيقًا عن التلوّث الصناعي الذي يحوّل ذكور الأسماك إلى إناث.

ولمّا تكلّم محرّر الشؤون الخارجيّة، بدأ الاهتمام يتركّز في الغرفة. إذْ سوف يعقد مؤتمر وزراء خارجيّة الدول الأوروبيّة وسيحضره غارموني ـ إلاَّ إذا استقال على الفور. وبظهور هذا الاحتمال سادت الغرفة همهمة تنمّ عن الحماس، وعمد فيرنون إلى إحضار محرّر الشؤون السياسيّة هارفي سترو الذي أسهب في سرد تأريخ الاستقالات السياسيّة. لم تحدث استقالات كثيرة مؤخّرًا، وبدا واضحًا أنّها كانت فنًّا ميتًا. وكان المرجّح أن يتشبّث رئيس الوزراء، المعروف بقوّته اعتمادًا على صداقات وولاءات شخصيّة وبضعفه في الدوافع السياسيّة، بغارموني إلى أن يُجبر على الاستقالة، وهذا ممّا يطيل أمد القضيّة ممّا يشكّل عونًا لصحيفة ذا جادج.

بناءً على دعوة فيرنون، أكَّد مدير التوزيع آخر الأرقام، وكانت الأفضل على مدى سبعة عشر عامًا، فازدادت الهمهمات لتغدو صخبًا، وحدث بعض التدافع والتعثّر من حول المدخل عندما قرّر صحافيّون محبطون واقفون في مكتب جين الخارجي الاندفاع نحو جدار من الأجساد. ضرب فيرنون بيده على المنضدة ليعيد النظام إلى الغرفة، إذْ لا يزال ينبغي لهم الاستماع إلى محرّر الشؤون المحلِّيّة جيرمي بول الذي اضطرّ إلى رفع صوته: فتى في العاشرة من عمره يقدّم للمحاكمة اليوم متّهمًا بجريمة قتل، سفّاح ليكلاند يهاجم للمرّة الثانية في غضون أسبوع، فيما اعتقل رلج ليلة أمس؛ بقعة زيت قبالة ساحل كورنوول. لكن لم يبد أحد أيّ اهتمام لأنّ موضوعًا واحدًا كان من شأنه أن يهدّئ من الحشد. وفي نهاية المطاف خضع بول؛ رسالة من الأسقف إلى صحيفة تشيرتش تايمز يهاجم فيها صحيفة ذا جادج بشأن قضيّة غارموني، ينبغي أن يسلّط الضوء عليها في مقالة اليوم الافتتاحيّة؛ اجتماع اللجنة الحكوميّة الخاصّة بالمستقلّين عصر هذا اليوم ينبغي الكتابة عنه؛ قطعة من قرميد قُذفت من خلال نافذة مقرّ دائرة غارموني الانتخابيّة في ويلتشاير. وتبع ذلك تصفيق خافت ليخيّم الصمت بعده عندما بدأ مساعد فيرنون غرانت ماكدونالد بالكلام.

كان قد مضى على وجوده في صحيفة ذا جادج زمن طويل. كان رجلاً طويل القامة، ضاع وجهه داخل لحية حمراء تثير الضحك ولم يعمل على تشذيبها. أراد أن يؤدّي دورًا كبيرًا بوصفه اسكتلنديًّا يرتدي تنّورة في ليلة بيرنز التي نظّمها للصحيفة وعزف موسيقى هيل. لقد قدّم علنًا الدعم المناسب لرئيس تحريره، في

حين راوده سرًّا شكّ بخصوص القضيّة كلّها مع فيرنون. بدا أنّ المبنى علم برمّته على نحو ما بشكوكه وهو السبب الذي دفع الجميع إلى الإصغاء إليه الآن بكلّ حماس. بدأ كلامه بصوت واطئ ممّا زاد من حدّة الصمت المفروض من حوله:

ـ في وسعي أن أقول هذا الآن وسوف تفاجأون به، لكن لديّ شكوكي القليلة منذ البداية...

أثار هذا الاستهلال المراوغ نوبة من الضحك الرجولي. وارتعد فيرنون لما فيه من رياء. كانت القضيّة دسمة ومعقّدة ودقيقة. ثم مرّت في ذهنه صورة طبق صقيل من الذهب المطروق، وعليه كتابات هيروغليفيّة.

استرسل ماكدونالد في وصف شكوكه ـ الخصوصيّة الفرديّة وأساليب صحف التابلويد ذات الحجم الصغير، والبرامج الخفيفة وغيرها. ثم وصل إلى النقطة المهمّة في كلامه فرفع صوته. كان إيجاز فرانك قصيرًا.

ـ لكنّني تعلّمت بمرور الأعوام أنّ هناك أوقاتًا في هذا العمل ـ وإن ليست كثيرة ـ تضطرّ فيها أفكارك إلى اتّخاذ مواقع خلفيّة. لقد عرض فيرنون قضيّته بحماس وبغريزة متميّزة، وهناك إحساس في هذا المبنى، وهو ضرورة الآن في هذه الصحيفة، يشدّني إلى الأيّام الخوالي الطيّبة التي كان العمل فيها ثلاثة أيّام في الأسبوع عندما كنّا نعرف حقًّا كيف نروي. أمّا اليوم، فأرقام التوزيع تتحدّث عن نفسها ـ لقد عرفنا مزاج الناس. ولهذا...

وهنا التفت غرانت إلى رئيس التحرير وأشرق وجهه.

ـ لقد بدأنا الصعود مجدّدًا. شكرًا لك يا فيرنون.

وبعد تصفيق حادّ، تدخّل آخرون وهم يرسلون رسائل تهنئة قصيرة. جلس فيرنون بذراعين متشابكتين، ووجه صارم، وعينين ثابتتين على سطح المنضدة المحبّب. أراد أن يبتسم، لكن لم يبد ذلك مناسبًا. لاحظ بكلّ ارتياح أنّ مدير الإدارة توني مونتانو كان يدوّن سرًّا ملاحظات عن أقوال المتحدّثين وأسمائهم، وعن أعضاء مجلس الإدارة. لا بدّ من التنحّي جانبًا به وطمأنته على ديبين الذي كان قد تهالك على كرسيّه واضعًا كلتا يديه على جيبيه، مقطّبًا وهازًّا رأسه.

وقف فيرنون الآن لأجل أولئك الموجودين في مؤخّرة الغرفة وشكرهم بالمقابل، وقال إنّه يعرف أنّ معظم الحاضرين في الغرفة كانوا ضدّ النشر في وقت أو آخر. لكنّه كان ممتنًّا لهم لأنّ الصحافة تشبه العلم من بعض الأوجه: فأفضل الأفكار هي التي تبقى على مرّ الزمن وتتعزّز بالمعارضة الذكيّة. أدّى هذا التباهي الرقيق إلى تصفيق حارّ آخر. لا ضرورة للخجل أو العقاب من جهة أعلى. وفي حين أخذ التصفيق يتلاشى، كان فيرنون قد حشر نفسه بين الجموع واتّجه صوب سبّورة بيضاء مثبّتة على الجدار، وأزاح الشريط الذي كان يثبّت صحيفة بيضاء كبيرة الحجم، وكشف عن الصفحة الأولى من الجريدة التي ستصدر في الغد وكانت بحجم هائل.

ملأت الصورة ثلاثة أرباع الصفحة وعلى مجمل الأعمدة الثمانية بدءًا من تحت العنوان. استوعبت الغرفة الصامتة الثوب

البسيط في طرازه وفانتازيا السير كالقطّة والوقفة المثيرة التي تتظاهر على نحو مغوٍ ومغرٍ أنّها تريد أن تبعد آلة التصوير المركّزة عليها، والنهدين الصغيرين، وكشفت عن حذق شريط حمّالة الصدر واللون الوردي الفاتح لمساحيق التجميل على عظام الوجنتين وتجاعيد أحمر الشفاه التي قولبت انتفاخ الفم وبروزه، والنظرة الحميميّة الملتاعة بوجه عامّ متغيّر ولكن يمكن معرفته بسهولة. وفي القسم الأوسط من الأسفل لا يوجد سوى سطر واحد كتب بحجم كبير من قياس ٣٢: جوليان غارموني: وزير الخارجيّة. ولم تحتوِ الصفحة على أيّ شيء آخر سوى ذلك.

هدأ الجمع هدوءًا تامًّا بعد أنّ ظلّ صاخبًا واستمرّ الصمت لأكثر من نصف دقيقة تنحنح بعدها فيرنون وبدأ يصف استراتيجيّة السبت والاثنين. وحسب ما أشار أحد الصحافيّين لزميله في المطعم، فإنّ الأمر بدا وكأنّ المرء يشاهد شخصًا ما معروفًا لديه وقد جُرِّدَ من ثيابه أمام الملأ وضُرِبَ بالسياط. كُشف عنه القناع وعوقب. لكن على رغم ذلك فإنّ الرأي العامّ الذي ساد، في حين تفرّق الناس وعادوا إلى مكاتبهم واندمجوا في وقت مبكر من العصر، هو أنّ هذا العمل قد جرى على وفق أرقى المعايير المهنيّة. فالصفحة الأولى ستصبح على وجه التوكيد صفحة نموذجيّة من الطراز الأوّل يتمّ تدريسها في يوم ما في مدرسة الصحافة. وكان التأثير الصوري رائعًا لا يمكن نسيانه، شأنه شأن البساطة والوضوح والقوّة. كان ماكدونالد على حقّ، فمشاعر فيرنون لا تخطئ. ولم يكن يفكّر إلاّ في الضربة القاضية عندما دفع النسخة كلّها إلى الصفحة الثانية، وقاوم إغراء وضع عنوان صارخ أو تعليق

مبتذل. كان يعلم جيّدًا مدى القوّة التي يملكها، فترك الصورة تحكي الحكاية.

وبعد أن غادر آخر فرد مكتبه، أغلق فيرنون الباب وفتح النوافذ على مصاريعها لاستقبال هواء آذار الرطب. كانت لا تزال لديه خمس دقائق قبل بدء الاجتماع الآخر، وكان بحاجة إلى التفكير. وتحدّث إلى جين من خلال جهاز الاتّصال الداخلي مخبرًا إيّاها بأن لا يزعجه أحد. قلَّب الفكرة في ذهنه فبدت مقبولة، لكنّ ثمّة شيئًا ما، شيئًا ما له أهمِّيّة، بعض المعلومات التي كان يوشك أن يردّ عليها، غير أنّه تخلّى عن الفكرة ثم نسي أمرها وابتعدت عنه وسط أفكار أخرى مشابهة. كانت ملاحظة، قصاصة صغيرة أثارت دهشته في ذلك الوقت. وكان ينبغي له أن يتحدّث عنها آنذاك.

الحقّ أنّها لم تأتِ إلاّ في وقت متأخّر من العصر عندما حانت فرصة أخرى. وقف بجوار السبّورة البيضاء محاولاً أن يتذوّق مجدّدًا تلك النكهة العابرة من الدهشة. أغمض عينيه وبدأ يفكّر بمؤتمر الصباح على نحو تعاقبي، وكلّ ما قيل فيه. إلاّ أنّه لم يتمكّن من تركيز أفكاره على المهمّة فسرح عنها. كلّ شيء على ما يرام، كلّ شيء على ما يرام، لكن بسبب هذا الشيء الصغير سوف يحضن نفسه وسوف يرقص على المكتب. كان الوقت شبيهًا بهذا الصباح عندما استلقى على فراشه يفكّر في نجاحه بلا سعادة بعد استهجان كلايف.

ها قد حدث الآن. كلايف. في اللحظة التي كان يتكلّم فيها عن اسم صديقه، عاد إليه مجدّدًا. خطا نحو الجهة الأخرى من

الغرفة صوب الهاتف. بسيط وربّما مثير للغضب.

ـ جيريمي؟ أيمكنك الحضور إلى مكتبي للحظة؟

وصل جيريمي بول إلى مكتبه في أقلّ من دقيقة، فما كان من فيرنون إلاّ أن أجلسه وبدأ يستجوبه، ويدوّن ملاحظات عن الأماكن والتواريخ والأوقات وما كان معروفًا وما كان مشكوكًا فيه. وفي لحظة من اللحظات استخدم بول الهاتف ليؤكّد التفاصيل مع الصحافيّين الذين يغطّون الموضوع. وبعد أن غادر محرّر الشؤون المحلّيّة استخدم فيرنون هاتفه الخاصّ للاتّصال بكلايف. ومرّة أخرى حدث التأخير وصوت رفع السمّاعة وصوت أغطية الفراش والصوت الأجشّ. كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة، فما بال كلايف إذًا قد استلقى طوال النهار مثل مراهق مكتئب؟

ـ آه يا فيرنون، كنت. . .

ـ اسمع. لقد قلت شيئًا ما في هذا الصباح. أريد أن أسألك: في أيّ يوم كنتَ في منطقة البحيرات؟

ـ في الأسبوع الماضي.

ـ الأمر مهمّ يا كلايف. في أيّ يوم؟

تناهى إلى السمع صوت صرير ونخير عندما حاول كلايف أن يعتدل واقفًا.

ـ لا بدّ أنّه كان يوم الجمعة. ما. . .

ـ الرجل الذي شاهدته. . لا، انتظر. كم كان الوقت عندما كنت فوق آلن كراغز؟

ـ نحو الساعة الواحدة كما أظنّ.

ـ أصغِ. إنّ الرجل الذي شاهدته يهاجم المرأة وقرّرت أن لا تساعدها هو سفاح ليكلاند.

ـ لم أسمع به.

ـ ألا تقرأ الصحف أبدًا؟ لقد اعتدى على ثماني نساء في العام الماضي، ومعظمهنّ من اللواتي يذهبن للنزهة. أمّا هذه المرأة فقد نجت.

ـ شيء يدعو إلى الارتياح.

ـ ليس تمامًا. لقد اعتدى على امرأة أخرى قبل يومين ولكنّه اعتُقل يوم أمس.

ـ حسنًا، كلّ شيء على ما يرام إذًا.

ـ لا، ليس على ما يرام. أنت لم ترغب في مساعدة المرأة، حسنًا. لكن لو توجّهت إلى الشرطة بعد ذلك لما تعرّضت المرأة الأخرى إلى الاعتداء.

ساد صمت قصير في حين بدأ كلايف يستوعب الحدث، أو يستجمع قواه. لقد بات الآن في يقظة تامّة في حين اخشوشن صوته أكثر.

قال:

ـ هذا لا يصحّ بالضرورة، لكن لا عليك. لم ترفع صوتك يا فيرنون؟ أهذا هو أحد أيّامك العصيبة؟ ماذا تريد حقًّا؟

ـ أريد منك أن تذهب إلى الشرطة الآن وتخبرهم بالذي شاهدته.

ـ مستحيل.

ـ يمكنك أن تتعرّف على الرجل.

ـ إنّني في المراحل النهائيّة من إكمال سيمفونيّة..

ـ لا، لست كذلك. اللعنة. إنّك في سريرك.

ـ ليس هذا من شأنك.

ـ فظيع. اذهب إلى الشرطة يا كلايف، فهذا واجبك الأخلاقي..

صوت شهيق مسموع. وقفة أخرى كأنّما لإعادة النظر، ثم:

ـ أنت تخبرني بواجبي الأخلاقي؟ أنت؟ من دون الناس جميعًا؟

ـ ماذا تعني؟

أعني هذه الصور. أعني التبرّز على قبر مولي...

دلَّت الإشارة البرازيّة إلى مقبرة غير موجودة على تلك النقطة في الخلاف عندما تتمّ الاستدارة عند منعطف وتتوقّف جميع الضوابط. قاطعه فيرنون:

ـ أنت لا تعرف شيئًا يا كلايف، فأنت تحيا حياة باذخة ولا تعرف شيئًا.

ـ هذا يعني تعقّب إنسان في مكتبه، يعني صحافة رخيصة ومبتذلة. كيف يمكنك أن تعيش على هذا النحو؟

ـ يمكنك أن تهدر بكلّ ما تريد. أن تفقد سيطرتك، وإذا لم تذهب إلى الشرطة فسوف أتّصل بها شخصيًا وأخبرها بما شاهدتَ. إضافة إلى محاولة الاغتصاب...

ـ هل جُنَّ جنونك؟ كيف تتجرّأ على تهديدي؟

ـ ثمّة أشياء معيّنة أكثر أهمّيّة من السيمفونيّات تدعى البشر.

ـ وهل هؤلاء البشر مهمّون قدر أهمّيّة أرقام التوزيع يا فيرنون؟

ـ اذهب إلى الشرطة.

ـ تبًّا لك.

ـ لا. تبًّا لك أنت.

وفجأة فُتح باب غرفة مكتب فيرنون ودخلت جين وهي ترتعد من شدّة القلق، وقالت:

ـ يؤسفني أنْ أقاطع محادثة خاصّة يا سيّد هاليداي. لكن أعتقد أنّ الأفضل مشاهدة التلفاز، فالسيّدة جوليان غارموني تعقد مؤتمرًا صحافيًّا على القناة الأولى.

(٤)

فكّر مسؤولو الحزب طويلاً وبإمعان بشأن القضيّة، واتّخذوا بعض القرارات المعقولة، ومن بينها السماح لعدسات التصوير بدخول مستشفى أطفال ذائع الشهرة في ذلك الصباح لتصوير السيّدة غارموني وهي تخرج من صالة العمليّات الجراحيّة، متعبة ولكن سعيدة، بعد أن أجرت عمليّة القلب المفتوح لطفلة سوداء في سنّ التاسعة تُدعى كاندي. وتمّ تصويرها أيضًا وهي تقوم بجولاتها ومن ورائها الممرّضات والإداريّون، في حين كان الأطفال يعانقونها بكلّ محبّة. وفي باحة سيّارات المستشفى حدث لقاء قصير ومحزن بين السيّدة غارموني ووالدي الطفلة الصغيرة اللذين عبَّرا عن جزيل شكرهما لها. كانت تلك هي أوّل الصور التي رآها فيرنون بعد أن أقفل سمّاعة الهاتف بقوّة وبحث عبثًا عن جهاز التحكّم عن بعد وسط الأوراق على مكتبه، واتّجه صوب جهاز الاستقبال المثبّت في مكان عالٍ من أحد أركان غرفة مكتبه. وفي حين أغدق الأب وهو يجهش بالبكاء نصف دزينة من ثمار الأناناس بين ذراعي

الطبيبة الجرّاح، أوضح صوت مسجّل على الشريط أنّ المرء حين يصل درجة من العلوّ في سلّم الهرم الطبّي فلا تعود مخاطبته بكلمة «طبيب» مناسبةً. إنّها السيّدة غارموني بالنسبة لك.

عاد فيرنون، وقلبه لا يزال يخفق بشدّة، إلى مكتبه لمشاهدة جين وهي تتسلّل خارجة على أطراف أصابعها وتغلق الباب من ورائها. إنّنا الآن في ويلتشايد، نقف على هضبة ما، نحدّق إلى الأسفل صوب جدول ماء صغير تحفُّ به الأشجار ويشقّ طريقه بين التلال الجرداء. ثمّة بيت مريح في المزرعة وسط الأشجار. وفي حين كان التعليق يوضّح الخلفيّة المألوفة لقضيّة غارموني، بدأت عدسة التصوير لقطة قريبة، طويلة وبطيئة، انتهت بنعجة تُعنى بحَمَل مولود حديثًا فوق العشب القريب من الشجيرات عند الباب الأمامي. واتّخذ الحزب قرارًا آخر بإرسال آل غارموني وابنهما نيد وابنتهما أنابيل البالغين إلى منزلهم الريفي لقضاء عطلة نهاية أسبوع طويلة حال انتهاء روز من العمل في المستشفى. رآهم فيرنون الآن أسرة واحدة تنظر إلى آلة التصوير من فوق بوّابة ذات خمسة قضبان، يرتدي أفرادها ثيابًا صوفيّة ومعاطف من قماش زيتي، يرافقهم كلبهم ميلي وقطّة الأسرة ذات الشعر القصير واسمها براين وقد احتضنتها أنابيل بمودّة. كان النداء نداءً بالصورة، غير أنّ وزير الخارجيّة كان متأخّرًا على نحو غير معهود، يبدو في أتمّ الصحّة والعافية، خجولاً ووديعًا، في حين كانت زوجته بؤرة هذا الحدث. كان فيرنون يعلم أنّ غارموني قد غرق، لكنّه لم يستطع الحيلولة دون أن يهزّ رأسه تقديرًا وإجلالاً للمهارات الرمزيّة وطابعها المهني.

انتهى التعليق وبدأ صوت حقيقي لآلات تصوير آليّة الحركة فضلاً على أصوات أخرى مختلفة خارج نطاق اللقطة. كان واضحًا من خلال حركة الإطار وتأرجحه أنّ ثمّة درجة من التدافع بالمناكب على قدم وساق. وتمكّن فيرنون من أن يلمح السماء وقدمي المصوّر وشريطًا برتقاليًّا؛ لا بدّ أنّ السيرك بأكمله حاضر هناك، محصور وراء خطّ. أخيرًا تركّزت الصورة على السيّدة غارموني وهي تتنحنح وتتهيّأ لإلقاء بيانها. ثمّة شيء ما في يدها لكنّها لن تقرأ ما فيه لأنّها كانت واثقة بما يكفي لكي تتكلّم بلا ملاحظات. توقّفت للتأكّد من أنّ الجميع متنبّهون إليها، بدأت بعد ذلك تسرد باختصار قصّة زواجها منذ أن كانت في دار البلديّة تحلم بأن تصبح في حياتها عازفة بيانو في حفلات موسيقيّة، وكان جوليان طالبًا يدرس الحقوق، فقيرًا ولكنّه مقدام. كانت تلك الأيّام تتّصف بالعمل الشاقّ والموقّت، والسكن في شقّة تتألّف من غرفة واحدة في منطقة ساوث لندن، وولادة أنابيل وقرارها المتأخّر بدراسة الطبّ، ودعم جوليان الذي لا يعرف الإحجام، وشراءها أوّل بيت في نهاية حيّ فولهام وولادة نيد ونجاح جوليان المتواصل في المحاماة وعملها طبيبة مقيمة في المستشفى، وهلمّ جرّا. كان صوتها مرسلاً على سجيّته، وحميميًّا أيضًا لا يستمدّ قوّته من الطبقة أو المنزلة بوصفها زوج وزير في الحكومة قدر ما يستمدّها من تفوّقها المهني. تكلّمت عن اعتزازها بحياة جوليان المهنيّة والبهجة التي يشعران بها بوجود ذرّيّتهما، وكيف أنّ كلّ واحد منهما شارك الآخر في انتصاراته ونكساته وكيف أنّهما كانا يقيمان وزنًا للمرح والنظام، وقبل هذا كلّه النزاهة.

توقّفت وابتسمت كأنّها تبتسم لنفسها. وقالت منذ البداية إنّ جوليان أخبرها بشيء ما عن نفسه، شيء ما يثير الوجل، بل قليلاً من الفزع. لكنّه ليس أمرًا لا يستطيع حبّهما أن يستوعبه، وعلى مدى السنين بدأت تنظر إليه نظرة احترام وعلى أنّه جزء لا يتجزّأ من خصائص زوجها. كانت ثقة أحدهما بالآخر لا متناهية، ولم يكن سرًّا هذا الأمر الخاصّ بجوليان لأنّ صديقةً من أصدقاء الأسرة، وهي مولي لين التي وافتها المنيّة مؤخّرًا، التقطت ذات مرّة بعض الصور بدواعي الاحتفال ورفعت السيّدة غارموني فايلاً من مقوًّى أبيض اللون. وفيما هي تنقل ذلك قبّلت أنابيل والدها على وجنته. أمّا نيد الذي يشاهد الآن وقد زيّن أنفه بخزامة، فانحنى ووضع يده على ذراع أبيه.

قال فيرنون:

ـ يا الله! إنّها غنيمة!

جذبت الصور لتتّضح معالمها ورفعت الصورة الأولى عاليًا كي يراها الجميع. اللقطة هي لقطة مشية القطّة التي نشرت على الصفحة الأولى من جريدة فيرنون. تأرجحت آلة التصوير وهي تقترب في حين تعالت الأصوات وجلبة التدافع من وراء الخطّ. انتظرت السيّدة غارموني حتى تهدأ الضجّة، التي ما إن هدأت حتى قالت بهدوء إنّها كانت تعلم أنّ صحيفة ذات دوافع سياسيّة خاصّة بها عزمت على نشر هذه الصورة وأخرى غيرها يوم غد بأمل إخراج زوجها من وظيفته، وإنّها لا تملك ما تقول سوى أنّ الصحيفة لن تفلح لأنّ الحبّ أقوى بكثير من الضغينة.

انهار الخطّ، وتدافع الكتّاب إلى أمام، في ما شبك الولد والبنت أذرعهما بذراعي أبيهما خلف البوّابة. أمّا الأمّ فوقفت ثابتة الجنان قبالة الحشد لا تزعجها لاقطات الصوت التي دُفعت أمام وجهها. نهض فيرنون من فوق كرسيِّه. قالت السيّدة غارموني: «لا». وشعرت بالسعادة لقدرتها على وضع الحقيقة في نصابها، على أن توضّح أنّ الشائعة لا أساس لها من الصحّة. كانت مولي لين صديقة الأسرة، وإنّ آل غارموني سيتذكّرونها دومًا بكلّ محبّة. كان فيرنون يذرع مكتبه كي يغلق التلفاز عندما وُجِّه سؤال إلى الطبيبة إنْ كانت لديها أيّة رسالة خاصّة توجّهها لرئيس تحرير صحيفة ذا جادج. فقالت: نعم. ثم نظرت إليه فيما تجمّد هو أمام التلفاز:

ـ لديك عقليّة المبتزّ يا سيّد هاليداي. أمّا مكانتك الأخلاقيّة فهي مكانة برغوث.

شهق فيرنون متألّمًا من شدّة إعجابه لأنّه كان يعلم بالمقطع الصوتي عندما سمعه. كان السؤال مزروعًا والعبارة مكتوبة. يا لها من حذلقة فنّيّة تامّة.

كانت توشك على الاسترسال في الحديث لكنّه تمكّن من رفع يده وإغلاق الجهاز.

* * *

(٥)

في نحو الساعة الخامسة من عصر ذلك اليوم فكَّر عدد كبير من رؤساء تحرير الصحف، الذين طلبوا صور مولي، في أنّ مشكلة صحيفة فيرنون تتمثّل في أنّها لا تتماشى مع متغيّرات الزمان. وكما أشار مقال افتتاحي في إحدى الصحف موجّه إلى القرّاء في صباح يوم الأحد:

يبدو أنّ ما غاب عن رئيس تحرير صحيفة ذا جادج هو أنّ العقد الذي نحيا فيه الآن لا يشبه العقد الماضي. لهذا فإنّ التقدّم الذاتي يمثّل الشعار، في حين أنّ الجشع والنفاق هما حقائق ضارّة. أمّا اليوم فإنّنا نعيش في عصر أكثر عقلانيّة ورحمة وتسامحًا تظلّ فيه أولويّات الأشخاص الخاصّة وغير الضارّة، خاصّة بهم مهما كانت ذات طابع عامّ. وإذا لم تكن هناك قضيّة مفهومة من قضايا المصلحة العامّة فإنّ فنون المبتزّين التي انقضى زمانها والذين يردّدون أنّهم على حقّ ليس لهم مكان، وفي حين لا تريد هذه الصحيفة أن تطعن في الحساسيّات الأخلاقيّة للبراغيث، فإنّها لا

يمكنها إلاّ القبول بالملاحظات التي أُعلن عنها يوم أمس. . .

كانت العناوين على الصفحات الأربع موزّعة توزيعًا متساويًا بشكل أو بآخر على كلمة مبتزّ وكلمة برغوث، ولجأت معظمها إلى استخدام صورة فيرنون التي التقطت أثناء مأدبة أقامتها رابطة الصحافة ويبدو فيها ثملاً، مرتديًا سترة حفل عشاء مجعّدة. وفي عصر يوم الجمعة قام ألفا عضو من التحالف الوردي لمرتدي ثياب النساء بمسيرة صوب دار العدالة وهم يحتذون أحذية نسائيّة بكعوب عالية، ويرفعون إلى أعلى نسخًا من الصفحة الأولى الفضائحيّة، ويعلو صوتهم بغناء ساخر. وفي الوقت نفسه، انتهز حزب البرلمان الفرصة وصوّت بالإجماع على قرار الثقة بوزير الخارجيّة.

وفجأة شعر رئيس الوزراء بالشجاعة كي يتكلّم ويدافع عن صديقه القديم. وبرز إجماع واسع بحلول عطلة نهاية الأسبوع، مفاده أنّ صحيفة ذا جادج قد بالغت بالموضوع، وأنّها صحيفة تثير النفور والاشمئزاز، وأنّ جوليان غارموني كان زميلاً لطيفًا، وأنّ فيرنون هاليداي (البرغوث) خسيسٍ ولا بدّ من قطع رأسه. وفي أيّام الآحاد، أظهرت الصفحات المخصّصة للحياة الاجتماعيّة «الزوجة الجديدة المساندة» التي تتمتّع بحياتها المهنيّة الخاصّة بها والتي كافحت عن موقع زوجها. وركّزت المقالات الافتتاحيّة على بعض المظاهر المهملة الباقية من كلام السيّدة غارموني بما فيها «الحبّ أقوى من الضغينة». أمّا في صحيفة ذا جادج نفسها، فإنّ الموظّفين القدامى كانوا سعيدين لأنّ تحفّظاتهم كانت دقيقة جدًّا، وشعر معظم الصحافيّين أنّ غرانت ماكدونالد أوضح عندما سمعوه يقول

في المطعم إنّه كان يبذل قصارى جهده ليكون مخلصًا إذا لم يستمع أحد إلى هواجسهم. وبحلول يوم الاثنين تذكّر الجميع هواجسه وكيف أنّهم حاولوا أن يكونوا مخلصين.

إلاّ أنّ القضيّة كانت أشدّ تعقيدًا بالنسبة لمجلس إدارة صحيفة ذا جادج الذي عقد جلسة طارئة عصر يوم الاثنين، الحقّ أنّها كانت محاولة للاجتماع، إذْ كيف يمكنهم طرد رئيس التحرير الذي صوّتوا بالإجماع على مساندته يوم الأربعاء الماضي؟

أخيرًا، وبعد ساعتين من التردّد والتحوّل راودت جورج لين فكرة حسنة.

ـ انظر. ليس ثمّة خطأ في شراء هذه الصور. الحقّ أنّه يمكنني أن أخبرك بما يأتي: لقد سمعت أنّه حقّق صفقة جيّدة. لا، كانت غلطة هاليداي متمثّلة في عدم إلغاء الصفحة الأولى في اللحظة التي شاهد فيها مؤتمر روز غارموني الصحافي. كان لديه متّسع من الوقت ليفعل ذلك. لم يكن عليه نشرها إلاّ في طبعة أخيرة. كان مخطئًا الخطأ كلّه عندما قرّر المضيّ في ذلك. وفي يوم الجمعة، صمّما الصحيفة لتبدو مضحكة، وكان ينبغي له أن يعرف من أين ستهبّ الريح وعندئذٍ ينطلق. لو سألتموني، سأقول إنّه إخفاق خطير في قرار التحرير.

* * *

(٦)

في اليوم التالي ترأّس رئيس التحرير اجتماعًا هادئًا مع كبار موظّفيه. وجلس توني مونتانو يراقب ساكنًا إلى جانبه.

ـ آن الأوان لنشر أعمدة أكثر انتظامًا، فهي رخيصة الثمن ويكتبها الجميع. وكما تعلمون، فإنّنا نستأجر شخصًا ما يتراوح مستوى ذكائه بين القليل والمتوسّط، ربّما امرأة كي تكتب، حسنًا، ليس كثيرًا. لقد رأيتم مثل هذا النمط. الذهاب إلى حفلة ولا تتمكّنون من تذكّر اسم شخص ما. ألف ومائتا كلمة.

قال جيريمي بول مقترحًا:

ـ نوع من التفرّس في سُرَّة.

ـ ليس تمامًا. التفرّس ينمّ عن ذكاء كبير، بل أشبه بالحديث عن السرَّة.

قالت ليتيسي موفّرة الدعم:

ـ لا يمكنني تشغيل جهاز الڤيديو الخاصّ بها. هل مؤخّرتي كبيرة أكثر ممّا ينبغي؟

قال رئيس التحرير وهو يهزّ أصابعه في الهواء ليستجمع أفكارهم:

ـ حسنٌ. ليأتوا.

ـ شراء خنزير غينيا.

ـ حالته بعد الثمالة.

ـ شعر عانتها الرمادي الأوّل.

ـ يحصل على عربة السوبر ماركت مع عجلتها المتأرجحة.

ـ ممتاز؟ يروقني ذلك. هارفي؟ غرانت؟

ـ لا يمكنه الاحتفاظ بلسانه خارج الثقب الصغير في سنّه.

قال فرانك:

ـ ممتاز. شكرًا لكم جميعًا. سوف نستأنف الاجتماع يوم غد.

* * *

الفصل الخامس

(١)

ثمّة لحظات في بواكير الصباح، بعد الانبهار المعتدل بالفجر حيث تندفع لندن بصخب نحو العمل، ويختنق اهتياج كلايف الإبداعي في نهاية الأمر تحت وطأة الإنهاك، عندما نهض بنفسه من على البيانو واتّجه صوب المدخل ليُضيء أنوار الاستديو، ونظر إلى الوراء صوب الفوضى الغنيّة والجميلة التي كانت تحيط بعمله، وطافت في ذهنه فكرة عابرة، قليل من الشكّ الذي ما من شأنه أن يشارك أحدًا من هذا العالم فيه ولا يلزم نفسه بصحيفته، والتي كان المفتاح الأساس فيها قد رسمه في ذهنه بامتعاض. كانت الفكرة، بكلّ بساطة، متمثّلة في أنّه ليس من قبيل المبالغة القول بأنّه كان. . . عبقريًا تمامًا عبقريًا. إنّها مفردة عانت كثيرًا من كثرة الاستعمال، لكنّ المؤكّد أنّ هناك مستوًى معيّنًا من الإنجاز، مستوًى ذهبيًا، لا يقبل التفاوض، وراء حدود الفكرة الخالصة. لم يكن هناك الكثيرون من العباقرة. فمن بين أبناء وطنه كان شكسبير عبقريًا، وسمع أنّ داروِن ونيوتن كانا عبقريّين أيضًا. أمّا

بورسل[1]، فإلى حدٍّ ما، وبريتن[2] بدرجة أقلّ، وإن كان ضمن الحدود لكن ليس هناك من هو بمكانة بيتهوفن.

عندما راوده هذا الشكّ بخصوص نفسه ـ وهو ما حدث ثلاث أو أربع مرّات منذ عودته من منطقة البحيرات ـ بدا العالم أكبر حجمًا وأكثر هدوءًا. وفي غمرة الضوء الأزرق المائل إلى الرمادي في ذلك الصباح من شهر آذار، بدا له البيانو الخاصّ به والأطباق والأكواب وكرسي مولي وتنّورتها المتوسّطة الطول وقد اتّخذت شكلاً دائريًا، مذكّرةً إيّاه بمظهر الأشياء التي بدت له ذات مرّة في شبابه عندما تعاطى المسكل، فانتفخ حجمه وازداد أهمّيّة. ورأى الاستديو الذي كان يوشك أن يغادره ليذهب إلى فراشه وهو ما قد يظهر في شريط وثائقي عن نفسه يكشف لعالم يحبّ الاستطلاع ولادة عبقري. ورأى أيضًا الصورة المعكوسة، شخصًا يتسكّع بجانب المدخل مرتديًا قميصًا فضفاضًا قذرًا أبيض اللون، وبنطالاً ضيّقًا جدًّا من الجينز يضغط على بطنه، بعينين مسودّتين وجاحظتين أضناهما التعب: الموسيقار البطل والعزيز في حالة يرثى لها. كانت تلك هي حقًّا اللحظات العظيمة في حقبة إبداع بهيجة تتوالى على نحو لم يعرفه من قبل، تلك اللحظات عندما نهض من عمله في حالة شبه هستيريّة، وهبط السلالم مسرعًا صوب غرفة نومه، فخلع حذاءه ورماه بعيدًا وانسلّ تحت الأغطية ليستسلم لنوم بلا أحلام هو أشبه بخدر مريض، بفراغ، بموت.

---

(١) هنري بورسل (١٦٥٨ ـ ١٦٩٥): موسيقار إنكليزي (المترجم).

(٢) إدوارد بنيامين بريتن (١٩١٣ ـ ١٩٧٦): موسيقار إنكليزي (المترجم).

استيقظ في أواخر العصر واحتذى حذاءه وهبط إلى المطبخ ليأكل من الطبق البارد الذي تركه له مدبّر شؤون البيت. فتح زجاجة نبيذ وحملها معه إلى الاستديو حيث سيجد فيه إبريقًا مملوءًا بالقهوة ويبدأ رحلة جديدة نحو الليل. كان من ورائه موعد نهائي يطارده خلسة مثل وحش حتى يطبق عليه. ففي غضون أُسبوع واحد ينبغي له أن يواجه جوليو بو والفرقة السيمفونيّة البريطانيّة في أمستردام على مدى يومين لإجراء التمرينات، وبعد يومين آخرين هناك بضع سنوات على حلول الألفيّة. كان الضغط غير معقول. فقد أنجز النسخة النهائيّة من الحركات الثلاث الأولى، ودُوِّنت الأجزاء الأوركستراليّة واتّصلت سكرتيرته بضع مرّات لجمع آخر الأوراق من الحركة الأخيرة وانهمك فريق من الناسخين بالعمل. ليس ثمّة فسحة الآن لإلقاء نظرات إلى الخلف، ولا يمكنه الآن إلاّ المضي قدمًا مؤمّلاً إنجاز كلّ شيء قبل حلول الأسبوع المقبل.

تذمّر، ولكنّه ظلّ في أعماقه غير متأثّر بهذا الضغط، لأنّه كان يريد أن يعمل على هذا الأساس، ضائعًا وسط الجهد الجبّار للوصول بعمله إلى نهايته المرعبة. تسلّق السلالم الحجريّة القديمة وتلاشت الأصوات بعيدًا كالضباب، وتراكم لحنه الجديد الذي وصفه على نحو غامض في أولى تمظهراته الوحيدة لآلة ترومبون خافتة، قد جمع من حوله نسيجًا أوركستراليًا ثريًا من التناغم المعقّد، وكذلك تنويعات متموّجة متنافرة تحلّق في الفضاء فلا تظهر مجدّدًا، ولكنّها تجمّعت الآن في عمليّة حشد وكأنّها انفجار يُشاهد عكسيًا فيندفع إلى الداخل صوب نقطة سكون لا هندسيّة. ثم يظهر الترومبون الخافت ليعقبه بنغمة مكبوتة أيضًا، مثل عملاق يتنفّس في

عمليّة شهيق، مشهد اللحن الختامي والهائل (مع فارق مبهم ولكنّه بلا حلّ) يستجمع قواه لينفجر في موجة، كأنّه تسونامي صوتي يتسابق ليصل سرعة مستحيلة، ليعود بعد ذلك، بدرجة أعلى، وعندما يصبح خارج القدرة البشريّة يزداد ارتفاعًا، وفي نهاية المطاف يتحطّم وينكسر ويتفتّت وينهار على الأرض الصلبة الأمينة لمفتاح ج الأصفر. وما يتبقّى هو نوتات تبشّر بقرار وسلام في فضاء نهائي. ويتلو ذلك مقطع صوتي نازل يستغرق خمسًا وأربعين دقيقة يتحلّل إلى مقطع من الصمت. النهاية.

اكتمل اللحن تقريبًا إذْ فرغ فيرنون ليلة الأربعاء وصباح الخميس من إعادة النظر بالمقطع الصوتي النازل وإكماله، وكلّ ما هو مطلوب الآن الرجوع إلى بضع صفحات في التدوين الموسيقي وإلى الجزء الصاخب وتنويع المقاطع المتناغمة وربّما اللحن نفسه أو ابتكار شكل من أشكال الإيقاع الارتجاعي وهو النبر المتأخّر الذي يتداخل مع الجزء الرئيس من النوتات. أصبح هذا التنويع في رأي كلايف ملمحًا أساسيًّا في خاتمة العمل، وهو بحاجة إلى أن يؤشّر إلى مجهوليّة المستقبل. ولمّا عاد ذلك اللحن الذي بات مألوفًا الآن للمرّة الأخيرة، بعد إجراء تغييرات طفيفة ولكنّها مهمّة، فلا بدّ من أن يخلق عنصر الافتقار إلى الأمان في أعماق المستمع. إنّه تحذير ضدّ التشبّث تشبّثًا قويًّا بما نعرفه.

كان في سريره صباح يوم الخميس يفكّر في هذا الأمر ويستسلم للنعاس عندما اتّصل به فيرنون هاتفيًّا. كان النداء الهاتفي مطمئنًا. فقد أراد كلايف الاتّصال به منذ رجوعه، لكن عمله جرفه

بعيدًا وبدا له غارموني والصور وصحيفة ذا جادج أشبه بحبكات ثانويّة في شريط سينمائي قلّما يتذكّره. كلّ ما كان يعرفه هو أنّه لم يرغب في خصام أيّ فرد، ولا سيّما أصدقاؤه القدامى. عندما اختصر فيرنون الحديث واقترح الحضور في مساء اليوم التالي وتناول المشروبات، فكّر كلايف أنّه قد يفرغ في ذلك الوقت. كان من شأنه أن يُدوِّن ذلك التغيّر المهمّ لأنّه لن يستغرق منه أكثر من جلسة ليلة واحدة. ومن شأن الأوراق الأخيرة أن تؤخذ، وعندئذٍ يمكن له أن يطلب من بعض الأصدقاء الحضور والاحتفال معًا. كانت تلك أفكاره البهيجة عندما استلقى لينام. وبدا استيقاظه بعد دقيقتين على صوت فيرنون وتحقيقه المزعج أمرًا مشتّتًا للانتباه.

ـ أريد منك أن تذهب إلى الشرطة الآن لإخبارهم بما رأيت.

هذه هي الجملة التي نبّهت كلايف إلى الحقيقة، وأخرجته من النفق إلى الوضوح. بل إنّ ما فكّر فيه إنْ هو إلاّ رحلة القطار إلى بينريث، وتلك الأفكار نصف المنسيّة ومذاقها المرّ. كانت كلّ عبارة صوت سقّاطة ـ لا عودة إلى الكياسة. سمح كلايف وهو يستعيد ذكرى مولي ـ بمعنى البراز على قبر مولي ـ بطوفان شامل من النقمة أن يغسله. وعندما هدّده فيرنون بعنف بأنّه سيذهب بنفسه إلى الشرطة، شهق ودفع عنه أغطية الفراش ووقف بجوربيه قرب منضدة السرير لتلقّي آخر إهانة. أنهى فيرنون المكالمة الهاتفيّة كما كان من شأنه هو أن ينهيها مع فيرنون. هرع كلايف دون أن يهتمّ بربط شريط حذائه، وهبط السلالم غاضبًا يصبّ اللعنات. لم تكن الساعة قد بلغت الخامسة، لكنّه كان يريد الشراب، إنّه يستحقّ

الشراب ولسوف يضرب الرجل الذي حاول أن يوقفه. لكنّه وحيد والحمد لله. كان الشراب مؤلّفًا من الجن والمياه الغازيّة، ووقف بجانب لوحة تصريف الماء عن آنية الطعام بعد غسلها وشربه دون ثلج أو ليمون وفكّر بمرارة في الغضب. الغضب. كان يصوغ الرسالة التي يودّ إرسالها إلى هذا الحقير الذي أخطأ وحسبه صديقًا. هو بجولته اليوميّة المثيرة للتقزّز وعقليّته المريضة الساخرة وعدوانيّته السلبيّة المشبعة بالنفاق. فيرمين هاليداي الذي لم يعرف شيئًا عمّا يمكن ابتكاره لأنّه لم ينجز شيئًا حسنًا في حياته. وغمره الحقد على من يستطيع فعل ما هو حسن. كان إغراقه في الاحتشام الرثّ الذي تتّسم به الضواحي هو ما يُعدُّ موقفًا أخلاقيًّا. وفي هذه الأثناء كان غارقًا في القذارة حتى أذنيه، بل نصب خيمته فوق البراز من غير ريب، ولكي يعزّز مصالحه البائسة كان سعيدًا في الحطّ من شأن ذكرى مولي وتدمير أحمق ضعيف الشأن مثل غارموني، واستذكار قوانين الكراهية التي تتّصف بها الصحافة الصفراء، وزعم لنفسه على امتداد هذا كلّه، وقال لكلّ فرد من شأنه أن يستمع له ـ وهذا هو الأمر الذي يقطع الأنفاس ـ إنّه ينفّذ واجبه، وإنّه في خدمة مثل رفيع. كان مجنونًا، كان مريضًا، ولم يستحقّ الحياة!

شهدت هذه اللعنات المطبخيّة كلايف على امتداد ثانية من الشراب، وثالثة. كان يعرف من خلال تجربة طويلة أنّ إرسال رسالة في ساعة غضب إنّما تعني وضع سلاح في يدي عدوّك. إنّها سمّ يستخدم بشكل محفوظ ضدّك مستقبلاً. لكنّ كلايف أراد أن يكتب الآن شيئًا ما كتابة دقيقة، لأنّه قد لا يشعر بمثل هذا الشعور

القوي بعد أسبوع. لكنّه توصّل إلى حلّ وسط بأن يرسل بطاقة بريديّة مقتضبة يتركها يومًا كاملاً قبل إرسالها: «أثار تهديدك الهلع فيَّ. كذلك صحافتك. إنّك تستحقّ الطرد. كلايف». ثم فتح زجاجة شابليه، مهملاً السامون آن كروت في الثلّاجة وصعد إلى الطابق الأعلى موطّدًا العزم على البدء بالعمل. وسيأتي الوقت الذي لا يبقى فيه شيء من فيرمين هاليداي، لكنّ الذي سيبقى من كلايف لينلي هي موسيقاه. إنّ العمل، الهادئ الدؤوب، العمل المنتصر، سيكون نوعًا من الانتقام. لكنّ النزعة الاحترابيّة وسيلة مساعدة بائسة للتركيز كما هو شأن ثلاثة كؤوس من شراب الجن وزجاجة نبيذ. وبعد ثلاث ساعات كان لا يزال يحملق في المدوّنة الموسيقيّة على البيانو، بمائة موقف من العمل، بقلم رصاص في يده وبتقطيبة، لا يرى ولا يسمع إلاّ عرض الأرغن اليدوي البديع لأفكاره الدوّامة والجياد الصغيرة والشديدة القدرة على الاحتمال وهي تتمايل بصولجاناتها المزركشة. ها هم آتون مجدّدًا: الغضب! الشرطة! مولي المسكينة! النذل المنافق! أتسمّي ذلك موقفًا أخلاقيًّا؟ غارق في القذارة حتى أذنيه! الغضب! ولكن ماذا عن مولي...؟

في الساعة التاسعة والنصف وقف وقرّر أن يلمّ أطراف شجاعته، ويشرب بعض النبيذ ويستأنف عمله. هناك ثيمته الجميلة، أغنيته، مكتوبة على الورقة، طامعة في شدّ انتباهه، محتاجة إلى تعديل واحد مثير، وها هو الآن، مفعم بالحيويّة والنشاط، جاهز لإجرائه. لكنّه تسكّع في الطابق السفلي، في المطبخ، بعد أن اكتشف ثانية عشاءه، مصغيًا للمذياع وهو يتحدّث عن الطوارق

المغاربة، الرحَّل، فشرب كأسه الثالثة من شراب الباندول ليقوم بجولة في المنزل، عالم إنثروبولوجي يبحث في وجوده. لم يدخل غرفة الجلوس منذ ما يزيد عن الأسبوع، وها هو الآن يتيه في أرجاء الغرفة الفسيحة، ينظر مليًّا إلى اللوحات والصور كأنّه يراها للمرّة الأولى، يمرّر يده من فوق الأثاث ويلتقط بعض الأشياء من فوق رفّ المدفأة. كانت كلّ حياته هنا، في هذا المكان، ويا له من تاريخ حافل. كانت النقود المخصّصة لشراء حتى أرخص الأشياء ثمنًا قد ادّخرها كلايف وهو يحلم بالأصوات، بوضع نوتة موسيقيّة أمام الأخرى. لقد تخيّل كلّ شيء هنا، وأراد أن يكون كلّ شيء هنا، دون مساعدة أحد. وشرب نخب نجاحه، جرعة واحدة، ورجع إلى المطبخ لملء كأسه مجدّدًا قبل أن ينطلق في جولته داخل غرفة الطعام. وفي الساعة الحادية عشرة والنصف عاد ووقف أمام المقطوعة الموسيقيّة التي لم تصبح نوتاتها جاهزة بعد، ولا حتى له، وكان عليه أن يوافق مع نفسه في أنّه ثمل بكلّ معنى الكلمة، لكن من ذا الذي لا يثمل بعد مثل هذه الخيانات؟ ثمّة نصف زجاجة من الويسكي فوق رفّ كتب حملها معه إلى كرسي مولي، وكانت هناك أيضًا مقطوعة لرافيل[1] داخل الجهاز، وكانت آخر ذكرى له عن ذلك المساء متمثّلة في رفعه جهاز التحكّم عن بعد وتوجيهه نحو جهاز تشغيل الأسطوانة.

استيقظ في ساعة مبكّرة تغطّي سمّاعات الأذن وجهه، وإحساس فظيع بالعطش ينتابه جرّاء أحلام بعبور صحراء على كلتا

(١) موريس جوزيف رافيل (١٨٧٥ ـ ١٩٣٧) موسيقار فرنسي (المترجم).

يديه وركبتيه، حاملاً آلة البيانو الوحيد والكبير العائد للطوارق. شرب الماء من صنبور الحمّام واستلقى في فراشه لثلاث ساعات، مفتوح العينين في لجّة الظلام، منهكًا، مفتتًا ويقظًا، مضطرًا مرّة أخرى إلى الاهتمام بأرغنه اليدوي، لا حول له ولا قوّة. حتى رقبته في القذارة؟ موقف أخلاقي! مولي؟

بعد أن استيقظ إثر غفوة قصيرة في وقت الضحى، علم أنّ الترنّح والإسراف في الشراب قد انتهيا. القضيّة ليست هي أنّه مرهق يعاني أثر إسرافه في الشرب. وما إن جلس من وراء البيانو وحاول أن يجرّب بعض التنويعات حتى وجد أنّ هذا المقطع ومجمل الحركة قد تلاشيا ـ وباتا رمادًا في فمه. لم يتجرّأ على التفكير تفكيرًا شديدًا بشأن السيمفونيّة نفسها. وعندما اتّصلت سكرتيرته محاولةً إجراء ترتيبات لجمع الصفحات الأخيرة كان فظًّا معها، واضطرّ إلى الاتّصال بها مجدّدًا ليعتذر. خرج يتمشّى قليلاً كي يستعيد صفاء ذهنه، وأرسل البطاقة البريديّة إلى فيرنون التي تبدو كلماتها اليوم كأنّها آية في الانضباط. وفي طريقه اشترى نسخة من صحيفة ذا جادج. ولأجل حماية تركيزه توقّف عن شراء الصحف أو متابعة أخبار المذياع والتلفاز، وبهذا فاته تصاعد الموقف.

لهذا صُدم في البيت عندما فتح الصحيفة من على منضدة المطبخ. كان غارموني يقف أمام مولي، مرابطًا قبالتها، وآلة التصوير بين يديها الدافئتين، وعينها المفعمة بالألق تؤطّر ما يشاهده كلايف الآن. لكنّ الصفحة الأولى كانت مثيرة للحرج لا بسبب

ضبط رجل في لحظة خاصّة ودقيقة حسب، بل لأنّ الصحيفة اشتغلت من أجل الوصول إلى هذا الموقف وأظهرت للعيان مثل هذه البراعة. الأمر يبدو كأنّ مؤامرة سياسيّة إجراميّة اكتُشفت، أو أنّ جثّة تحت المنضدة في وزارة الخارجيّة. شيء ساذج جدًّا، أُسيء الحكم عليه تمامًا، ولا تعوزه الحماسة. وكانت غير مناسبة أيضًا في الأساليب التي حاولت فيها أن تبالغ بقسوتها. لقد كانت الصورة الحقيرة والمبالغ فيها، على سبيل المثال، والمقال الافتتاحي المتبجّح بتوريته الطفوليّة على كلمة «جرّ» والعبارة المثيرة للناس «ثياب داخليّة في حالة انحراف» وكذلك «ارتداء الثياب» و«نزع الثياب». وعادت الفكرة مجدّدًا: لم يكن فيرنون مثيرًا للقرف حسب، بل لا بدّ أنّه كان مجنونًا. لكنّ ذلك لن يحول دون إثارة قرف كلايف.

استغرقت حالة ما بعد الثمالة طوال عطلة نهاية الأسبوع وكذلك يوم الاثنين ـ لا يتخلّص المرء من العواقب بسهولة في هذه الأيّام ـ ووفّر الغثيان العامّ خلفيّة غير مناسبة لتأمّل مرير. فتأجّل العمل. وتحوّلت الثمرة الناضجة الحلوة المذاق إلى عسلوج، وتحرّق الناسخون شوقًا لتسلّم الصفحات الاثنتي عشرة الأخيرة من المقطوعة الموسيقيّة، واتّصل مدير الفرقة الموسيقيّة ثلاث مرّات، وكان صوته يرتعش وهو في حالة ذعر منضبط. وحُجزت قاعة الموسيقى بدءًا من يوم الجمعة المقبل لإجراء تمرينات على مدى يومين وبكلفة باهظة الثمن. وكان عازفو آلات النقر الموسيقيّة الإضافيّة الذين طلبهم كلايف قد تمّت استعادتهم فضلاً عن عازف الأكورديون. كان جوليو بو قد نفد صبره وهو يتطلّع إلى رؤية

خاتمة العمل واكتمال كلّ الاستعدادات لبرمنغهام. وإذا لم تكن هناك أجزاء مدوّنة كاملة من المقطوعة في أمستردام بحلول يوم الخميس فإنّه ـ أي المدير ـ لن يكون أمامه من خيار سوى إغراق نفسه في أقرب قناة. وممّا يبعث على التهدئة أن يرى المرء معاناة أكبر من معاناته، غير أنّ كلايف لا يزال يرفض إرسال الصفحات، إذْ ظلّ يتشبّث بتنويعاته المهمّة، وبدا يلوح له، على هذا النحو، أنّ مراوغة العمل معتمدة عليه.

يقينًا أنّ هذا تصوّر مدمّر. فعندما دخل الاستديو الآن راعه منظره القذر، وعندما جلس أمام المخطوطة ـ المكتوبة بخطّ رجل أصغر سنًّا وأكثر ثقة وموهبة ـ وجَّه اللوم إلى فيرنون بسبب عدم قدرته على العمل، فازداد حنقه. لقد تشتّت تركيزه. بسبب أحمق. وأصبح واضحًا أنّه لا يستطيع الوصول إلى مخطوطته، إلى قمّة منجز حياته. إنّ من شأن هذه السيمفونيّة أن تعلّم جمهوره كيفيّة الاستماع والإصغاء إلى كلّ ما كان قد ألّفه. والآن ها هو الدليل، البصمة الشخصيّة لعبقري وقد أُتلفت وضاعت منه العظمة، لأنّ كلايف كان يعلم أنّه لن يحاول مجدّدًا التأليف بمثل هذا المستوى. لقد بات منهكًا أكثر ممّا ينبغي، فارغًا أكثر من اللازم، ومتقدّمًا في السنّ. في يوم الأحد، استرخى في غرفة الجلوس يقرأ، وهو في حالة خدر، بقيّة المواضيع المنشورة في عدد يوم الجمعة من صحيفة ذا جادج. العالم لا يزال في فوضاه المألوفة: الأسماك تغيّر من جنسها، كرة المنضدة البريطانيّة فقدت طريقها، وفي هولندا كانت بعض النماذج الكريهة ذات الشهادات الطبّيّة تعرض خدماتها القانونيّة لإزالة أبويك الطاعنين في السنّ

اللذين لم يعودا مناسبين. يا لها من قصّة مثيرة للاهتمام. كلّ ما يحتاج إليه المرء هو بصمة الأبوين المعمّرين بنسختين وبضعة آلاف من الدولارات. وفي وقت العصر قام بنزهة طويلة من حول حدائق الهايدبارك وفكّر طويلاً في هذه المقالة. صحيح أنّه اتّفق مع فيرنون وعليه أن يلتزم بالاتّفاق. ربّما هناك قدر ضئيل من البحث مسموح به، لكنّ يوم الاثنين ضاع في التظاهر بالعمل، الاشتغال بلا طائل حدَّ خداع الذات حتى إنّه فكّر في إهماله عند المساء. كلّ فكرة من أفكاره مثيرة للسأم. لا ينبغي له أن يكون قريبًا من هذه السيمفونيّة. إنّه غير جدير بابتكاره.

وفي صباح يوم الثلاثاء استيقظ على صوت مدير الأوركسترا الذي صرخ به من خلال الهاتف. التمرينات يوم الجمعة، ومع هذا لم تصلهم المقطوعة الموسيقيّة كاملة. وفي وقت لاحق من ذلك الصباح نفسه، سمع كلايف من خلال صديق عبر الهاتف خبرًا مدهشًا. لقد اضطرّ فيرنون إلى الاستقالة! اندفع كلايف إلى خارج البيت لشراء الصحف. لم يكن قد قرأ أو سمع أيّ شيء منذ قراءته عدد يوم الجمعة من صحيفة ذا جادج، وبخلاف ذلك كان في وسعه أن يكون على علم بكيفيّة انقلاب الرأي ضدّ رئيس التحرير. حمل فنجان قهوة إلى غرفة الطعام وقرأ الصحف. ممّا يبعث على الرضا أنّ آراءه عن سلوك فيرنون قد تأكّدت. لقد أنجز واجبه بوساطة فيرنون، وحاول أن يحذّره، إلاّ أنّ هذا لم يرد الإصغاء. وبعد أن قرأ كلايف ثلاثة اتّهامات قاسية جدًّا توجَّه إلى النافذة وحدّق في حزمة من ورد النرجس النامية بجانب شجرة تفّاح في نهاية الحديقة. لا بدّ له من أن يعترف. إنّه يشعر بتحسّن. بداية

الربيع. وسرعان ما سيتمّ تقديم الوقت ساعة. في نيسان، وبعد أن يكون حفل افتتاح السيمفونيّة قد أصبح وراءه، سيسافر إلى نيوروك لزيارة سوزي مارسيلان، ويسافر بعد ذلك إلى كاليفورنيا حيث يشارك في مهرجان بالو آلتو الموسيقي. كان يعرف أنّ أصبعه تنقر على جهاز التدفئة نقرًا ينسجم والإيقاع الجديد. وتخيّل تحوّلاً في المزاج، في المفاتيح، ونوتة موسيقيّة مستدامة رغم تغيّر الهارمونيّات، ونبض وحشي يشبه ضربات على طبلة. استدار وأسرع خارجًا من الغرفة. واتته فكرة، ربع فكرة، وقبل أن تتلاشى لا بدّ له من الجلوس من وراء البيانو.

في الاستديو، دفع الكتب والمقطوعات الموسيقيّة القديمة ووضعها على الأرض ليفسح له مجالاً، وأمسك بورقة مخطّطة وقلم رصاص وكاد أن يبدأ باستهلال موسيقي عندما رنَّ جرس الباب في الطابق السفلي. تجمّدت يده وانتظر. فرنَّ الجرس مجدّدًا. لن يهبط إلى الطابق السفلي، ليس الآن، بعد أن أضحى قاب قوسين من البدء بالتغيير. لا بدّ أنّه شخص يدّعي بأنّه عامل مناجم سابق يريد أن يبيع أغطية لطاولة الكيّ. رنَّ الجرس مرّة أخرى. ثم ران الصمت. لقد رحلوا. وفي لحظة من الزمان تاهت الفكرة الواهية التي كانت قد راودته. ثم مرَّت به مجدّدًا، أو ربّما جزء منها، وكان يوشك على البدء عندما رنَّ جرس الهاتف. كان ينبغي له أن يقفل الجهاز. وفي غمرة انزعاجه التقط السمّاعة.

ـ سيّد لينلي؟

ـ نعم.

ـ الشرطة. سي. آي. دي. قف أمام الباب الرئيس. نريد أن نكلّمك.

ـ آه. اسمع. أفي وسعك الحضور بعد نصف ساعة؟

ـ لا أعتقد ذلك. لديّ بضعة أسئلة لك. أودّ أن أطلب منك الحضور للتعرّف على هويّة شخصيّة في مانشستر. أرجو أن تساعدنا في التعرّف على أحد المشبوهين. لن يستغرق الأمر أكثر من يومين من وقتك. لهذا أرجو أن لا تمانع في فتح الباب يا سيّد لينلي...

* * *

(٢)

في غمرة عجالتها للذهاب إلى عملها، تركت ماندي باب خزانة الثياب مفتوحًا على شكل زاوية سمحت بمرأى يتّهم فيرنون بشريحة ضيّقة وعموديّة من نفسه: كان يستند إلى الوسائد واضعًا كوب الشاي الذي أحضرته له فوق بطنه، وكان وجهه الأبيض المائل إلى الزرقة غير الحليق في الحجرة المعتمة والرسائل والبريد القديم والصحن المبسوطة بجانبه ـ تدلّ كلّها على لوحة البطالة. عاطل. لقد أدرك فجأة تلك العتمة المشيرة إلى صفحة الأعمال. أمامه ساعات من البطالة في صباح هذا الخميس كي يفكّر في كلّ أنواع السخط والمفارقات التي تراكمت بشأن فصله من العمل يوم أمس. الأسلوب الغريب، على سبيل المثال، الذي أرسلت فيه الرسالة إلى مكتبه بوساطة بديل بريء، هو نفسه ذلك البديل المتباكي العاجز عن القراءة الذي أنقذه من الاندفاع. ثم هناك الرسالة نفسها التي تطلب منه بكلّ أدب الاستقالة وتعرض عليه مرتّب سنة كاملة. ثم هناك إشارة خفيّة إلى بنود عقده التي زعم أنّ

المديرين رغبوا في تذكيره، دون تصريح علني، بأنّه إذا ما رفض وأرغموه على فصله فلن يحصل على أيّة مكافأة أو تعويض. واختُتمت الرسالة بالإشارة إلى أنّ عمله سوف ينتهي في كلّ الأحوال في ذلك اليوم، وأنّ مجلس الإدارة يرغب في تهنئته عن فترة رئاسة تحريره المذهلة ويتمنّى له التوفيق في خططه المستقبليّة. هكذا إذًا. لا بدّ له من الانتهاء الآن، ويمكنه أن يغادر موقعه مع التعويض أو بدونه والذي يتكوّن من ستّة أرقام.

أشار فيرنون في رسالة استقالته إلى أنّ التوزيع ارتفع إلى أكثر من مائة ألف نسخة. كانت كتابة الأرقام والأصفار تؤلمه. ولمّا ذهب إلى المكتب الخارجي وسلّم المظروف إلى جين، صعب عليها النظر إلى عينيه. وكان المبنى يلفّه صمت مطبق وغريب عندما رجع لجمع مقتنياته من فوق مكتبه. وأخبرته غريزته بأنّ الجميع يعرفون بأمره. ترك بابه مفتوحًا إذْ قد يشعر أيّ فرد برغبة في المجيء والتعبير عن مشاعره على امتداد طريق الصداقة. كانت المقتنيات التي يريد جمعها تكفي لوضعها في حقيبته ـ صورة بإطار لماندي والأطفال، ورسالتان خليعتان من دانا مكتوبتان على ورق مجلس العموم. وبدا أنّ ما من أحد كان يريد الدخول والتعبير عن عواطفه الجيّاشة. ما من حشد من الزملاء بقمصانهم ذات الأكمام الطويلة يدقّ بابه على الطريقة القديمة. حسنًا إذًا. ها هو راحل. اتّصل بجين وأخبرها بأن تبلغ السائق أنّه قادم. فاتّصلت لتخبره أنّه لم يعد لديه سائق.

ارتدى معطفه وحمل حقيبته واتّجه نحو المكتب الخارجي.

كانت جين قد أشغلت نفسها بمهمّة عاجلة خارجًا، لذلك لم يصادف أحدًا إطلاقًا عندما توجّه إلى المصعد. وكان الشخص الوحيد الذي ودَّع رئيس التحرير هو حارس المبنى الجالس من وراء مكتبه في الطابق السفلي، وكان هو الذي أخبر فيرنون بخلفه. السيّد ديبين يا سيّدي. وتمكّن فيرنون بإيماءة صغيرة من رأسه من التظاهر بأنّه كان يعرف بذلك. ولمّا خطا خارج مبنى جادج هاوس كانت السماء تمطر. رفع يده ملوّحًا لسيّارة أجرة ثم تذكّر أنّه لا يملك إلاّ كمّيّة قليلة من النقود. فما كان منه إلاّ أن استقلّ قطار الأنفاق وسار نصف الميل الأخير إلى بيته تحت المطر المنهمر. وذهب مباشرة لتناول شراب الويسكي، وعندما دخلت ماندي حدث شجار فظيع بينهما، في حين أنّها لم تكن تسعى إلاّ إلى طمأنته والترويح عنه.

تهالك فيرنون فوق أحد الكراسي مع شايه في حين ردّد ذهنه الشتائم والإهانات. لم يكن كافيًا أنّ فرانك ديبين كان خائنًا، وأنّ كلّ زملائه هجروه، وأنّ كلّ الصحف كانت تبتهج بطرده، لم يكن كافيًا أنّ البلد احتفل بالقضاء على البرغوث، وأنّ غارموني لا يزال فارًّا لم يُقبض عليه بعد. كان إلى جانبه فوق السرير بطاقة بريديّة صغيرة سامّة تبتهج بسقوطه كتبها أقدم أصدقائه، كتبها رجل وصل به السموّ الأخلاقي حدًّا أنّه كان يفضّل مشاهدة امرأة تُغتصب أمام ناظريه على أن يتعطّل عمله. كريه ومجنون تمامًا. انتقامي. هي الحرب إذًا. حسنًا إذًا. هيّا بنا دون تردّد. احتسى كوبه وأمسك بسمّاعة الهاتف واتّصل بصديق في مكتب نيو سكوتلاند يارد ترقى معرفته به إلى أيّام عمله قديمًا في مكتب الجريمة. وبعد خمس

عشرة دقيقة كانت كلّ التفاصيل معروفة وأنجزت المهمّة، لكن فيرنون كان لا يزال منشغل البال بأفكاره، غير مقتنع حتى الآن. وتبيّن أنّ فيرنون لم يخالف القانون ولن يرغم على إنجاز مهمّته، لا شيء أكثر من ذلك. لكن لا بدّ ممّا هو أكثر من ذلك. لا بدّ من عواقب. فكّر فيرنون ساعة أخرى وهو في سريره في هذا الموضوع حتى نهض أخيرًا وارتدى ثيابه، على رغم أنّه لم يحلق ذقنه، وأنفق الصباح يضيع الوقت سدًى في أرجاء البيت، رافضًا الردّ على الهاتف. وعلى سبيل الترفيه عن نفسه، أخرج طبعة يوم الجمعة. وكانت الحقيقة متمثّلة في أنّ الصفحة الأولى منها كانت رائعة. أمّا الآخرون فكانوا مخطئين. وكانت بقيّة صفحات الجريدة رائعة جدًّا، كما أنّ ليتيسي أوهارا أنجزت القصّة الهولنديّة على نحو يبعث على الافتخار. في يوم ما، خاصّة إذا ما تبوّأ غارموني منصب رئيس الوزراء وأضحت البلاد في حالة دمار فإنّ الشعب سوف يندم لأنّه طرد فيرنون هاليداي من منصبه.

لكنّ العزاء كان قصير الأمد لأنّ ذلك هو المستقبل وهذا هو الحاضر، الحاضر الذي فُصِل فيه من وظيفته. كان في منزله في الوقت الذي كان ينبغي له أن يكون في المكتب. لم يكن يعرف إلاّ عملاً واحدًا وليس هناك من يمنحه إيّاه الآن. لقد ضاعت كرامته وبلغ من الكبر ما لا يفيد معه أيّ تدريب جديد. كان عزاؤه قصيرًا أيضًا لأنّ أفكاره ظلّت تعود إلى تلك البطاقة البريديّة الكريهة، السكّين الملتوية، الملح في جروح متعدّدة. وبمرور النهار أصبحت تمثّل كلّ الإهانات الكبيرة والصغيرة في الساعات الأربع والعشرين الماضية. لقد جسّدت تلك الرسالة المقتضبة التي بعث بها إليه

كلايف وكثّفت كلّ سموم قضيّته ـ عمى متّهميه، ونفاقهم، وانتقامهم، وخوف كلّ ذلك العنصر الذي عدَّه فيرنون أسوأ الرزايا البشريّة ـ الخيانة الشخصيّة.

في لغة تؤكّد الاصطلاحات كاللغة الإنكليزيّة، يُتوقّع أن تظهر فرص للقراءات غير الدقيقة. ويمكن بتحريك التوكيد إلى الوراء أن يغدو الفعل اسمًا، أمّا رفض ـ التوكيد على قول لا لما تعتقد أنّه خطأ ـ فيصبح بضربة واحدة رفضًا ـ كومة، هائلة من النفايات. وينطبق الأمر على الكلمات مثلما ينطبق على الجُمَل. لقد عزم كلايف في يوم الخميس على أن يكتب ويرسل بالبريد عبارة «أنت تستحقّ الطرد» أمّا الشيء الذي كان على فيرنون أن يفهمه في يوم الخميس في أعقاب طرده فهو «أنت تستحقّ الطرد». لو أنّ البطاقة البريديّة وصلت في يوم الاثنين لقرأها قراءة مغايرة. هذه هي الطبيعة الهازلة في قدرهم. كان من شأن طابع من الدرجة الأولى أن يفيد كلا الرجلين فائدة كبيرة. من جهة ثانية، ربّما لم تتوافر أيّة نتائج أخرى لها وهذه هي طبيعة مأساتهم. وإذا كان الأمر كذلك، فإنّ من شأن فيرنون أن يزيد من مرارته بمرور النهار وأن يفكّر، على نحو انتهازي، بشأن الاتّفاق الذي توصّل إليه الرجلان قبل زمن ليس هو بالمطلوب، وبشأن المسؤوليّات الرهيبة التي أُلقيت على عاتقه؛ إذْ يبدو واضحًا أنّ كلايف فَقَدَ صوابه ولا بدّ من عمل شيء ما. وتأكّد هذا الإصرار بإحساس فيرنون، في وقت كان العالم يعامله معاملة سيّئة، وكانت حياته محطّمة، ولم يعامله أحد معاملة أسوأ من معاملة صديقه القديم وهو ما لا يمكن غفرانه، وهو جنون، ويمكن أن يُصاب به أولئك الذين يفكّرون في ظلم،

وإنّ طعم الانتقام يمكن أن يرتبط ارتباطًا نافعًا بالإحساس بالالتزام والواجب. انقضت الساعات وأمسك فيرنون نسخته من صحيفة ذا جادج عدّة مرّات ليقرأ مجدّدًا عن الفضيحة الطبّيّة في هولندا. وفي وقت لاحق من النهار أجرى بعض الاتّصالات الهاتفيّة، ومرّت ساعات أطول من دون عمل وهو جالس في المطبخ يحتسي القهوة ويفكّر بتحطّم حياته المستقبليّة، ويتساءل إن كان عليه أن يتّصل هاتفيًّا بكلايف ويتظاهر بأنّه يريد السلام وذلك كي يدعو نفسه إلى أمستردام.

* * *

(٣)

هل كلّ شيء على ما يرام؟ هل تذكّر كلّ شيء؟ هل هو قانوني حقًّا؟ تأمّل كلايف هذه الأسئلة من خلال موقع طائرة البوينغ ٧٥٧ الرابضة تحت الضباب المتجمّد في الجزء الشمالي من مطار مانشستير. كان يفترض بالطقس أن يتحسّن، وأراد قبطان الطائرة أن يحافظ على مكانه في خطّ الإقلاع. لهذا جلس المسافرون في صمت مطبق وقد ارتاحوا لمرأى عربة المشروبات. كان الوقت منتصف النهار، وطلب كلايف قهوة وبراندي وشكولاته. كان مقعده بجوار النافذة في صفّ من كراسٍ خالية من الركّاب. واستطاع من خلال فسحات في الضباب أن يشاهد طائرات أخرى، منتظرة في صفوف رثّة متتالية بدا شكلها ينمّ عن تأمّل وغلظة: عيون مشقوقة من تحت عقول صغيرة، ذراعان مثقلتان بحركات بهلوانيّة ومؤخّرة نافرة إلى أعلى ومسودّة ـ لا يمكن لمثل هذه المخلوقات أن تهتمّ إحداها بالأخرى.

كان الجواب بنعم، لأنّ بحثه وتخطيطه كانا دقيقين جدًّا. ولا

بدّ أن يحدث ذلك فانتابه إحساس بالإثارة. رفع يده ملوّحًا للفتاة المبتسمة ذات القبّعة الزرقاء والتي بدا عليها الانشراح شخصيًّا لقراره باختيار المنمنمة الثانية والافتخار بإحضارها إليه. على أيّة حال، وفي ضوء ما مرَّ به والمعاناة التي تنتظره واليقين بأنّ الأحداث سوف تزداد سرعتها الآن زيادة مذهلة، إلاّ أنّه لم يشعر بأنّه في حالة سيّئة جدًّا. سوف تفوته الساعات الأولى من التمرين، لكنّ الأوركسترا التي تشقّ طريقها من خلال مقطوعة جديدة ـ إنّما تكون قد أنجزت شيئًا مثيرًا.

ربّما يكون معقولاً أن يفوته معظم النهار الأوّل. لقد طمأنه المصرف مجدّدًا بأنّ حمل عشرة آلاف دولار أميركي معه في حقيبته إنّما هو عمل مشروع ولا يخالف القانون، ولا يحتاج إلى أن يكشف عنه في مطار شيفول. أمّا بخصوص مركز شرطة مانشستر، فكان قد عالج الموضوع معالجة مقتدرة كما ظنّ، وكان في وسعه أن يحسّ تقريبًا بلمسة حنان للمحيط الذي يطوّقه وإلى الرجال المعذّبين الذين اشتغل وإيّاهم على أحسن وجه.

عندما عاد كلايف من محطّة سكّة الحديد وهو في أعلى درجات الاكتئاب، بعد أن لعن فيرنون في كلّ ميل أثناء طريقه من بوستن، جاء رئيس المفتّشين بنفسه إلى المكتب الأمامي للترحيب بالموسيقار الكبير. كان يبدو عليه أنّه شديد الامتنان لأنّ كلايف تحمّل عناء السفر من لندن لتقديم يد العون في هذه القضيّة. حقًّا لم يبدُ أحدٌ ما منزعجًا لأنّه لم يأتِ منذ وقت مبكر. لقد بلغت بهم السعادة أوجها، كما قال مختلف رجال الشرطة، كي يساعدهم في

هذه الجريمة المحدّدة. وعندما أعلن تصريحه في المقابلة أدرك اثنان من رجال التحرّي، كما قالوا له، مدى صعوبة تأليف سيمفونيّة ضمن مدّة زمنيّة معيّنة ومدى معاناته عندما كان يجثم من وراء الصخرة. بدوا حريصين على أن يفهموا كلّ الصعوبات المرتبطة بتأليف اللحن الحاسم. أفي وسعه أن يدندن به؟ يقينًا يستطيع. فبين الحين والآخر، كان أحدهم يقول: الآن عد بنا إلى ما رأيته في هذا الرجل. وتبيّن أنّ رئيس المحقّقين كان يدرس لنيل شهادة في اللغة الإنكليزيّة في الجامعة المفتوحة وأنّه مهتمّ اهتمامًا خاصًّا بالشاعر بليك. وفي المطعم، وأثناء تناول شطائر اللحم، أثبت المفتّش أنّه يعرف عن ظهر قلب جلّ «شجرة سمّ» وكان في مستطاع كلايف أن يخبره عن إطار تلك القصيدة المشابهة التي تعود إلى عام ١٩٧٨ والتي مُثّلت في مهرجان الديبرة في العام الذي يليه مع بيتر بيرز، ولم تُمثّل بعد ذلك. وفي المطعم، ثمّة طفل في الشهر السادس من عمره نائم فوق كرسيّين متقابلين، على حين كانت الأمّ في زنزانة موصدة في الطابق الأرضي وهي تتعافى إثر حفلة شرب. وعلى امتداد اليوم الأوّل سمع كلايف في بعض الأحيان صرخاتها وآهاتها الحزينة تنساب إلى أعلى بيت السلّم.

وسُمح له بالوصول إلى قلب مخفر الشرطة حيث تُوجّه التهم إلى الناس. وفي بداية المساء وفي حين كان ينتظر لمراجعة بيانه مجدّدًا، شهد مشادّة أمام الرقيب المكلّف بالواجب. ثمّة مراهق ضخم الجثّة، يتفصّد عرقًا، حليق الرأس عُثر عليه مختبئًا في حديقة خلفيّة ومعه آلة حادّة لقطع الأقفال فضلاً عن مفاتيح معدّة لفتح أقفال متعدّدة، ومطرقة ثقيلة ومنشار، مخفيّة كلّها تحت معطفه.

وأصرَّ على أنّه ليس لصًّا وأنّه لم يكن في طريقه إلى الزنزانات. ولمّا أخبره الرقيب أنّه لصّ حقًّا، ضرب المراهق الشرطي على وجهه، لكنّ شرطيّين أسرعا وطرحاه أرضًا وقيَّدا يديه وأخرجاه. لم يبد الانزعاج على أحد، ولا حتى الشرطي ذو الشفة المشقوقة، لكنّ كلايف وضع يده المطمئنة على قلبه الخفَّاق فاضطرّ إلى الجلوس. وفي وقت لاحق دخل شرطي خافر حاملاً طفلاً شاحب الوجه، صامتًا، له من العمر أربعة أعوام عثر عليه تائهًا في موقف السيّارات قرب حانة مهجورة. وبعد مدّة من الزمن جاءت أسرة إيرلنديّة تذرف الدموع لاستعادته. كما جاءت فتاتان تقضمان شعرهما، هما توأمان لأب عنيف، طلبًا للحماية فعوملتا معاملة حميميّة. كما قدّمت امرأة ينزف الدم من وجهها شكوًى ضدّ زوجها. وثمّة سيّدة سوداء طردتها كنّتها وليس لها من مأوى تأوي إليه. وجاء باحثون اجتماعيّون وخرجوا وبدوا جميعًا من ذوي النزعات الإجراميّة، أو من أصحاب الحظّ السيّئ، أُسوةً بموكّليهم. كانوا يدخّنون كلّهم. كما بدوا جميعًا مرضى من تحت نور المصباح. ثمّة كمِّيّة كبيرة من الشاي اللاسع في أقداح بلاستيكيّة، وكثير من الصراخ وشتائم مبتذلة لا حياةِ فيها، وتهديدات بقبضات محكمة لا يأخذها أحد على محمل الجدّ. إنّهم أسرة واحدة كبيرة لا تعرف للسعادة طعمًا، كثيرة المشاكل الأسريّة لا يمكن حلّها بسبب طبيعتها. وهذه هي غرفة جلوس الأسرة، تضاءل كلايف من وراء شايه الأحمر الشبيه بلون القرميد الأحمر. كان ينذر في عالمه أن يرفع أحد ما صوته، ووجد نفسه طوال المساء في حالة من الانفعال المنهك، كلّ فرد من عامّة الناس رثّ

الثياب، سواء كان داخلاً طوعًا أم لا، وبدا لكلايف أنّ مهمّة الشرطة الأساسيّة تتمثّل في معالجة نتائج الفقر غير المتوقّعة، والتي لا حصر لها، بطول أناة لا قبل له بها، وبحساسيّة أقلّ من حساسيّته.

سبق أن أطلق عليهم ذات يوم صفة خنازير، وجادل أثناء ثلاثة أشهر من الغزل بالفوضويّة في العام ١٩٦٧ بأنّهم سبب الجريمة، وأنّ اليوم آتٍ عندما لا تكون هناك أيّة ضرورة لهم. كان يُعامل طوال المدّة التي كان فيها هناك معاملة تنمّ عن مجاملة واحترام. ويبدو أنّه راق لرجال الشرطة. وفكّر كلايف إن كانت هناك أيّة سجايا يملكها ولكنّه لا يعرف شيئًا عنها ـ رابط الجأش، جاذبيّة هادئة وربّما السلطة أيضًا. وبحلول موعد التعرّف على الهويّة في وقت مبكّر من صباح اليوم التالي كان توّاقًا إلى عدم خذلان أيّ شخص. أُرشد إلى فناء وراء موقف السيّارات التي تؤدّي واجب الدوريّة فرأى دزّينة من الرجال يقفون قرب جدار. وعلى الفور شاهد رجله، الثالث من جهة اليمين، ذا الوجه الطويل النحيف والقبّعة المصنوعة من القماش التي تشي بما يحاول أن يخفيه. يا لها من راحة. ولمّا عادوا إلى الداخل مجدّدًا أمسك أحد رجال التحرّي بذراع كلايف وضغط عليها دون أن يقول كلمة واحدة. من حوله جوّ ينمّ عن الابتهاج الخفي، بل إنّ كلّ واحد أعجب به أكثر من الآخر. كانوا يعملون كأنّهم فريق في الوقت الراهن، وقبل كلايف دوره بوصفه شاهدًا أساسيًّا. وفي وقت لاحق جرى استعراض ثانٍ، لكنّ نصف الرجال كانوا يعتمرون قبّعات في هذه المرّة، وكانوا كلّهم من ذوي الوجوه الطويلة والنحيفة. غير أنّ

كلايف لم تنطل عليه الحيلة وعثر على الرجل في النهاية ولم يكن معتمرًا قبّعة. وفي داخل المبنى أخبره رجال التحرّي أنّ هذا العرض الثاني لم يكن مهمًّا جدًّا، وأنّهم قد يغضّون النظر عنه لأسباب إداريّة. إلاّ أنّهم، على وجه العموم، أعربوا عن ابتهاجهم لالتزامه بالقضيّة، ولينظر إلى نفسه على أنّه شرطي شرف. كانت لديهم سيّارة دوريّة مقرّر لها أن تتّجه إلى المطار. أيرغب في الذهاب إلى ذلك الاتّجاه؟

وصل أمام مبنى المطار، وفيما هو يترجّل من المقعد الخلفي ويلقي تحيّة الوداع، تنبّه إلى أنّ الشرطي الجالس في مقعد السائق هو الرجل نفسه الذي شخّص هويّته في المرّة الثانية أثناء العرض. لكن لم يجد كلايف ولا السائق نفسه ضرورة في التعليق على هذه الحقيقة عندما صافح أحدهما الآخر.

* * *

(٤)

تأخّرت الرحلة ساعتين للوصول إلى مطار شيفول. وهناك استقلّ كلايف القطار المتّجه إلى المحطّة المركزيّة ومنها انطلق على قدميه إلى فندقه تحت ضوء الأصيل الرمادي الخابي. وبينما كان يعبر الجسر عادت إليه مجدّدًا، كم هي هادئة ومتحضّرة مدينة أمستردام. انحرف في سيره انحرافًا كبيرًا نحو جهة الغرب كي يسير على امتداد بروير غراشت. كانت حقيبة ثيابه خفيفة جدًّا على أيّة حال. ممّا يبعث على الارتياح أن يكون للمرء قوام من الماء في منتصف الشارع. يا له من مكان متسامح، واسع الأفق وناضج: فقد تحوّلت المخازن المشيّدة بالقرميد الجميل والخشب المنحوت إلى شقق تنمّ عن ذوق رفيع، وجسور فان كوخ المتواضعة وأثاث الشارع، فضلاً عن الهولنديّين الذين يقودون درّاجاتهم فيما يجلس من خلفهم أبناؤهم ذوو الرؤوس المسطّحة. وبدا أصحاب الدكاكين أنفسهم وكأنّهم أساتذة جامعات، وزبّالو الشوارع أشبه بعازفي موسيقى الجاز. ما من مدينة غيرها بمثل هذا النظام

العقلاني. وفيما هو يسير على امتداد الشارع فكّر في فيرنون وفي السيمفونيّة. هل تحطّم عمله أم أُصيب بضرر بسيط؟ ربّما لم يتضرّر كثيرًا بل أُصيب بلطخة وعلى نحو لا يستطيع أن يفهمه أحد غيره. لقد خُدع خديعة مدمرّة بأعظم لحظاتها. كان يهاب حفل الافتتاح، وفي إمكانه أن يقول لنفسه الآن، وبكلّ الإخلاص الذي يعذّبه، إنّه بإعداده جميع الترتيبات بالإنابة عن فيرنون، فإنّه (أي كلايف) لم يكن يفعل ما هو أكثر من الوفاء بكلمته. فإذا كان فيرنون يرغب في المصالحة وعليه لهذا السبب أن يأتي إلى أمستردام فتلك ليست سوى مصادفة أو فرصة مناسبة. لقد قبل بهذا المصير الذي آل فيه، في مكان ما من قلبه، القلق الذي بات أسود اللون. إنّه يسلّم نفسه إلى كلايف.

أوصلت هذه التأمّلات كلايف إلى فندقه أخيرًا حيث علم أنّ حفل الاستقبال لهذه الليلة سيكون في الساعة السابعة والنصف. واتّصل من غرفته بالطبيب الطيّب لمناقشة الترتيبات ومعها وللمرّة الأخيرة الأعراض: السلوك غير المتوقّع والغريب واللااجتماعي تمامًا، والأوهام بالعجز. شخصيّة مفكّكة. ونوقشت قضيّة ما قبل الدواء. وكيف يتمّ تحديده؟ عرضت عليه فكرة تناول كأس من الشمبانيا فأدرك كلايف أنّ ذلك يشكّل ضربة على الوتر المناسب.

لا تزال هناك ساعات من التمرين. وبعد أن وضع نقوده في مظروف وسلّمها للاستقبال، أشار إلى البوّاب ليوقف له سيّارة أجرة خارج الفندق. وفي غضون دقائق وصل مدخل الفنّانين الكائن في جانب كونسير غيباو. وفيما هو يمرّ من أمام البوّاب ويفتح الباب

الدوّار المؤدّي إلى السلالم، تناهى إلى سمعه صوت الفرقة الأوركستراليّة. الحركة الأخيرة. لا بدّ أنّها كذلك. وحين كان يرتقي السلالم كان يقوم بعمليّة تصحيح للمقطع. ينبغي لنا أن نسمع الآن صوت البوق الفرنسي، وليس آلات الكلارنيت، وكانت علامات الطبول متمثّلة في العزف على آلة البيانو. هذه هي موسيقاي. بدا الأمر كأنّ أبواق صيد تناديه، تستدعيه ليعود إلى نفسه. كيف استطاع أن ينسى؟ غذَّ في سيره. كان يمكنه سماع ما كان قد كتبه. كان يسير نحو شيء يجسّده شخصيًّا. كلّ تلك الليالي بمفرده. الصحافة الكريهة. آلن كراغز. لماذا هدر الوقت طوال العصر، لماذا تراه يؤخّر اللحظة؟ كانت محاولة ليحول بينه وبين الإسراع في السير على امتداد الدهليز المنحني الذي يلتفّ من حول الصالة. دفع الباب وتوقّف.

لقد وصل تمامًا، مثلما كان قد عزم على ذلك، إلى المقاعد الأماميّة الكائنة من فوق الفرقة الأوركستراليّة ومن ورائها، بل من وراء العازفين على آلات النقر. لم يكن في وسع العازفين رؤيته، لكنّه كان أمام مرأى قائد الفرقة. لكنّ عيني جوليو بو كانتا مغمضتين. كان يقف على أطراف أصابعه يشرئبّ إلى أمام، تمتدّ ذراعه اليسرى باتّجاه الفرقة الأوركستراليّة لترفع أصابعه المفلطحة والمرتعشة برفق من صوت آلة الترومبون التي نقلت الآن نقلاً عذبًا وحكيمًا وتضافريًّا البيان الأوّل الكامل من لحن «نيسون دورما» لنهاية القرن، اللحن الذي دندن به كلايف أمام رجال التحرّي يوم أمس، والذي كان على استعداد لأن يضحّي من أجله بجوّال مجهول الهويّة. وعن وجه حقّ. وفي حين أخذت فيه النوتات

تتّسع، ووضع عازفو الآلات الوتريّة أقواس آلات الكمان ليطلقوا أوّل همسات مستدامة من ألحانهم المنسجمة المنسابة، تسلّل كلايف بهدوء إلى مقعد وشعر أنّه ينتشي بحبور. بدأ النسيج يتضاعف الآن بدخول آلات أخرى إلى تضافر آلة الترومبون، وانتشر تنافر الأصوات انتشار العدوى، وتطايرت شظايا صغيرة قويّة ـ وهي تنويعات لن تؤدّي إلى شيء ـ وكأنّها شرارات اصطدمت أحيانًا لتنتج أولى التلميحات لجدار الصوت المتسارع، المدّ البحري، الذي بدأ يرتفع الآن، وسرعان ما سوف يكتسح كلّ شيء في طريقه قبل أن يحطّم نفسه على صخرة المفتاح. لكن قبل أن يحدث هذا ضرب قائد الفرقة الأوركستراليّة بعصاه على مكتبه، فانصاعت الفرقة على مضض. انتظر بو حتى تصمت آخر آلة موسيقيّة. وعندئذٍ رفع كلتا يديه باتّجاه كلايف وناداه:

ـ مرحبًا بك يا قائد الفرقة.

التفت كلّ عضو من أعضاء الفرقة الأوركستراليّة السيمفونيّة البريطانيّة عندما نهض كلايف واقفًا على قدميه. ولمّا ارتقى الدرج إلى خشبة المسرح تعالى صوت أقواس آلات الكمان على مساند الموسيقى، ودوّى صوت بوق بنغمة ذكيّة ذات أربع نوتات مأخوذة عن كونشرتو دي الكبير، لكلايف نفسه وليس لهايدن. آه، أن تكون في قارّة أوروبا بصفة قائد فرقة موسيقيّة! يا له من بلسم. عانق جوليو وصافح يد القائد وشكر العازفين بابتسامة وانحناءة صغيرة ويدين مرفوعتين قليلاً إلى أعلى كأنّه يستسلم استسلامًا متواضعًا. ثم استدار نحو قائد الفرقة ليهمس في أذنه. لن يتحدّث كلايف

اليوم إلى الفرقة بخصوص المقطوعة الموسيقيّة، بل سيتحدّث في الصباح عندما يكون الجميع رائقين. كان في تلك اللحظة سعيدًا كي يجلس ويستمع حسب. وأضاف نوتته الخاصّة بآلة الكلارينت والأبواق الفرنسيّة والبيانو الطبلي.

قال جوليو بسرعة:

ـ نعم، نعم. لقد رأيته.

وعندما عاد كلايف إلى مقعده لاحظ مدى صرامة وجوه العازفين. كانوا يشتغلون طوال النهار، ومن شأن الاستقبال في الفندق أن يرفع يقينًا من معنويّاتهم. تواصل التمرين، وكان بو يهذّب المقطوعة التي سمعها توًّا، مصغيًا لمختلف المقاطع الأوركستراليّة كُلاًّ على حدة، طالبًا إجراء تعديل في العلامات المتّسقة وفي غيرها. حاول كلايف من موقعه الجالس فيه أن يحول دون تركيز اهتمامه على التفاصيل الفنِّيّة، لأنّ هذه اللحظة هي اللحظة الموسيقيّة، لحظة تحوّل الفكرة تحوّلاً مذهشًا إلى صوت. مال إلى أمام، مغمض العينين، مركّزًا على كلّ جزء سمح به بو. عمل كلايف في بعض الأحيان عن جدّ في مقطع موسيقي حتى إنّه يكاد أن يفقد هدفه النهائي وهو خلق هذه المتعة على الفور وعلى نحو حسّي ومجرّد، وليترجم إلى هواء متذبذب هذه اللالغة ذات المعاني التي يتعذّر الوصول إليها، المعلّقة في نقطة حيث تندمج فيها العاطفة والعقل. ولم تذكّره بعض المقاطع في النوتات بما هو أكثر من الجهد المبذول مؤخّرًا لكتابتها.

كان بو منهمكًا الآن في المقطوعة التالية، التي لم تكن خفوتًا

تدريجيًا في شدّة النغمة قدر ما كانت صوتًا يتوارى بعيدًا، واستحضرت الموسيقى عند كلايف فوضى الاستديو الخاصّ به تحت ضوء الفجر والشكوك التي راودته عن نفسه، ولم يتجرّأ على تجسيدها. عظمة. أتراه مغفّلاً بسبب تفكيره على هذا النحو؟ لا بدّ من وجود لحظة واحدة من الاعتراف بالذات، وهي لحظة ستبدو يقينًا وعلى الدوام لحظة غير معقولة.

حان الآن دور الترومبون مجدّدًا ودور تزايد شدّة النغمة المتشابكة، نصف الخافتة التي تدفّقت في نهاية المطاف في بيان نهائي للحن، يجمع الأصوات كلّها على نحو كرنفالي مدوٍّ. لكنّه لحن غير متنوّع، ولا يُقاوم. دفن كلايف وجهه في يديه، إذْ كان محقًّا في قلقه. إنّها بضاعة متضرّرة. كان قبل سفره إلى مانشستر قد ترك الصفحات تمضي على سجيّتها، إذْ لم يكن لديه أيّ خيار آخر. أمّا الآن، فإنّه لا يستطيع أن يتذكّر التغيّر الدقيق الذي يوشك أن يدخله. كان يتعيّن على هذا الجزء أن يمثّل لحظة توكيد انتصار السيمفونيّة، لحظة تجمّع كلّ ما هو إنساني قبل أن يحلّ الدمار. أمّا أن تقدّم المقطوعة على هذا النحو، كأنّها تكرار بسيط لأقصى شدّة في العزف، فذلك ليس سوى جعجعة بسيطة، وانحطاط من الجزالة إلى الركاكة، بل أقلّ من ذلك: إنّها فراغ لا يمكن أن يملأه إلاّ الانتقام.

ولمّا كانت المدّة الزمنيّة المخصّصة للتمرينات آخذة بالنقصان فقد ترك بو الفرقة الموسيقيّة تعزف حتى النهاية. تهالك كلايف فوق مقعده، وبدا كلّ شيء له مختلفًا الآن. فمغزى المقطوعة يتحلّل إلى

موج مدّي من الأصوات المتنافرة ويزداد حجمًا ـ لكنّه بدا غير معقول تمامًا، شأنه شأن عشرين فرقة أوركستراليّة متناغمة مع نوتة تكوّن أحد المقامات الموسيقيّة. لم تكن متنافرة قطّ، لأنّ كلّ آلة موسيقيّة كانت تعزف حقًّا النغمة نفسها، بل كانت طنينًا، وكانت قربة عملاقة بحاجة إلى إصلاح. ولم يكن في وسعه أن يسمع إلاّ نغمة مقام موسيقي يُقذف بها من آلة إلى آلة. وفجأة تبيّن أنّ موهبة كلايف في النبرة التامّة كانت مصيبة. كان ذلك المقام الموسيقي يحفر في رأسه، وأراد أن يهرب من القاعة، لكنّه كان أمام مرأى جوليو تمامًا، وكانت عواقب ترك التمرين قبل أن ينتهي لا يمكن التفكير فيها. لهذا السبب غار أكثر في مقعده ودفن وجهه في حالة من التركيز العميق، وتعذّب حتى ران الصمت الأخير في نهاية المطاف.

تمّت الموافقة على أن يعود كلايف إلى الفندق بسيّارة قائد الفرقة وهي من طراز رولزرايس واقفة أمام مدخل الفنّانين، لكن بو كان مشغولاً في مهامّ الفرقة، لهذا خلا كلايف لبضع دقائق مع نفسه في الظلمة خارج الكونسرت غيباو. سار وسط الحشود، وكان الناس قد بدأوا يصلون لحضور الحفل الموسيقي المسائي. شوبرت. (ألم يسمع العالم ما يكفي عن شوبرت المصاب بمرض السفلس؟). وقف قرب منعطف أحد الشوارع وتنشّق عبير هواء أمستردام المعتدل الذي بدا دومًا معبقًا إلى حدٍّ ما بدخان السيكار وطعم الكاتشاب. كان يعرف مقطوعته الموسيقيّة معرفة جيّدة وعدد المقامات التي تحتويها وصوت كلّ جزء فيها. لقد شعر بهلوسة، بوهم ـ أو خيبة. لقد حطّم التنويع الموسيقي رائعته الموسيقيّة،

وبات مدركًا، أكثر من أيّ وقت مضى، إن كان هذا الإدراك ممكنًا، الخطط التي كان قد وضعها. لم يكن دافعه الغضب، ولا الضغينة أو الاشمئزاز أو ضرورة الوفاء بكلمته. إنّ ما يوشك أن يفعله صحيح من الناحية القانونيّة، وينطوي على الحتميّة اللاأخلاقيّة للهندسة النظريّة. ولم يشعر بأيّ شيء.

وفي داخل السيّارة أطلعه بو على مجريات العمل اليومي والمقاطع الكثيرة التي بدت وهي تُعزف عن الصفحة مباشرة، وعلى مقطع أو مقطعين ينبغي معالجتهما غدًا. وعلى رغم إدراك كلايف القصور الذي يكتنفها، إلاّ أنّه أراد من القائد العظيم أن يبارك سيمفونيّته بإطراء كبير، ولهذا السبب طرح عليه سؤالاً:

ـ أتظنّ أنّ المقطوعة متماسكة كلّها؟ أقصد من ناحية البناء؟

مال جوليو إلى أمام كي يغلق الزجاج الفاصل بينهما عن السائق.

ـ جميل. كلّ شيء جميل. لكن لا أخفيك سرًّا.

وهنا خفض من صوته واسترسل:

ـ أعتقد أنّ آلة الأوبو الموسيقيّة الثانية، التي تعزف عليها الفتاة الشابّة، جميلة جدًّا، لكنّ العزف ليس مثاليًّا. لحسن الحظّ أنّك لم تكتب شيئًا صعبًا لها. جميل جدًّا. إنّها ستتناول طعام العشاء معي في هذه الليلة.

استذكر بو على امتداد الرحلة القصيرة الجولة الأوروبيّة التي قامت بها الفرقة الأوركستراليّة السيمفونيّة البريطانيّة والتي كانت

توشك على نهايتها، في حين استحضر كلايف آخر مناسبة عمل فيها الاثنان معًا في براغ في سيمفونيّة الدراويش.

قال بو متعجّبًا:

ـ آه، نعم.

وهنا توقّفت السيّارة خارج مبنى الفندق وفُتح الباب ليترجّل. وأضاف:

ـ أتذكر ذلك. يا لها من مقطوعة مدهشة. يصعب كثيرًا استعادة القدرة الشبابيّة على الابتكار. أليس كذلك أيّها القائد؟

افترقا في ردهة الفندق، حيث ذهب بو إلى مكتب الاستقبال، في حين ذهب كلايف ليأخذ مظروفًا من المكتب. وهناك قيل له إنّ فيرنون وصل قبل نصف ساعة وإنّه ذهب لحضور اجتماع. وأُقيم حفل تناول المشروبات للفرقة الموسيقيّة والأصدقاء والصحافة في صالة فسيحة تعلو الثريّات سقفها، وتقع في الجزء الخلفي من الفندق. ثمّة نادل يقف بجوار الباب حاملاً صينيّة التقط كلايف من فوقها كأسًا له وكأسًا لفيرنون، وتوجّه إلى ركن منعزل حيث استقرّ به المقام فوق مقعد وثير قرب النافذة ليقرأ تعليمات الطبيب ويفتح مظروفًا صغيرًا يحتوي على مسحوق أبيض. كان يحدّق إلى الباب بين الفينة والفينة. ولمّا اتّصل فيرنون في وقت مبكر من الأسبوع ليعتذر بسبب إخباره الشرطة ـ كنت مغفّلاً، ضغط العمل، أسبوع مهلك، وهلم جرّا ـ خاصّة عندما اقترح الحضور إلى أمستردام وإكمال المصالحة، وقال إنّ لديه بعض الأعمال فيها، على أيّة حال. ردَّ عليه كلايف ردًّا ينمّ عن التهذيب. لكن يديه كانتا

ترتعشان عندما وضع سمّاعة الهاتف في مكانها. إنّهما ترتعشان الآن وهو يضع المسحوق في كأس فيرنون الذي يحتوي على شمبانيا، الذي فار قليلاً ثم استقرّ. مسح كلايف بإصبعه الصغيرة الرغوة الرماديّة اللون التي تجمّعت من حول حافّة الكأس ووقف وحمل كلّ كأس بيد: كأس فيرنون باليد اليمنى وكأسه باليسرى. مهمّ جدًّا أن يتذكّر هذا الأمر. كان فيرنون على حقّ وإن كان مُخطئًا.

لا تشغل بال كلايف الآن سوى مشكلة واحدة وهو يتقدّم وسط الضجيج المتنافر للعازفين ومتعهّدي الفنون والنقّاد: كيف يمكن إقناع فيرنون بتناول هذا المشروب قبل مجيء الطبيب؟ بتناول هذه الكأس دون الأخرى؟ لعلّ الأفضل اعتراض طريقه قرب الباب قبل أن يمدّ يده ليمسك بكأس من فوق الصينيّة. اندلقت الشمبانيا على رسغيه وهو يدور من حول عازفي الآلات النحاسيّة الصادحة، وكان عليه أن يسير مسافة طويلة حتى يعود إلى الصالة كي يتفادى الاقتراب من عازفي الطبول الكبيرة الذين بدوا سكارى ينافسون بذلك عازفي الطبول الأخرى. وأخيرًا وصلت مجموعة عازفي الكمان الذين سمحوا لعازفي الفلوت والفلوت الصغير بالانضمام إليهم. ثمّة نساء أكثر عددًا هنا لإشاعة الهدوء. كنّ يقفن في جماعات مؤلّفة من امرأتين أو ثلاث يترنّمن ترنيمات رقيقة، والجوّ يعبق تمامًا بعطورهنّ. وإلى أحد الجوانب وقف ثلاثة رجال يتجاذبون أطراف الحديث عن فلوبير بصوت خافت. عثر كلايف على موطئ قدم له فوق سجّادة لا يشغله أحد، وتمكّن هناك من أن يرى بوضوح الباب المزدوج الضخم المؤدّي إلى الردهة. عاجلاً أم

آجلاً سيأتي من يتكلّم وإيّاه. عاجلاً. وكان هذا هو بول لانارك القميء التافه والناقد الذي أعلن أنّ كلايف هو غورسيكي الرجل المفكّر الذي تنكّر لأفكاره فيما بعد علانيّة: كان غورسيكي هو لينلي المفكّر. وممّا يدعو إلى العجب أنّ لديه الجرأة على الاقتراب.

ـ آه، لينلي. هل إحدى هاتين الكأسين لي؟

ـ لا. أرجوك دعني وشأني.

كان من شأنه أن يشعر بالسعادة وهو يقدّم المشروب إلى لانارك بيده اليمنى. استدار كلايف نصف استدارة، لكنّ الناقد كان ثملاً ويبدو أنّه كان يريد العبث.

ـ لقد سمعت عن آخر منجزاتك. هل عنوانها سيمفونيّة الألفيّة حقًّا؟

ردّ كلايف بفظاظة:

ـ لا، الصحافة هي التي أطلقت عليها هذا الاسم.

ـ لقد سمعت كلّ شيء عنها. وقيل إنّك مزّقت بيتهوفن إرْبًا إرْبًا.

ـ اغرب عنّي.

ـ أعتقد أنّ من الأفضل أن تطلق عليها عيّنة، أو مقتطف ما بعد الحداثة. لكن أليست غايتك أن تكون سابقًا للحداثة؟

ـ إذا لم تغرب عنّي فسوف أمزّق وجهك الغبي.

ـ إذًا عليك أن تقدّم لي إحدى هاتين الكأسين كي تحرّر إحدى يديك.

وفي حين كان كلايف ينظر إلى ما حوله علَّه يجد مكانًا يضع فيه الكأسين، شاهد فيرنون متّجهًا إليه مبتسمًا ابتسامة عريضة. لسوء الحظّ كان يحمل كأسين مملوءين.

ـ كلايف!

ـ فيرنون!

تظاهر لانارك بالتملّق والمداهنة.

ـ آه. البرغوث نفسه.

قال كلايف:

ـ اسمع. لديّ كأس لك.

ـ ولديّ أنا أيضًا كأس لك.

ـ حسنًا...

وهنا قدَّم كلّ واحد منهما كأسًا للانارك. ثم قدّم فيرنون كأسًا لكلايف، في حين قدّم كلايف كأسه لفيرنون.

ـ في صحّتك!

أومأ فيرنون لكلايف ونظر إليه نظرة ذات مغزى ثم التفت إلى لانارك:

ـ لقد شاهدت مؤخّرًا اسمك على قائمة تضمّ أسماء بعض

الوجهاء: قضاة ورؤساء شرطة وكبار رجال الأعمال ووزراء. . .

تألّق وجه لانارك بالبشر والسرور.

ـ كلّ ما يتردّد عن منح درجة الفارس ليس سوى هراء.

ـ وهو كذلك. الأمر يخصّ بيت الأطفال في مقاطعة ويلز. حلقة محبّي الأطفال من الدرجة الأولى. لقد تمّ تصويرك وأنت تدخل وتخرج ستّ مرّات. كنّا نفكّر بنشر موضوع قبل أن أُرفد، لكنّني أعتقد أنّ شخصًا ما سيتولّى أمره.

وقف لانارك عشر دقائق ثابتًا بلا حراك، كأنّ له هيبة عسكريّة، ذراعاه ملتصقتان بجنبيه وكأسا الشمبانيا مرفوعتان أمامه، فيما تجمّدت تكشيرة بعيدة على شفتيه.

كانت الإشارات التحذيريّة تبدو في عينيه الجاحظتين وحركة حنجرته. موجات من التقلّص اللاإرادي.

صاح فيرنون:

ـ احذر. عد إلى الوراء.

أفلح الاثنان في الابتعاد عن محتويات معدة لانارك المندفعة بهيئة قوس. وفجأة ران صمت مطبق على الصالة. ثم اندفع جميع عازفي الآلات الوتريّة بحركة ممتدّة وهابطة من الاشمئزاز ومعهم عازفو آلات الفلوت والفلوت الصغير نحو الآلات النحاسيّة تاركين الناقد الموسيقي وفعله ـ موادّ متكلّسة ومايونيز على أودي هوغسترات ـ تحت نور ثريّا وحيدة. شقّ كلايف وفيرنون طريقهما بين الجموع، وعندما اقتربا من الباب تمكّنا من تخليص نفسيهما

ودخول الردهة الهادئة. استقرّا فوق مقعد طويل منجَّد واستأنفا احتساء كأسيهما من الشمبانيا.

قال كلايف:

ـ ذلك أفضل من ضربة. هل كان أيّ منهما حقيقيًّا؟

ـ لم أعهد التفكير على ذلك النحو.

ـ في صحّتك مجدّدًا.

ـ في صحّتك. لكن اسمع. لقد كنت أعني ما أقول. إنّني آسف حقًّا بشأن إرسال الشرطة إليك. ذلك سلوك شائن. اعتذارات غير مشروطة تنمّ عن مذلّة.

ـ لا بأس. آسف جدًّا بشأن وظيفتك وكلّ ما رافق ذلك من أمور. لقد كنت الأفضل حقًّا.

ـ لنكن أصدقاء إذًا.

ـ أصدقاء.

أفرغ فيرنون كأسه وتثاءب ونهض على قدميه.

ـ حسنًا. إذا كنّا سنتناول عشاءنا معًا، فإنّني أودّ أن أحظى بقسط من النوم، فأنا أشعر بأنّني منهك.

ـ كان أسبوعك ثقيلاً. أمّا أنا فسوف أستحمّ، وسنلتقي بعد ساعة.

ـ حسنًا.

راقب كلايف فيرنون وهو يبتعد ليأخذ مفتاحه من على المكتب. كان ثمّة رجل وامرأة يقفان عند أسفل السلالم المزدوجة الضخمة استقبلا نظرة كلايف بهزّة من رأسيهما. وبعد لحظة لحقا بفيرنون إلى أعلى السلالم. أمّا كلايف فقد سار من حول الردهة مرّتين قبل أن يأخذ مفتاحه ويذهب إلى غرفته.

بعد دقائق كان يقف في الحمّام مرتديًا كامل ثيابه ولكنّه كان حافي القدمين، منحنيًا من فوق المغطس، محاولاً استخدام الأداة البرّاقة المطليّة بالذهب التي كانت تسدّ المجرى. كانت بحاجة إلى أن تُرفع وتُدار في آن واحد، لكنّه لم يبدُ عليه أنّه قادر على ذلك. في غضون ذلك. كانت الأرضيّة المرمريّة الساخنة تداعب أخمص قدميه فتذكّره بتعب حسّي. ليالٍ بيضاء في ساوث كين، وتعطيل في مخفر الشرطة وتكريم في الكونسيرت غيبو. كان أسبوعه حافلاً أيضًا. إغفاءة قصيرة قبل الاستحمام. عاد إلى غرفة النوم دون بنطال وفكّ أزرار قميصه وألقى بنفسه فوق السرير العملاق وهو يشعر بمتعة بالغة. احتضن غطاء السرير الذهبي اللامع فخذيه، وشعر بنشوة الاستسلام المرهق. كلّ شيء على ما يرام، إذْ سرعان ما سيصل نيويورك لرؤية سوزي مارسيلان وعندئذٍ ينتعش مجدّدًا ذلك الجزء المنسي من جسده. من شأنه وهو مستلقٍ فوق هذا الحرير ـ حتى الهواء حريري في هذه الغرفة الفخمة ـ أن يهتزّ طربًا إن تحامل على نفسه وحرَّك ساقيه. ربّما سيتمكّن من التوقّف عن التفكير في العمل لأسبوع لو ركّز ذهنه وفكّر في أن يُغرم بسوزي. كانت فتاة جيّدة، مباشرة وصريحة، عضو في فرقة تمثيليّة ومن شأنها أن تظلّ معه. وعندما فكّر في هذا كلّه، استبدّت به عاطفة

جيّاشة مفاجئة تجاه نفسه على أنّه الشخص الوحيد الذي ينبغي الالتصاق به. وشعر بدمعة تفيض من عينه وتنساب فوق عظم وجنته. لم يكلّف نفسه عناء مسحها. ولا ضرورة لذلك، لأنّ من يسير في الغرفة نحوه هي مولي، مولي لين! ومن ورائها شخص ما. بدا فمها الأنيق وعيناها السوداوان الواسعتان وقصّة شعرها الجديدة ملائمة لها تمامًا. يا لها من امرأة رائعة.

تمكّن كلايف من أن يهتف بصوت أجشّ:

ـ مولي! معذرة. إنّني لا أستطيع النهوض...

ـ مسكين يا كلايف.

ـ إنّني غاية في التعب...

وضعت يدًا باردةً على جبينه.

ـ يا عزيزي. أنت عبقري، والسيمفونيّة ساحرة.

ـ هل كنت جاهزة أثناء التمرين؟ لم أشاهدك.

ـ كنت مشغولاً وعظيمًا فلم تتمكّن من مشاهدتي. استمع. لقد جاء معي شخص أحبّ أن أعرّفك إليه.

كان كلايف قد التقى معظم عشّاق مولي، لكنّه لم يتمكّن من معرفة هذا العشيق.

مالت مولي من فوقه وتمتمت في أُذنه على نحو مجرّب كعهدها:

ـ لقد التقيت به من قبل. إنّه بول لانارك.

ـ صحيح. لم أتمكّن من معرفته بسبب لحيته.

ـ القضيّة هي أنّه يرغب في الحصول على توقيعك، ولكنّه خجول لا يقوى على طلب ذلك.

كان كلايف مصمّمًا على أن يكون كلّ شيء على ما يرام من أجل مولي، ولم يقلق بشأن لانارك.

ـ لا، لا، لا مانع لديّ أبدًا.

قال لانارك وهو يدفع بقلم وورقة باتّجاهه:

ـ سأكون شاكرًا جدًّا لك.

كتب كلايف اسمه وقال:

ـ لا ينبغي لك أن تشعر بالحرج وأنت تطلب ذلك.

ـ كما أرجو أن توقّع هنا أيضًا إن لم يكن لديك اعتراض.

ـ لن يزعجني ذلك، لا، أبدًا.

كان مجهود الكتابة بالغًا، فاضطرّ إلى أن يجلس معتدلاً في سريره، فاقتربت منه مولي مجدّدًا.

ـ سأخبرك بشيء واحد يا عزيزي ولن أتفوّه به بعد الآن. لكن أتدري، كنت في أمسّ الحاجة إليك في ذلك اليوم في منطقة البحيرات.

ـ آه، يا الله. لم أدرك أنّك أنت يا مولي.

ـ إنّك تعطي الأولويّة لعملك دائمًا. وربّما كان هذا عملاً صحيحًا.

ـ نعم. لا. أعني لو أنّني كنت أعرف أنّك لكنت لقّنت ذلك الرجل النحيل الوجه درسًا.

ـ حتمًا.

ثم وضعت يدها فوق رسغه وسلّطت ضوء مصباح يدوي صغير على عينيه. يا لها من امرأة!

همس كلايف:

ـ ذراعي ساخنة جدًّا.

ـ مسكين أنت يا كلايف. لهذا السبب رفعت أكمامك إلى أعلى أيّها المغفل. أمّا الآن، فإنّ بول يريد أن يطلعك على رأيه الحقيقي في عملك، وذلك بغرس إبرة كبيرة في ذراعك.

نفّذ الناقد الموسيقي ذلك، وكان غرس الإبرة مؤلمًا. بعض المديح يؤلم. لكن شيئًا واحدًا تعلّمه كلايف على امتداد سني حياته وهو كيفيّة تقبّل الإطراء.

وصاح وهو يتأوّه:

ـ حسنًا، شكرًا جزيلاً. أنت في منتهى الرقّة. أنا شخصيًّا لا أتبجّح لها كثيرًا. لكن، على أيّة حال، يسعدني أنّها راقتك. شكرًا جزيلاً لك..

من وجهة نظر الطبيب الهولندي والممرّضة، رفع الموسيقار رأسه، وقبل أن يغمض عينيه بدا كأنّه يحاول وهو على الوسادة أن ينحني احترامًا بكلّ تواضع.

* * *

(٥)

للمرّة الأولى خلال النهار وجد فيرنون نفسه وحيدًا. كانت خطّته بسيطة. أغلق الباب المؤدّي إلى المكتب الخارجي بهدوء وطوَّح بحذائه بعيدًا، وأقفل هاتفه وأزاح الأوراق والكتب من على مكتبه ـ واستلقى فوقه. لا تزال هناك خمس دقائق قبل انعقاد المؤتمر الصباحي، ولا بأس من أن يغفو إغفاءة قصيرة. لقد اعتاد على ذلك من قبل ـ ولا بدّ أنّ مصلحة الجريدة تتطلّب ظهوره بأحسن شكل. وبعد أن استلقى راودته صورته بهيئة تمثال يهيمن على ردهة مبنى جادج هاوس، رجل أفعال، رئيس تحرير. في حالة الاستراحة. لكن على نحو موقّت حسب، لأنّ من المقرّر أن يبدأ الاجتماع وعلى الفور ـ اللعنة ـ كان الناس قد بدأوا بالدخول. كان عليه أن يخبر جين بإبقائهم بعيدًا. كان يهوى القصص التي تُروى في الحانات أثناء وجبات الغداء عن رؤساء التحرير الكبار: في. تي. هاليداي المدهش الذي اشتهر شهرة باتيغيت والذي اعتاد أن يترأّس اجتماعات الصباح وهو مضطجع فوق مكتبه. وكانوا

يضطرون إلى التظاهر بأنّهم لا يشاهدونه. ما من أحد تجرّأ على التفوّه بكلمة. بلا حذاء. في هذه الأيّام تراهم كلّهم رجالاً يتّصفون بالشطارة والدماثة، محاسبين متوثّبين على أقدامهم، أو نساء يلبسن بذلات سودًا. هل قلت مشروب جن وماء غازي؟ لقد أنجز في. تي على وجه التوكيد تلك الصفحة الأولى المشهورة. ضعوا المقالات في الصفحة الثانية واتركوا الصور تحكي عن الموضوع. تلك أيّام كانت فيها الصحف مهمّة.

هل تبدأ؟ الجميع حاضرون. فرانك ديبين وإلى جانبه ـ ويا للمفاجأة السارّة ـ مولي لين. إنّها قضيّة مبدأ بالنسبة لفيرنون تتلخّص بأن لا يجمع بين حياته الشخصيّة والمهنيّة، لهذا لم يفعل شيئًا سوى أن أومأ إيماءة عمل. إنّها امرأة جميلة على رغم ذلك. كانت فكرتها تنمّ عن ذكاء عندما قرّرت أن تصبح شقراء. وكانت فكرته تنمّ عن ذكاء أيضًا عندما منحها وظيفة، تحديدًا على أساس عملها المدهش لمجلّة فوغ الباريسيّة. أم. إل. لين المدهشة. لم ترتّب شقّتها قطّ، ولم تغسل طبقًا البتّة.

بدأ فيرنون في موضوع التشريح دون أن يضع رأسه على مرفقه. ظهرت على نحو ما وسادة من تحت رأسه. من شأنها أن تُدخل البهجة في نفوس النحويّين. في ذهنه موضوع كتبه ديبين.

قال:

ـ سبق أن قلت، وسأقول مجدّدًا، لا يمكن استعمال دواء يشفي جميع الأمراض لعلاج مرض واحد. إنّه علاج شامل. ولا معنى لهذا الدواء في شفاء السرطان.

كان لدى فرانك ديبين من الغلّ والضغينة ما يجعله يتقدّم نحو فيرنون.

ـ إنّني غير موافق. يمكن للسرطان أن يتّخذ أشكالاً متعدّدة. كما أنّ الدواء الخاصّ بعلاج السرطان استعمال اصطلاحي جيّد تمامًا.

كانت لفرانك ميزة طول القامة، إلاّ أنّ فيرنون ظلّ مستلقيًا من فوق مكتبه ليبيّن أنّه ليس خائفًا.

قال بهدوء:

ـ لا أريد أن أرى ذلك في صحيفتي.

قال فرانك:

ـ لكن ليس هذا هو موضوعي الرئيس. أودّ أن توقّع على مصاريفي.

كان يمسك بيده ورقة وقلمًا.

أف. أس. ديبين المدهش. ازدادت نفقاته على نحو ماكر.

كان طلبًا يُثير الأعصاب. أثناء الاجتماع! واصل فيرنون كلامه بدلاً من أن يجادله. وكان كلامه موجّهًا لفرانك وفي الموضوع نفسه.

ـ السنة هي ١٩٩٦ وليس ١٨٩٦. إذا كنت تعني «ينكر» فلا تكتب كلمة «يناقض».

ممّا أثار خيبة أمل فيرنون أنّ مولي تقدّمت نحوه الآن لتدافع

عن قضيّة ديبين. لكن مؤكّدًا. مولي وفرانك. كان يتعيّن عليه أن يعرف ذلك. كانت تجذب كمّ قميص فيرنون، مستخدمة علاقاتها الشخصيّة مع رئيس التحرير لتعزيز مصالح عشيقها الحالي، وكانت تنحني لتهمس في أذن فيرنون.

ـ إنّه مدين يا حبيبي. نحن بحاجة إلى المال، وقد استقرّ بنا الحال معًا في هذا المكان الجميل الصغير في شارع رو دي سين...

كانت امرأة مدهشة حقًّا ولم يتمكّن يومًا من مقاومتها، ليس منذ أن علّمته كيف يشوي لحم الخنزير.

ـ حسنًا. بسرعة. لكن ينبغي لنا المضيُّ قدمًا.

قال فرانك:

ـ في مكانين: في الأعلى وفي الأسفل.

كتب فيرنون: (في. تي. هاليداي، رئيس تحرير) مرّتين، وبدت كتابته كأنّها استغرقت نصف ساعة. ولمّا فرغ من ذلك استأنف ملاحظاته. كانت مولي ترفع كمّ قميصه إلى أعلى، وإذا ما سألها عن سبب ذلك فسوف ينحرف عن الموضوع مرّة أخرى. كان ديبين أيضًا لا يزال يحوم من حول مكتب فيرنون. ولم ينزعج بأيّ منهما الآن، إذْ كان مشغول البال بأمور كثيرة.

ازدادت نبضات قلبه عندما وجد أسلوبًا ملهمًا على نحو أشدّ.

ـ لنتحوّل إلى الشرق الأوسط. إنّ هذه الصحيفة معروفة

بخطّها الموالي للعرب. لكنّنا على رغم ذلك لن نخشى شيئًا بإدانة الأعمال العدائيّة من كلا الطرفين. . .

ما من شأن فيرنون أن يخبر أحدًا عن الألم الرهيب الذي يعانيه في أعلى ذراعه وأنّه بدأ يدرك توًّا، وإنْ كان إدراكًا ضعيفًا، أين هو وما الذي كان يحتويه شراب الشمبانيا ومن هم هؤلاء الزوّار.

لكنّه توقّف عن الكلام ولزم الصمت برهة وجيزة وأخيرًا تمتم بوقار:

ـ تلك غنيمة.

* * *

(٦)

قرّر رئيس الوزراء في ذلك الأسبوع إجراء تعديل على مجلس الوزراء، وساد الاعتقاد بأنّ الصورة التي نُشرت في صحيفة ذا جادج هي التي فعلت فعلها في غارموني على الرّغم من أنّ الرأي العام كان يسير في مصلحته. وفي غضون يوم واحد اكتشف وزير الخارجيّة السابق في أروقة مقرّ الحزب ووسط النوّاب المستقلّين بأنّ هناك رغبة ضعيفة الآن لتحدّيه في شهر تشرين الثاني. ففي البلاد، على وجه العموم، ربّما تضفي سياسة العواطف قدرًا من المغفرة أو التسامح في الأقلّ، لكنّ السياسيّين لا يحبّذون مثل هذا الضعف عند من سيصبح زعيمًا مستقبلاً. وكان قدره يتمثّل في ضآلة الشأن التي تمنّاها رئيس تحرير صحيفة ذا جادج. بهذا السبب تمكّن جوليان غارموني من شقّ طريقه صوب ردهة المطار المخصّصة للشخصيّات العظيمة الشأن، والتي كان مركزه السابق لا يزال يؤهّله لدخولها دون أن تثقله الوثائق الحكوميّة، ودون أن يهتمّ به الموظّفون الحكوميّون. وهناك وجد جورج لين يصبّ لنفسه مشروبًا من المشرب المجّاني.

ـ آه جوليان. هلاَّ انضممت إليَّ؟

لم يشاهد أحدهما الآخر منذ جنازة مولي، فتصافحا مصافحة حذرة. كان غارموني قد سمع شائعات تفيد بأنّ لين هو الذي باع الصور. ولم يكن لين يعلم مدى ما يعرفه غارموني. وكان غارموني بدوره غير متأكّد من موقف لين إزاء علاقته بمولي. ولم يعرف لين إن كان غارموني يدرك إلى أيّ حدّ يحتقره جورج. كان عليهما أن يسافرا معًا إلى أمستردام لمرافقة الجثمان وإعادته إلى إنكلترا وذلك بوصف جورج صديقًا قديمًا من أصدقاء آل هاليداي وراعي فيرنون في صحيفة ذا جادج، وكذلك بوصف جوليان مدافعًا عن كلايف في مجلس الوزراء بناءً على أمر لينلي ترست. وكان الأوصياء يأملون في أن يعجّل حضور رئيس الوزراء في المعاملات الورقيّة التي ترافق نقل الجثمان من بلد إلى آخر.

حمل الاثنان مشروبهما وسط الردهة المزدحمة، إذْ كان معظم الناس عظيمي الشأن في تلك الأيّام، وعثرا على ركن خالٍ نسبيًّا قرب باب المرافق الصحيّة.

ـ نخب الراحلة.

ـ الراحلة.

فكّر غارموني برهة وجيزة، ثم قال:

ـ اسمع. طالما أنّنا تورّطنا معًا في القضيّة، فإنّنا قد نخرج منها أيضًا. أأنت الذي أعدَّ الصور؟

اعتدل جورج لين وقال بلهجة تنمّ عن ألم:

ـ بما أنّني رجل أعمال، فإنّني أدعم تمويل الحزب دعمًا مخلصًا وأتبرّع له. ما شأني أنا؟ لا بدّ أنّ هاليداي كان يجلس عليها منتظرًا لحظته.

ـ تناهى إلى سمعي أنّ هناك عروضًا للحصول على حقوق النشر.

ـ لقد كلّفت مولي لينلي ليتولّى حقوق النشر. ربّما حصل بذلك على بعض الجنيهات. أنا لم أحبّ طرح أسئلة.

فكّر غارموني وهو يرشف مشروب الويسكي أنّ صحيفة ذا جادج كانت ملتزمة بحماية مصادر معلوماتها. وإذا كان لين يكذب فقد أحسن صنعًا بذلك، وإذا لم يكذب فلتحلّ اللعنة إذًا على لينلي وكلّ أعماله.

نودي على رحلتهما. وفيما كان الاثنان يهبطان السلالم باتّجاه سيّارة الليموزين الواقفة في انتظارهما، وضع جورج يده على ذراع جوليان وقال:

ـ أتدري؟ أعتقد أنّك خرجت من القضيّة بسلام.

ـ آه، حقًّا؟

ثم حرَّك ذراعه دون أن يبدو عليه أنّه يقصد إبعادها.

ـ آه، نعم. من شأن معظم الرجال أن ينتحروا بسبب أوهى من هذا.

بعد ساعة ونصف الساعة كان هناك من يقودهما بسيّارة تابعة للحكومة الهولنديّة في شوارع أمستردام.

لم يتكلّما مدّة طويلة نسبيًّا، ثم قال جورج بغبطة:

ـ سمعت أنّ الحفل الافتتاحي في برمنغهام قد تأجّل.

ـ بل أُلغي، إذْ قال جوليو بو إنّه حفل ناقص لأنّ نصف أعضاء الفرقة السيمفونيّة البريطانيّة يرفضون العزف فيه. يبدو أنّ هناك لحنًا في نهاية المقطوعة الموسيقيّة مأخوذًا عن مقطوعة بيتهوفن «قصيدة إلى الفرح». يعطي أو يأخذ لحنًا أو لحنين.

ـ ليس ممّا يبعث على الدهشة أنّه انتحر.

كانت الجثامين تُحفظ في مشرحة صغيرة في سرداب مخفر الشرطة الرئيس في أمستردام. وفيما هما يهبطان الدرج الإسمنتي فكّر غارموني إن كان هناك أيّ مكان سرّي مشابه تحت مبنى سكوتلاند يارد. ليس في وسعه معرفة ذلك الآن. تمّ التعرّف على الهويّات على نحو رسمي، واقتيد الوزير السابق جانبًا للحديث مع مسؤولي وزارة الداخليّة الهولنديّة، تاركًا جورج لين يفكّر في وجوه أصدقائه القدامى. كانوا ويا للدهشة يبدون وديعين. افترقت شفتا فيرنون قليلاً كأنّه يوشك أن يتفوّه بشيء مثير للاهتمام، في حين بدا كلايف كأنّه سعيد بسبب ما يلقاه من استحسان.

سرعان ما اقتيد غارموني ولين إلى مركز المدينة. وغرق الرجلان في تفكيرهما.

قال غارموني بعد هنيهة:

ـ قيل لي توًّا قول يثير الاهتمام وهو أنّ الصحافة أساءت الفهم. بل كلّنا أسأنا الفهم.

القضيّة لم تكن انتحارًا مزدوجًا، بل إنّ أحدهما دسَّ السمّ للآخر. الله وحده يعلم ما الذي وضعه كلّ واحد منهما للآخر. إنّها جريمة قتل مزدوجة.

ـ تبيّن أنّ هناك أطبّاء أشقياء يدفعون بقوانين الموت الرحيم إلى أبعد حدودها، ويتلقّون مبالغ لقاء القضاء على أقرباء الناس الطاعنين في السنّ.

قال جورج. أعتقد أنّ بإمكان صحيفة ذا جادج أن تنشر مقالة في هذا الموضوع.

استدار ليلقي نظرة خارج النافذة. كانا يسيران بخطوات وئيدة على امتداد شارع براويرز غراشت. يا له من شارع جميل حسن التنظيم. ثمّة مقهى صغير وأنيق عند الناصية، ربّما يبيع المخدّرات.

تنهّد وقال أخيرًا:

ـ آه. يا للهولنديّين وقوانينهم المعقولة.

قال غارموني:

ـ تمامًا. عندما يخصّ الأمر القضايا المعقولة فإنّهم يتربّعون على قمّة المعقوليّة.

وفي وقت لاحق من العصر، وبعد أن عادا إلى إنكلترا وحسما قضيّة الجثامين في مطار هيثرو واجتازا الجمارك وشاهدا سائقيهما، صافح غارموني ولين أحدهما الآخر وافترقا، حيث ذهب الأوّل لتزجية وقت أطول مع أسرته في ويلتشاير والثاني لزيارة ماندي هاليداي.

طلب جورج من سائقه أن يتوقّف عند آخر الشارع كي يتمشّى لبضع دقائق. كان بحاجة إلى تخطيط ما يتعين عليه قوله لأرملة فيرنون. لكن عوضًا عن ذلك سار في خضمّ الأصيل البارد والمنعش ومرَّ بالقصور الفكتوريّة وأصوات قاطعات العشب الأولى في هذا الوقت المبكر من الربيع ليجد أنّ أفكاره تتحوّل تحوّلاً يبعث على السرور إلى اتّجاهات أخرى: غارموني يُضرب ضربًا مبرّحًا ويوثق بعناية بسبب إنكار زوجته الكاذبة لعلاقته في مؤتمرها الصحافي، والآن فيرنون بات بعيدًا، وكذلك كلايف. على أيّة حال، لم تكن الأمور سيّئة جدًّا على جبهة العاشق الأوّل. يقينًا أنّ الوقت حان للبدء بالتفكير في إحياء ذكرى مولي.

وصل جورج منزل آل هاليداي وتوقّف عند الدرج الأمامي. كان يعرف منذ سنوات. فتاة رائعة، صاخبة إلى حدٍّ كبير. ربّما آن الأوان كي يقترح عليها الخروج وتناول العشاء معًا.

نعم، إحياء ذكرى. في كنيسة سانت مارتن وليس في كنيسة سانت جيمز التي يفضّلها في هذه الأيّام السذَّج من الناس الذين يقرأون هذا النمط من الكتب التي ينشرها بنفسه.

إذًا، في سانت مارتن ولن يلقي أحد غيره كلمة، لا أحد. ولن يتبادل عشّاق سابقون النظرات. ابتسم، وفيما هو يرفع يده ليلمس جرس الباب، كان ذهنه قد تركّز على نحو مريح على القضيّة المدهشة الخاصّة بقائمة الضيوف.

* * *

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

في أحد أيّام شهر شباط البارد، التقى صديقان قديمان ليقدّما التعازي بوفاة «مولي». كلاهما كان عشيقًا لـ مولي في السابق: «كلايف» المؤلّف الموسيقي الأنجح في بريطانيا، و«فيرنون» محرّر في جريدة مرموقة.

في الأيّام التي ستلي الجنازة، سيوقّع الصديقان معاهدةً لا يعرفان نتائجها الرهيبة. وسيتّخذان قرارًا أخلاقيًا كارثيًا يضع صداقتهما على المحكّ.

إيان ماك إيوان روائيّ بريطانيّ، صدرتْ له إحدى عشرة رواية، منها «حديقة الإسمنت» و«كلاب سوداء» و«تعويض» (التي ستصدر قريبًا في دار الآداب). نال جائزة بوكر عن روايته «أمستردام» عام ١٩٩٨.

ISBN: 978-9953-89-163-7
9 789953 891637

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت